



منشورات جامعة دمشق  
كلية الشريعة

# محاضرات في علوم القرآن واعجازه

الأستاذ الدكتور  
نور الدين عتر

الأستاذ الدكتور  
محمد سعيد رمضان

إعداد  
الدكتور  
بديع السيد اللحام

١٤٤٢ - ١٤٤١  
م ٢٠٢١ - ٢٠٢٠

جامعة دمشق



محاضرات في  
علوم القرآن وإعجازه

كلية الشريعة

السنة الأولى

جامعة دمشق

كلية الشريعة

قسم القرآن والحديث



محاضرات في  
**علوم القرآن واعجازه**

الأستاذ الدكتور

الأستاذ الدكتور

نور الدين عتر

محمد سعيد رمضان

إعداد

الدكتور بديع السيد اللحام

١٤٤٠ - ١٤٣٩

جامعة دمشق

٢٠١٩ - ٢٠١٨



## محتويات الكتاب

	المقدمة
١١	<b>تاريخ القرآن ١٣ - ٨٧</b>
١٥	<b>القرآن (تعريفه ، وحقيقة)</b>
٢٥	<b>نزول القرآن مُنَجَّماً</b>
٢٨	<b>حكمة نزول القرآن مُنَجَّماً</b>
٢٨	أولاً - تشبيت قلب النبي ﷺ عليه وسلم
٢٩	ثانياً - تيسير حفظه على النبي ﷺ عليه وسلم
٢٩	ثالثاً - التدريج بالتشريع
٣٠	رابعاً - تمييز الناسخ عن المنسوخ
٣١	خامساً - مراعاة سبب النزول
٣٣	<b>أسباب النزول</b>
٣٦	أولاً - حكمة ارتباطات الآيات بأسباب النزول
٣٧	ثانياً - أمثلة لأسباب النزول
٣٨	ثالثاً - أهمية معرفة أسباب النزول
٣٩	رابعاً - اهتمام العلماء بالكتابة في «أسباب النزول»
٤١	<b>كيفية جمع القرآن وكتابته والأدوار التي مرت على ذلك</b>
٤٣	أولاً - ترتيب القرآن وكتابته في عهد رسول الله ﷺ عليه وسلم
٤٧	ثانياً - ما جدّ من ذلك في عهد أبي بكر رضي الله عنه
٥٠	ثالثاً - ما جدّ من ذلك في حلافة عثمان رضي الله عنه

٥٧	<b>رَسْمُ الْقُرْآنِ ونقطه</b>
٦٠	نقط المصحف
٦٥	<b>الْأَحْرُفُ السَّبْعُةُ</b>
٦٧	تعريف الأَحْرُفُ السَّبْعُةُ
٦٧	بيان الأَحْرُفُ السَّبْعُةُ في الحديث النبوي
٧٠	دلالة الأحاديث على أصول الموضوع
٧٢	<b>الْأَحْرُفُ السَّبْعُةُ و القراءات السَّبْعُ</b>
٧٢	ما هي حقيقة الأَحْرُفُ السَّبْعُةُ
٧٦	أين الأَحْرُفُ السَّبْعُةُ ؟
٧٩	<b>القراءاتُ و القراءةُ</b>
٧٩	تعريف القراءة
٨١	ضوابط القراءة المقبولة
٨٢	الضابطُ الأوَّلُ: موافقةُ العربيةِ و لَوْ بِوجهٍ
٨٢	الضابطُ الثاني: موافقةُ خطٍّ أحدهِ المصاحفِ و لَوْ احتِمالاً
٨٣	الضابطُ الثالثُ: صحةُ السندي
٨٣	أنواع القراءات حسب أسانيدها
٨٤	القراءات المتواترة و قراؤتها
٨٦	القراءات الشاذة
<b>علوم القرآن ٨٩ - ١٥١</b>	
٩١	تمهيد
٩٣	١ - ما هي علوم القرآن؟

٩٥	-٢ (علوم القرآن) اصطلاح خاص
٩٦	-٣ متى ظهر هذا الاصطلاح؟
٩٨	تعريف علوم القرآن في الاصطلاح
٩٩	التصنيف في علوم القرآن
١٠١	<b>التفسير</b> (حقيقة ، نشأته وتطوره ، مذاهبُه وشروطُه)
١٠٣	حقيقة التفسير والفرق بينه وبين التأويل
١٠٦	نشأة التفسير وتطوره
١٠٦	التفسير زمن الصحابة
١٠٧	التفسير في عهد التابعين
١١٠	تدوين التفسير
١١٣	مذاهب التفسير وشروطه
١١٥	المشتراك بين نوعي التفسير
١١٦	شروط التفسير
١١٩	<b>التفسير العلمي والتفسير الإشاري</b>
١٢٣	<b>المكي والمداني</b>
١٢٥	تمهيد
١٢٥	تعريف المكي والمداني
١٢٧	خصائص كلّ منهما
١٣٠	الفائدة من معرفة هذا العلم
١٣٣	<b>المبهم والمتشابه في القرآن</b>
١٣٥	تمهيد

١٣٧	المُبَهَّمُ
١٣٧	النوع الأول: الأَحْرُفُ المقطعة
١٣٩	النوع الثاني: جُمِلٌ وَأَفْعَاظٌ فِيهَا إِيمَانٌ
١٤١	حِكْمَةُ وجود المبهم في كتاب الله
١٤٦	المُتَشَابِهُ
١٤٦	أنواع المتشابه

### إِعْجَازُ الْقُرْآنِ ١٥٣ - ٢٢٢

١٥٥	الْمُعْجزَةُ لغةً واصطلاحاً
١٥٧	الإِعْلَامُ بِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ
١٦٠	مزايا الإِعْجَازِ الْقَرَائِي
١٦٢	شهادة العرب بِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ
١٦٩	شهادة غير المسلمين والأجانب بِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ
١٧٢	النَّظَريَّاتُ الْعَامَّةُ فِي بَيَانِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ
١٧٣	نظريَّةُ تفسيرِ الإِعْجَازِ بالصَّرْفَةِ
١٧٨	نظريَّةُ إِعْجَازِ نظمِ الْقُرْآنِ
١٨١	نظريَّةُ إِعْجَازِ النَّظَمِ الْمُوسِيقِيِّيِّ فِي الْقُرْآنِ
١٨٤	نظريَّةُ الإِعْجَازِ بِالتَّصْوِيرِ الْفَيِّيِّ
١٨٧	تفصيلُ أوجهِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ وشمولُهَا
١٩٠	أولاً - أوجهِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ من حيثِ البَيَانِ
١٩١	الوجهُ الأوَّلُ: المنهجُ الْبَدِيعُ
١٩٢	الوجهُ الثَّانِيُّ: الْجَزَالَةُ

١٩٢	الوجه الثالث: التفنن في التصرف في لسان العرب
١٩٣	١ - تعبيره عن طلب الفعل
١٩٣	٢ - تعبيره عن النهي
١٩٥	الوجه الرابع: الإبداع
١٩٨	الوجه الخامس: تأليف القرآن الصوتي في شكله وجوهره
١٩٩	١ - تأليف القرآن الصوتي في شكله
١٩٩	٢ - جوهر تأليف القرآن الصوتي
١٩٩	٢ - الفاصلة القرآنية
٢٠٣	الوجه السادس: القصد في اللفظ والوفاء بالمعنى
٢٠٤	الوجه السابع: خطاب العامة وخطاب الخاصة
٢٠٥	الوجه الثامن: إقناع العقل وإمتاع العاطفة
٢٠٧	الوجه التاسع: تألف الألفاظ والمعانٍ
٢٠٩	ثانياً: الإعجاز من حيث المضمون
٢١٠	الوجه الأول: العلوم التي اشتمل عليه القرآن
٢١١	الوجه الثاني: الإخبار عن الغيب
٢١١	أ - الإخبار عن غيب المستقبل
٢١٢	ب - الأخبار عن غيب الحاضر
٢١٣	ج - أخبار الغيب الماضي
٢١٨	الوجه الثالث: الإعجاز التشريعي
٢١٩	الوجه الرابع: اتساق نظريات القرآن وأحكامه
٢٢١	الوجه الخامس: تأثير القرآن وفعاليته في الأفادة



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوْجَةً﴾ [الكهف : ١] ،  
والصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي بَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّىَ الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَّ  
الْأَمَّةَ، وَعَلَى آلِهِ الْأَطْهَارِ، وَصَحَّابِيهِ الْأَخْيَارِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ  
الْدِينِ.

وبعد:

فَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ الْمَحْجَّةُ الَّتِي لَا يَحِيدُ عَنْهَا إِلَّا هَالُكَ، وَمَنْ ثُمَّ فَقَدَ  
لَقِيَ هَذَا الْكِتَابَ الْعَزِيزَ مِنْ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ عِنْيَةً لَا نَظِيرَ لَهَا، حَفْظًا وَتَلاوَةً،  
وَتَعْلِمًا وَتَعْلِيماً، وَاتِّباعًا وَعَمَلاً، وَقَدْ سَارَ الْعَامِلُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَفَقَدْ مَنْهَجٍ  
رَشِيدٍ، وَخَطَّى سَدِيدَة، مَتَّبِعِينَ قَوَاعِدَ مُحَكَّمَةٍ، وَضَوَابِطَ وَاضْحَىَ إِنْ فِي تَلَاوَتِهِ أَوْ  
فَهْمِهِ، وَقَدْ عُنِيَ الْعُلَمَاءُ بِتَبَعِهِ هَذِهِ الْضَّوَابِطُ وَالْقَوَاعِدُ وَتَضَمَّنَهَا فِي مَصْنَفَيِّ  
خَاصَّةٍ عُرِفَتْ بِهِ (كِتَابِ عِلُومِ الْقُرْآنِ).

هَذَا وَحْرَيٌّ مِنْ سَلْكِ طَرِيقِ الْعِلْمِ الشَّرِعيِّ أَنْ يَكُونَ عَلَى مَعْرِفَةٍ وَذَكْرٍ  
لِمُهِمَّاتِ عِلُومِ الْقُرْآنِ، وَلَذِلِكَ فَقَدْ تَضَمَّنَتْ مُعَظَّمُ مَنَاهِجِ الدِّرَاسَاتِ الشَّرِعِيَّةِ  
مُقْرَراً خَاصَّاً تَحْتَ هَذَا الْمَسْمَىِ.

وَقَدْ سَعَيْتُ فِي هَذِهِ الْمَذَكُورَةِ أَنْ أَجْمَعَ لِطَلَبَةِ كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ مِنْ أَبْحَاثِ عِلُومِ  
الْقُرْآنِ مَا هُمْ بِهِ مُسِيسٌ لِحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَلَيْسَ لِي مِنْ فَضْلِ فِيمَا قَدَّمْتُ، فَالْأَبْحَاثُ  
الَّتِي أَضَعُهَا بَيْنَ يَدِيكَ عَزِيزِي الطَّالِبُ هِيَ فِي حَقِيقَتِهِ مُجْمَوعَةُ أَبْحَاثٍ خَطَّ  
بعضُهَا قَلْمَعُ الْعَالَّمِ الشَّهِيدِ الأَسْتَاذِ الدَّكْتُورِ مُحَمَّدِ سَعِيدِ رَمَضَانِ الْبُوْطِيِّ رَحْمَهُ اللَّهُ

تعالى وأجلز له المثوبة، وخطَّ البعض الآخر يرَاعُ أستاذنا الحَدِيث العلامة الأستاذ الدكتور نور الدين عتر حفظه الله وزاد في نفعه، وبارك للآئمَّة بعلمه وحاله.

هذا وقد تضمنَت هذه المذكرة ثلاثة محاور رئيسية:

**تناول المحور الأول** تاريخ القرآن الكريم من حيث (نزوله وما يتعلَّق بذلك من أبحاث، وترتيبه وجمعه، ورسمه ونقطه) وهي أبحاث اعتمدت فيها على كتابات العلَّامة البوطي رحمة الله، وأضفت إليها مَبْحَثي (الأحرف السبعة، والقراءات) مما كتبه الأستاذ الدكتور عتر حفظه الله.

**وأما المحور الثاني** فيه أبحاثٌ من علوم القرآن، تضمنَت (علم التفسير وما يتعلَّق به من مباحث، ومعرفة المكي والمدني، والمبهم، والمتشابه) وكان العمدة في هذا المحور على كتابات الدكتور البوطي رحمة الله.

**وأما المحور الثالث** فقد أُفرِدَ لـ(إعجاز القرآن الكريم) وما يتلَّعَّق بذلك من مسائل، وأبحاث، والعمدة في هذا المحور على كتابات أستاذنا الدكتور عتر حفظه الله.

ولا بدَّ من التنبيه على أنَّني قد تصرَّفت قليلاً في النَّقل، وقمت بمراجعة النُّقول وتوثيقها من مصادرها الأساسية، وخرجت الأحاديث والآثار.

ولا يسعني إلَّا أن أشكر الأخ الدكتور محمود رمضان الذي قام بمراجعة هذا العمل كاملاً، وأبدى بعض الملاحظات التي أفادت منها، فجزاه الله كل خير. وفي الختام أسأل الله تعالى أن يجعل النفع بهذه المذكرة كما نفع بأصولها.

وكتب

د. بديع السيد اللحام

# تاریخ القرآن

القرآن (تعريفه ، وحقيقة)

نَزُولُ الْقُرْآنِ مُنَجَّمًا وَالْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ

أَسْبَابُ النَّزُولِ

جَمْعُ الْقُرْآنِ وَكَتَابَتِهِ

رَسْمُ الْقُرْآنِ وَنَقْطَهُ

الْأَحْرُفُ السَّبْعُ

القراءاتُ والقراءُ



# القرآن

## تعريفه ، وحقيقة

القرآن هو: **اللّفظ العربي المُعِجز المُوحى به إلى محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** المتعبد بتلاوته والواصل إلينا عن طريق التواتر.

إذا تأملت في هذا التعريف، وجدت فيه قيوداً أربعة، هي:

المُعِجز، الموحى به، المتعبد بتلاوته، المتواتر.

فلنشرح كلّ واحد منها على حدة، لنتبين حقيقة القرآن الكريم من وراء هذا التعريف، ونقف على ضبطه وحدوده.

**أولاً - المُعِجز**: ويقصد منه ما اتصف به القرآن من البلاغة والبيان اللذين أعجزا بلغاء العرب كافة عن الإتيان بأقصر سورة من مثله، رغم التحدى المتكرر، ورغم التطلع الشديد لدى الكثير منهم إلى معارضته والتتفوق على بيانه. وللقرآن وجوه غير هذا الوجه في إعجازه، ولكن الوجه المقصود منها عند التعريف هو هذا.

**ثانياً - المُوحى به**: ومعناه المنزّل عليه من الله عزّ وجلّ بواسطة جبريل، وهذا أهم قيد في تعريف القرآن وتحديد ماهيته.

وإذا كان «الوحى» عنصراً هاماً في حقيقة القرآن وتعريفه، فلا بد من دراسة وافية - وإن كانت موجزة - لهذه الكلمة، وتحليل صادق لحقيقةها. ومن أهم أسباب هذه الضرورة أن دراسات مختلفة حديثة حامت حولها، لا قصداً

لتفهمها، بل بغية مدّ خاشية من الغموض عليها، ثم الوصول بها إلى المعنى الذي يراد ربطها به، وإن لم تكن منه في شيء.

فلتنبئ بفكرة موضوعي مجرّد وعقل علمي متجرّر، ولنسأل مع السائلين:  
ما هو هذا الوحي الذي جاء بهذا القرآن فوضعه بين يدي محمد عليه الصّلاة والسلام؟

أهو نوع من الإلهام النفسي، أم هو حركة فكرية داخلية؟  
أم هو إشراق روحي جاءه عن طريق الكشف التدريجي؟  
أم هو ضرب من الصّرع والجنون كان يتتابه - كما قد قيل -؟  
أم هو استقبال لحقيقة ذاتية مستقلة عن كيانه يتلقاها من خارج فكره وشعوره؟

ونحن لا نملك سبيلاً علمية صحيحة للإجابة على هذه الأسئلة إلا بالرجوع إلى حقائق التاريخ الثابتة الواثقة إلينا عن طريق النّقل الصحيح.  
وإذا رجعنا نسأل حقائق التاريخ فإنّها تضمننا أمام حديث قصة بدء الوحي الذي روی في الصحاح من كتب الحديث والذي يكشف لنا سبيلاً صحيحة للإجابة على هذه الأسئلة.

وسأذكر نصّ الحديث كما أورده الإمام البخاري في صحيحه<sup>(١)</sup>:  
عن ابن شهابٍ، عن عروة بْن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين أمّا قالَتْ: أَوَّلُ ما بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو

<sup>(١)</sup>كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ رقم (٣ و ٤).

بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَبَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعْبُدُ - الْلَّيْلَى دَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْبَغِي إِلَى  
 أَهْلِهِ، وَيَتَرَوَّذُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَرَوَّذُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحُقُّ وَهُوَ فِي  
 غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: افْرُأْ، قَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، قَالَ: «فَأَخَذَنِي  
 فَعَطَنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: افْرُأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي  
 فَعَطَنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: افْرُأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ،  
 فَأَخَذَنِي فَعَطَنِي التَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: «افْرُأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ». خَلُقُ الْإِنْسَانَ  
 مِنْ عَلَقٍ \* افْرُأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ » [العلق: ٢] فَرَجَعَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
 يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خَوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَ: «زَمْلَوْنِي»  
 فَزَمَلَوْهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: «لَقَدْ  
 خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي» فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ  
 الرَّحْمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الصَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ  
 الْحَقِّ، فَانْطَلَقْتُ بِهِ خَدِيجَةَ حَتَّى أَنْتُ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ تَوْقِلَ بْنِ أَسَدٍ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ  
 أَبْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ،  
 فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ،  
 فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا أَبْنَ عَمِّ، اسْعَعْ مِنَ أَبْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا أَبْنَ أَخِي  
 مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ:  
 هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا حَذَّعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيَّا إِذْ  
 يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوْ مُخْرِجِي هُمْ»، قَالَ:  
 نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكَنِي يَوْمَكَ أَنْصُرَكَ  
 نَصْرًا مُؤَزِّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُؤْفَى، وَفَتَرَ الْوَحْيُ.

قال ابن شهاب: وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن، أن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: وهو يحدّث عن فتّرة الوحي فقال في حديثه: «بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتاً مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفِعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَرَعَبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمْلُونِي زَمْلُونِي» فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ \* قُمْ فَانِذْرُ﴾ [المدثر: ٢] إلى قوله ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرُ﴾ [المدثر: ٥]. فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَابَعَ.

ولا بد من أن نتوقف عند الحقائق التالية التي أتى الحديث على ذكرها:  
 - ففيه أن ملكاً فاجأه في غار حراء يتبعده، فقال له: اقرأ، فقال: ما أنا بقاريء، فأخذ الملك فغطته حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله، فقال: اقرأ، فقال: ما أنا بقاريء، وتكرر هذا من الملك والرسول عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات، وفي المرّة الثالثة قال الملك: ﴿ا قُرْأًا بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ \* خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلْقٍ \* اقْرَا وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ \* الَّذِي عَلِمَ بِالْقَلْمَِ \* عَلِمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥] فكان ذلك أوّل ما نزل من القرآن.

- وفي الحديث أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام نزل عقب ذلك من الغار عائداً إلى البيت وإن فؤاده ليربّح خوفاً.

- وفي الحديث أيضاً: أن خديجة ذهبت به إلى ورقة بن نوفل، وكان شيخاً كبيراً قد تنصر في الجاهلية فأخبره بالأمر، فقال له ورقة: إن هذا هو الناموس (أي الوحي) الذي نزل على موسى، وطمأنه أنه ليس شرّاً.

- وفي الحديث أيضاً أن الوحي قد انقطع بعد ذلك مدة طويلة من الرّمن، وأن الصّيق والأكم قد استبدّا به صلى الله عليه وسلم من ذلك، خوفاً من أن

يكون قد أساءَ فتحَّول عنه الوحيُ لذلِك. ثم إِنَّه رأى ذلِكَ الْمَلَكَ مَرَّةً أُخْرِي، وقد مَلَأَ مَظَاهِرُهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، قَالَ: فَرَعِيْتُ مِنْهُ وَرَجَعْتُ فَقَلَّتْ: زَمَلُونِي زَمَلُونِي.. فَنَزَلَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ \* قُمْ فَانِدِرُْ \* وَرَبَّكَ فَكَبِّرُْ \* وَتَبَّاكَ فَطَهِّرُْ \* وَالْجُزَّ فَاهْجُرُ﴾ [المثاث: ١ - ٥] ثُمَّ تَابَعَ الْوَحْيَ بَعْدَ ذلِك.

هَذِهِ الْحَقَائِقُ الْوَارِدَةُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ لَا يَمْكُنُ أَنْ نَتَجَاهِلُهَا أَوْ نَرْدِهَا بِشَكِّلٍ ما، لِسَبَبِيْنِ:

**أَوْلَاهُما** - أَنَّ ظَاهِرَةَ الْوَحْيِ الَّتِي يَتَحَدَّثُ الْكَاتِبُونَ عَنْ حَقِيقَتِهَا إِنَّمَا وَصَلَّتْ إِلَيْنَا عَنْ طَرِيقِ هَذَا الْحَدِيثِ وَنَحْوِهِ، فَإِذَا ضَرَبَ صَفْحًا عَنْهُ فَاضْرَبَ صَفْحًا عَنْ هَذِهِ الْكَلْمَةِ نَفْسِهَا، إِذْ لَا مَعْنَى لِلْبَحْثِ فِي شَيْءٍ غَيْرِ مُوجَدٍ وَلَا وَاقِعٍ مِنْ أَسَاسِهِ.

**ثَانِيهِمَا** - أَنَّ الْحَدِيثَ لَيْسَ مِنْ قَبْلِهِ هَذِهِ الْاسْتَنْتَاجَاتُ النَّظَريَّةُ أَوْ التَّارِيْخِيَّةُ الَّتِي يَجْنَحُ إِلَيْهَا كَثِيرٌ مِنْ بَاحِثِي هَذَا الْعَصْرِ وَيَبْنُونَ عَلَيْهَا أَحْمَالًاً وَأَتْقَالًاً مِنَ الْأَحْكَامِ الْخَطِيرَةِ الْهَامَةِ، بَلْ هُوَ خَبْرٌ نُقْلَ بِوَاسْطَةِ سِنِّدٍ مُتَصَلٍّ مِنَ الرِّوَاةِ، خَلَّ أَصْحَابُهُ - بَعْدَ الدِّرَاسَةِ لِتَرَاجِمِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ - عَنْ أَيِّ تَحْمِةٍ تَبَعَّثُ الشَّكُّ فِي كَلَامِهِمْ.

وَإِذَا فَرَضْنَا أَنَّ يَكُونُ الْوَحْيُ لَيْسَ إِلَّا شَعُورًا نَفْسِيًّا أَوْ إِشْرَاقًا روحيًّا أَوْ إِلهامًا دَاخِلِيًّا، ثُمَّ عَدْنَا إِلَى هَذَا الْحَدِيثِ، وَجَدْنَاهُ يَنْاقِضُ هَذَا الْفَرْضُ مَنَاقِضَةً صَرِيْحَةً صَارِخَةً، لِأَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ نَذَكِرُ مِنْهَا مَا يَلِي:

١ - إِنَّ شَيئًا مِنْ حَالَاتِ الإِلهَامِ أَوْ حَدِيثِ النَّفْسِ أَوِ الإِشْرَاقِ الْرُّوْحِيِّ، لَا يَسْتَدِعِي الْخُوفَ وَالرُّعبَ وَاصْفَارَ اللَّوْنِ، وَلَيْسَ ثَمَةُ أَيِّ انسِجامٍ بَيْنَ التَّدْرِجِ فِي

التفكير والتأمّل من ناحية، ومجاجة الخوف والرعب من ناحية أخرى؛ وإلا لاقتضى ذلك أن يعيش عامة المفكرين والتأمّلين والملهمين خبأً لدفعات من الرعب والخوف المفاجئة المتلاحقة!

وأنت خبيرٌ أنَّ الخوف والرعب ورجفان الجسم وتغيير اللون – كل ذلك من الانفعالات القسرية التي لا سبيل إلى اصطناعها والتَّمثيل بها.

إنَّ صاحب الإِلْهَام والإِشْرَاق النفسي والروحي، ليس من شأنه أن تتجسد إلهاماته أمام عينيه فجأةٌ فيرتعد منها ثم يحسبها أتيًا من الجنّ. ولقد فوجئ عليه الصَّلاةُ والسَّلَامُ بالملَك يخاطبه ويكلّمه، ولقد ارتجف خوفاً منه وذهب في محاولة معرفته كله مذهبٍ، حتى ظنَّ أَنَّه قد يكون من الجنّ، وذلك معنى قوله لخدِيجة «لَقَدْ خَشِيَتُ عَلَى نَفْسِي».

٢ - لقد قضت الحكمة الإلهية أن يتحبّب عنه الملَك الذي رآه لأول مرّةٍ في غارٍ حراءً، مدّةً طويلاً؛ ولقد استبدَّ به القلق والضَّجر من أجل ذلك، ثم تحوَّل القلق لديه إلى خوفٍ في نفسه من أَنْ يكون الله عزّ وجلّ قد قَلَاه، بعد أن أراد أن يشرّفه بالوحى والرسالة لسوءٍ قد صدر منه، حتى لقد ضاقت الدنيا عليه، وراح تحدّثه نفسه كَلَّما وصلَ إلى ذروة جبلٍ أَنْ يلقي بنفسه منها .. إلى أنْ رأى بنفسه الملَك الذي رآه في حراءٍ وقد ملأ شكله ما بين السماء والأرض: يقول: «يا محمد أنت رسول الله إلى الناس».

إن هذه الحالة التي مرَّ بها محمد عليه الصَّلاةُ والسَّلَامُ، تجعل مُحرَّد التَّفكير في كون الوحي إلهاماً نفسياً ضريباً من الهوس والجنون. إذ من البداية يمكن أنَّ صاحب الإلهامات النفسية والتأمّلات الفكرية لا يمكن أن يمرَّ إلهاماً أو تأمّلاته بشيءٍ من هذه الأحوال.

وأنت إذا تأملت في هذا الذي ذكرناه، أَضْحِتْ أَمَامَكِ الْحُكْمَةُ الْإِلهِيَّةُ  
الْعُلِيَا في أَنْ يولدُ الْوَحْيُ وَتَسِيرُ النَّبُوَّةُ فِي حَيَاةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهذا  
الشَّكْلِ الَّذِي وَرَدَ بِهِ الْحَدِيثُ.

فقد كان الله عز وجل قادرًا على أن يربط على قلب رسوله، ويطمئن نفسه  
بأنَّ هذا الذي كَلَمَهُ ليس إِلَّا جبريل - مَلَكُ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ - جاء ليخبره أنَّه  
رسول الله إلى الناس؛ ولكن الحكمة الإلهية الباهرة تريد إظهار الانفصال التام بين  
شخصيَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل البعثة، وشخصيته بعدها، وبيان أنَّ  
شيئًا مما قد نزل إليه من هذا الكتاب لم يطبع في ذهنه مُسبقاً، ولم يتصور الدعوة  
إلى شيء منه سلفاً.

غير أنَّ هذا وحده لا يكفي جواباً على كلِّ شيءٍ في الموضوع، فقد يسأل  
سؤال: لماذا كان ينزل عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَحْيُ بعد ذلك، وهو بين  
الكثير من أصحابه، فلا يرى المَلَكَ أَحَدًّا منهم سواه؟

والجواب: أنَّه ليس شرط وجود الموجودات أن تُرى بالأَبصارِ، إذ إنَّ قَوَّةَ  
الإِبصارِ فينا محدودة بحدٍ معينٍ، وإِلَّا لاقتضى ذلك أن يكون الشيء معدوماً إذا  
ابتعد عن البصر بعدها يمنع من رؤيته. على أنَّ من يسير على الله عز وجل -  
وهو الخالق لهذه العيون المبصرة - أن يزيد في قَوَّةِ ما شاء منها فيرى ما لا تراه  
العيون الأخرى. ولعلَّك تعلم أنَّ هنالك ألواناً لا تراها كلُّ العيون، وهنالك أيضًا  
- كما يقول مالك بن نبي - مجموعة من الإشعاعات الضوئية دون الضوء  
الأحمر وفوق البنفسجي لا تراها أعيننا، ولا شيء يثبت علمياً أنها كذلك  
بالنسبة لجميع العيون. فلقد توجد عيون أقل أو أكثر حساسية.

ثم إنك لو ذهبت تحمل الوحي بأنه ظاهرة نفسية داخلية، لامتنج القرآن بال الحديث، ولما أمكن أن يكون ثمة أي فرق بينهما، مع أن الفرق بينهما ظاهر واضح، يتمثل في أسلوب كل منهما و يتمثل في علاقته صلى الله عليه وسلم بكل منها.

- فقد كان يرسل ألفاظ الحديث إرسالاً، مكتفياً بأن يستودعه ذاكراً أصحابه، على حين يأمر بتسجيل كل ما يوحى إليه من آيات القرآن ويظل يكرره ويعيده خوفاً من أن ينساه فلا يذكره.

- وكان صلى الله عليه وسلم يسأل أحياناً عن أمرٍ فلا يجيب عليها، وربما مرّ على إمساكه عنها زمن طويلاً، حتى إذا نزلت آية من القرآن في شأن ذلك السؤال، طلب السائل وتلا عليه ما نزل من القرآن في شأنه.

- وربما تصرف هو نفسه في بعض الأمور على نحو معين، فنزلت آيات من القرآن تصرفه عن ذلك الوجه، بل ربما انطوت على شيء واضح من العتب الرقيق.

- ثم إنّه عليه الصلاة والسلام كان يعلن في كل مرة أن القرآن كلام الله، وأنه ليس إلا أميناً على قوله وتبليغه، وأنه يتلقاه من جبريل عليه السلام. لقد ظلّ عليه الصلاة والسلام صادقاً أربعين سنةً مع قومه، حتى كان بينهم مثال الصدق والأمانة. وبديهي أن مثل هذا الإنسان لا بد أن يكون قبل كل ذلك صادقاً مع نفسه، يتحرى الدقة في كل مشاعره وأقواله وإحساساته.

وبعد ذلك كله، فقد أجمع المؤرخون أنه صلى الله عليه وسلم كان أمياً لم يقرأ كتاباً ولا خططاً بيمنيه، ولم يدرس تشعيراً ولا تاريخاً ولا شيئاً من قصص

الرُّسُلِ والأنبياء السابقين، فمن أي نافذةٍ طبيعيةٍ يمكن لهذه الإلهامات كلها أن

تنزلَ عليه، وكيف لها بأن تبع هكذا من داخل قلبه وعقله؟

لا جرم أنَّ الوحي القرآني إذًا، إنما هو استقبال منه صلَّى اللهُ عليه وسلم لحقيقةٍ ذاتيةٍ مستقلةٍ خارجةٍ عن كيانه وشعوره الداخليٍّ؛ وبعيدةٍ عن كسيه أو سلوكه الفكري أو العملي.

أما قول بعض المستشرقين بأنَّه لم يكن إلا نوعاً من الصراع ينتابه بين الحين والآخر، فليس من النظريات العلمية الم موضوعية في شيءٍ حتى نضعه تحت مجهر البحث والنقاش، ونضيئ وقناً قصيراً أو طويلاً في الكلام عنه.

ونعود بعد هذا إلى شرح القيود المأخوذة في تعريف القرآن الكريم:

ثالثاً - التعبد بتلاوته: والمقصود به أنَّ من خصائص هذا الكتاب الكريم

- أنَّ مجرد قراءته يُعدُّ نوعاً من العبادة المشروعة تُكسبُ القارئَ أجراً ومثوبةً

عند الله.

- وأنَّ الصَّلاة لا تصحُّ إلَّا بقراءةٍ شيءٍ منه ولا يعني عنه غيره من الأذكار

أو الأدعية أو الأحاديث.

رابعاً - وصوله عن طريق التواتر: ومعناه أنَّ فُرَانِيَةَ آيةٍ من القرآن لا تثبت حتَّى تصل إلينا بطريق جموع غفيرة لا يمكن اتفاقها أو توافقها على الكذب،  
ترويها عن جموعٍ مثلها إلى الناقل الأول لها بعد أن تنزلت عليه وحياً من الله عزَّ وجلَّ، وهو سيدنا محمد عليه الصَّلاةُ والسلامُ.

إذا تأمَّلت هذه القيود الأربع في التعريف تصوَّرت حقيقةَ القرآن خاليةً عن

شُوبٍ أي لَبْسٍ بالحديث النَّبُوِيِّ.

أو القراءات الشاذة<sup>(١)</sup>.

أو الحديث القدسـي<sup>(٢)</sup>.

أو الترجمة الحرفـية أو التـرجمـة غير الحـرـفـية للقرآن.

إذ الحديث النبوي ليس بمعجزـ، وكذا الحديث القدسـي ليس بمعجزـ ذلك لأن اللـفـظ فيه من الرـسـول عليه الصـلـاـه والـسـلـامـ.

والقراءات الشاذـة غير متوـاـتـرة.

وأمـا التـرـجمـة ليست هي اللـفـظ المنـزـلـ.

<sup>(١)</sup> انظر الفرق بين القراءة المـتوـاـتـرة والـقـراءـة الشـاذـة ص ٥٠١.

<sup>(٢)</sup> الحديث القدسـي: هو ما قال فيه رسول الله صـلـى اللهـ عـلـيـه وـسـلـمـ قال اللهـ ، أو يـقـول اللهـ ، ... بما لم يـنـصـ على قـرـآنـيـه.

**نُزُولُ الْقُرآنِ مُنَجَّماً**

## **والحكمة في ذلك**

**حكمة نزول القرآن مُنَجَّماً**

- أولاً** - تثبيت قلب النبي ﷺ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
- ثانياً** - تيسير حفظه على النبي ﷺ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
- ثالثاً** - التدرج بالتشريع
- رابعاً** - تمييز الناسخ عن المنسوخ
- خامساً** - مراعاة سبب النزول



يقول الله تعالى في كتابه: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَزَلْنَاهُ شَرِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

ويقول أيضاً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لَتُبَيَّنَ بِهِ فُؤَادُكُمْ وَرَأْنَاهُ تَرْبِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

تعلم من دلالة هاتين الآيتين، وما ثبت ثبوتاً قاطعاً في السنة والتاريخ عن طريق السند الصحيح، أنَّ القرآن لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم جملةً واحدةً كما نزلت التوراة على سيدنا موسى، بل كان نزوله متدرجاً، فنارةً تنزل عليه الآية أو الآيات أو ثلاث آيات، وتارةً تنزل عليه سورة بجملتها، كـ(الفاتحة)، وـ(المدثر)، وهذا معنى أنَّه كان ينزل مُنْجَماً، وقد ظلت آياتُ هذا الكتاب الحُمْيَنِ تتتابع على مهلٍ وتدرج، حتى نزلت آخر آيةٍ منها قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بتسع ليالٍ، وهو قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وذلك على ما رجحه كثيرٌ من العلماء، فقد روى البخاري<sup>(١)</sup> معلقاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «هذه آخر آيةٍ نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم». .

<sup>(١)</sup> في البيوع، بابُ موكلِ الرِّبَا لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقَى مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، فَإِنْ لَمْ تَنْعَلِمُوا فَأُذْنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ قبل الحديث رقم ٢٠٨٦). وانظر البرهان للزرκشي ٢٠٩/١ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦٠/١.

## حكمة نزول القرآن منجماً:

هناك حِكْمٌ هامَّةٌ وكثيرةٌ تتعلّقُ بنزول القرآنِ منجَّماً، نذكر منها ما يلي:

### أولاً - ثبيت قلب النبيٍّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

لقد قضت سنة الله تعالى في عباده أن يلاقي النبي عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أذىً كبيراً من قومه من أجل خوضه بينهم بتبلیغ رسالة ربّه، وقد لاقى أنواع الشَّدائدِ التي جعلته بينهم مدةً طويلةً غريباً لا ناصر له.

ولقد كان اتصالُ الوحي به إذ ذاك وتتابع نزول الآيات عليه يشدُّ من أزره، ويحملُه على الصَّبرِ والمصابرة، ويعده بالنصرِ والتَّأييد في نهاية المطاف، كان لذلك أبلغُ الأثر في مواساته وتحفيف تلك الشَّدة عنه وإزاحة معانٍ الغربة والضعف عن نفسه. فمن هذه الآيات مثلاً:

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ \* وَمِنَ اللَّيلِ فَسِّيْحُهُ وَأَدَبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩ - ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿فَاصْدُعْ بِمَا تُؤْمِنُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ \* إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْرِئِينَ \* الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسُوفَ يَعْلَمُونَ \* وَلَقَدْ تَعْلَمَ أَنَّكَ يَضْيِقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ \* فَسِّيْحُ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ \* وَاغْبُدْ رَبِّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٤ - ٩٩].

فلو أنَّ القرآنَ نزلَ كُلَّهُ عليه جملةً واحدةً، لكان لانقطاعِ الوحي عنه بعد ذلك أثراً كبيراً في استشعارِ الوحشةِ والغربةِ. ومهما يكن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أُوتِيَ من العزمِ والصَّبرِ، فإنَّ لبشرِيَّته أَيْضاً أثراً بيِّناً في حياتهِ ما دامَ أَنَّه بشَّرٌ.

وقد كان لديه صلى الله عليه وسلم من قوة الإيمان بالله ما يكفي لأن يحمله على تبليغ دعوة ربّه والجهاد في سبيلها؛ ولكنّه على ذلك لم يكن به غناء عن المواساة والمعونة والتّصيير إذ يأتيه كل ذلك من ربّه المرأة تلو المرأة، يعيده إلى الأمان والانسراح والأنس والرضى.

وهذا المعنى هو ما عبر عنه كتاب الله بالتشبيت في قوله تعالى: ﴿كَذِلِكَ تُبَشِّرُ بِهِ فُؤادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢].

ثانياً - تيسير حفظه على النبي صلى الله عليه وسلم:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فليس لديه من الوسائل الكسبية ما يضبوط به ويحفظ به كل ما ينزل عليه إلا وسيلة التكرار والحفظ، فكان لا بدّ من نزول الآيات بدرج وخلال فترات متقطعة من الزمن حتى يكون السبيل إلى حفظه ووعيه أيسر. وعلى الرغم من ذلك فقد كان من عادته عليه الصلاة والسلام إذا نزلت عليه الآية من القرآن أن يأخذ في تكرارها ويستعجل في محاولة حفظها، ويظل يحرك لسانه بها خشية أن تنفلت من حفظه إلى أن نزل عليه قوله تعالى: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ تَعْجَلْ بِهِ \* إِنَّ عَلَيْنَا جَمِيعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٦-١٧].

ثالثاً - التّدريج بالتشريع:

لقد احتوى القرآن على متن الفقه الإسلامي كله، أي على عامّة أحكامه في الجملة، سواء ما يتعلّق بالعبادات، أو المعاملات المدنية، أو أحكام الأسرة، أو العقوبات أو النظم الدستورية المالية.

وكان العرب قبل الإسلام متفلتين عن كل قيدٍ، لا يخضعون لقوانين ولا يرتبطون بأي تنظيمٍ، فكان من العسير عليهم أن ينتقلوا من تلك الحالة في طفرة مفاجئةٍ، إلى التقيد بعامة أحكام الإسلام ونظامه وقوانينه.

فمن أجل ذلك أخذهم القرآن في ذلك بالوسيلة التربوية التي لا بد منها، وهي وسيلة التدرج في نقلهم من حياة الفوضى والتفلت، إلى حياة النّظام والتقيد بالمعايير التي لا بد منها في المجتمع الصالح.

- فنزلت أولاً الآيات المتعلقة بالعقيدة ودلائلها، حتى آمن الناس وثابوا إلى عقيدة التوحيد.

- ثم نزلت آيات الحلال والحرام وعامة الأحكام في مهلي وتدريج. وفي ذلك يروي الإمام البخاري<sup>(١)</sup> عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنيوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً...

#### رابعاً - تمييز الناسخ عن المنسوخ:

اقتضى التدرجُ بالناس في التشريع أن يوجد ثمة ناسخ ومنسوخ، إذ رب حكمٍ كانت المصلحة والرحمة بالناس تقتضي أخذهم به على مراحل، كتحريم الخمر مثلاً، فقد اكتفى القرآن في أول الأمر ببيان أن أضراره أكثر من فائدته، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُوكُمْ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] ، حتى إذا استقر في النفوس ذلك، نزلت آية تنهى

<sup>(١)</sup> في كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، (٤٩٩٣).

النّاس عن السّكر في أوقات الصّلاة، وذلك في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصّلَاةَ وَإِنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] وهو كما ترى تحريم جزئي في فترات متقطعة من الزّمن. فلما أخذ النّاس أنفسهم بذلك واعتادوا الامتناع عن الخمر في تلك الأوقات، نزلت آية قاطعة تحرمه تحرماً كلياً. وذلك هو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَسِيرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَرْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

وأنت خبير أن كل مرحلة من هذه المراحل السابقة إنّما هي نسخ لما قبلها، وتصعيد بالنّاس إلى طور جديد نحو تكامل التشريع واستقراره.

وهذا لا يتم - كما تعلم - إلّا بنزول القرآن منحّماً على فترة طويلة من الزّمن.

#### خامساً - مراعاة سبب النّزول:

اقتضت حكمّة الله تعالى أن تكون عامّةً أحكامه التي تضمّنها كتابه المبين، جواباً عن أسئلة أو حالاً مشكلاتٍ واقعية، حتى تكون أوقع في النفس وألصق بالحياة، وتلك وسيلةٌ تربويّةٌ ظاهرةٌ لا تحتاج إلى مزيدٍ بيانٍ لها. وإنّما سبيل ذلك أن تدرج هذه الأحكام وآياتها في النّزول تنتظّر مناسباتها وظروفها.

ولذلك نجد أن عدداً من آي القرآن إنّما نزل جواباً عن سؤالٍ أو حالاً لإشكالٍ:

فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُوكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحُهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطِلُهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُوكَ عَنِ الْمَحِيطِ قُلْ هُوَ أَدَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيطِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأُتْهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمْرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقوله جل جلاله: ﴿يَسْأَلُوكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَنْتُمُ اللَّهُ وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطْبِعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنُتمُ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].  
ومن الثاني قوله:

﴿وَلَا شَكِّحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَسَنَ يُؤْمِنَ وَلَمَّا مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبْتُمُ وَلَا شُكِّحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعِبْدُ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبْتُمُ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنَ حَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

فقد نزل كل منها حلاً مشكلة حدثت، ويطول بنا الحديث لو سردنا لك قصة كل منها.

وثمة حكمٌ آخرٌ حلِيلٌ لهذه الظاهرات في نزول القرآن، نمسك عن سردتها والإطناب فيها، استغناءً بما ذكرنا، وأكتفاءً بالنماذج عن الاستقصاء.

# أَسْبَابُ النُّزُولِ

تعريف سبب النزول

أولاً - حكمة ارتباطات الآيات بأسباب النزول

ثانياً - أمثلة لأسباب النزول

ثالثاً - أهمية معرفة أسباب النزول

رابعاً - اهتمام العلماء بالكتابة في «أسباب النزول»



تبين لك مما تقدم ذكره من نزول القرآن منجماً والحكمة من ذلك، أنَّ بعض آيات القرآن كان ينزل بمناسباتٍ ولأسبابٍ .  
 الواقع أنَّ آيات القرآن تنقسم إلى طائفتين بالنظر لأسباب النزول:  
 - فأمّا الطائفة منها - وهي التي تتعلق بالتشريع والأحكام والأخلاق - فمعظمها كان نزوله مرتبطاً بأسباب وقائع.  
 وأمّا الطائفة الأخرى - وهي التي تتحدث عن الأمم الغابرة وما حلَّ بها أو عن وصف الجنة والنار والقيامة - ففيها الكثير مما نزل ابتداء بدون سبب أو واقعة معينة.

وسبب النزول، كما يعرّفه الدكتور نور الدين عتر<sup>(١)</sup>: «سبب النزول ما نزلت الآية أو الآيات تتحدث عنه أيام وقوعه».

وهذا القيد «أيام وقوعه» يُعدُّ شرطاً جوهرياً لبيان سبب النزول وتمييزه عن الآيات التي نزلت للإخبار بالواقع الماضية، لذا انتقد العلماء ما ذكره الواهدي في تفسيره (سورة الفيل) من أنَّ سببها قصة قدوم الحبشة إلى مكة ومعهم الفيل قبل بعثته صلى الله عليه وسلم، فإنَّ ذلك ليس من أسباب النزول في شيء، بل هو من باب الإخبار عن الواقع الماضية، كذكر قصة نوح وعاد وثوفود وبناء البيت ... ونحو ذلك.

---

<sup>(١)</sup> في كتابه علوم القرآن الكريم: (ص: ٤٦).

هذا وستحدث في ما يلي

- أولاً عن حكمة هذا الأمر.

- ثم نورد أمثلة ونماذج لذلك.

- ثم نذكر أهمية معرفة **أسباب النزول** في التفسير.

- ونذكر أخيراً اهتمام العلماء بالكتابة عنه وإفراد التاليف فيه.

### **أولاً - حكمة ارتباطات الآيات بأسباب النزول:**

ولقد علمت أن أكثر آيات القرآن الكريم نزلت ابتداءً بدون سببٍ.

وإذا تأملت، وجدت أن معظم ما نزل ابتداءً إنما هو من نوع الوصف

والإخبار، وأن معظم ما نزل بسبب إنما هو من نوع الأوامر والنواهي والتوجيه

والإرشاد.

وهذه الظاهره تدللك على الحكمة في هذا الأمر.

فهذا النوع الثاني من الآيات، إنما شأنه تحويل حياة الناس إلى الأفضل، وصدّهم عن السيء والقبيح، وهدايتهم إلى الأقوم، وأنت خبير أن الأفكار التوجيهية والأحكام التشريعية تكون نظرية بمقدار بعدها عن ظروفها وعن ارتباطها بأسبابها العملية، ولن تجد وسيلة إلى ترسیخ حكم من الأحكام في الأذهان وتنبيه الأفكار إلى مدى صلاحته وقيمتها، خيراً من أن تعرضه على الناس في مجال تطبيقه وتقدمه عند الحاجة إليه، وإنما لطريقة تربوية معروفة لا تتحمل البحث والمراء.

فمن أحل ذلك قدم القرآن الكريم إلى الناس أحكامه التشريعية ومعظم توجيهاته الأخلاقية منشورة ومقسمة على الواقع والأحداث أو الأسئلة

والاستشكالات، حتى تمتزج هذه الأحكام مع الواقع وتغرس في تربة التطبيق فور ظهورها وولادتها، فيكون ذلك أدعى لحفظها وأبين لقيمتها وصلاحيتها.

أما النوع الأول - وهو ما يتعلّق بوصف القيامة والجنة والنار، وذكر القصص - فليس الشأن في ذلك متوقفاً على ما ذكرناه، فسيّان في تبليغها للناس وإخبارهم عنها أن تنزل آياتها ابتداءً أو مناسبةٍ وسبب.

### ثانياً - أمثلة لأسباب النزول:

١ - روي في الصحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهمَا، قال: عادَنِي النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَبُو بَكْرٍ فِي بَنِي سَلِمَةَ يَمْشِيَانِ، فَوَجَدَنِي لَا أَعْقِلُ، فَدَعَا إِمَاءَ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيَّ مِنْهُ، فَأَفَقَثْتُ، فَقُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ فِي مَالِيْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَنَزَّلْتُ<sup>(١)</sup>:

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أُولَادِكُمْ لِذَكَرٍ مِثْلٍ حَظَ الْأَنْثَيْنِ إِنْ كُنَّ نِسَاءً فُوقَ اثْنَيْنِ فَهُنَّ ثُلَاثًا مَا تَرَكَ ...﴾ الآية [النساء: ١١].

٢ - أخرج الترمذى عن عائشة رضي الله عنها، قالَتْ: أَنْزَلْتُ عَبْسَ وَتَوَلََّ فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومِ الْأَعْمَى فَقَالَتْ: أَتَى إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَعَلَ يَقُولُ: أَرْشَدْنِي، قَالَتْ: وَعِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عُظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ، قَالَتْ: فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْرَضُ عَنْهُ وَيُفْقَلُ عَلَى الْآخَرِ وَيَقُولُ: «أَتَرَى مَا أَقُولُ بِأَسَأً» فَيَقُولُ: «لَا» فَقَيْ هَذَا أَنْزَلْتُ<sup>(٢)</sup>: ﴿عَبْسَ

<sup>(١)</sup> البخاري في تفسير القرآن، باب فؤله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أُولَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١] (٤٥٧٧)، ومسلم في الفرائض، باب ميراث الكلالة (١٦١٦).

<sup>(٢)</sup> الترمذى في تفسير القرآن، باب وَمِنْ سُوْرَةِ عَبْسَ (٣٣٣١).

وَتَوَكَّلَ \* أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى \* وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَرَكِي \* أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنَعَّمُ الذِّكْرَى ﴿١﴾ [عبس: ١] .

### ثالثاً - أهمية معرفة أسباب النزول:

معرفة أسباب نزول الآيات، أهمية كبرى في تحليل معانيها، والوقوف على حقيقة تفسيرها، إذ رُبَّ آيةٍ من القرآن يعطي ظاهرها دلالاتٍ غير مقصودة منها، فإذا وقفت على مناسبتها وسبب نزولها انحسر عنها سبب اللبس وظهرت فيها حقيقة المعنى ومدى شموله واتساعه.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَإِنَّمَا تَوَلَّوْ فَمَّا وَجْهَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]

فالمُتباِرُ من ظاهرها أنَّ الاتِّجاه في الصَّلاة إلى كُلِّ الجهاتِ سواء، فللمصلِّي أنْ يَتَّجِه إلى حيثُ يشاءُ في صلاتهِ، ولكنَّك إذا وقفتَ على سببِ نزول هذه الآية رأَيْتَ أنَّها لا تُحتمل هذه الدَّلالَة المُطلقة، وسببُها على ما رواه الواحدِي في كتابِه (أسباب النزول) عن جابر بن عبد الله أنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث سَرِيَةً فأصابتهم ظلمةً، فلما عرفوا القبلة، فاتَّجه كلُّ منهم ناحية حسبَ ظنه واجتهاده، فلما قفلوا عائدين سأَلُوا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك فسكتَ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَإِنَّمَا تَوَلَّوْ فَمَّا وَجْهَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥].<sup>(١)</sup>

<sup>(١)</sup> أسباب النزول: ص ٢٠.

ولولا معرفة سبب النزول لتمسكوا به مثل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ  
الْحَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [آل عمران: ۲۱۹] دليلاً  
على عدم حرمتها لما فيها من المنافع.

فمن أحجل ذلك يقول الواعظ في مقدمة كتابه (أسباب النزول): «.. إذ  
هي - أي أسباب النزول - أوفى ما يجب الوقوف عليه وأولى ما تصرف العناية  
إليه، لامتناع معرفة تفسير الآية وقدد سببها دون الوقوف على قصتها وبيان  
نزاولها»<sup>(۱)</sup>.

وقال ابن دقيق العيد: «بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني  
القرآن»<sup>(۲)</sup>.

إذاً فإنّ «معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث  
العلم بالسبب».

رابعاً - اهتمام العلماء بالكتابة في «أسباب النزول»:  
نظراً لهذه الأهمية التي ذكرناها لمعرفة أسباب نزول الآيات ومناسباتها، اهتم  
الأئمة رحمهم الله بالكتابة فيها وتحميص الروايات والأخبار المتعلقة بها، بل أخذ  
العلماء يفردون المؤلفات في هذا الموضوع حتى غداً «أسباب النزول» اسم علم  
مستقلّ برأسه من علوم القرآن.

فأقدم ما عرفنا من كتب في هذا الفن المحدث علي بن المديني شيخ الإمام  
البخاري، (ت: ۲۳۴ هـ).

<sup>(۱)</sup> المرجع السابق: ص ۴.

<sup>(۲)</sup> الإتقان في علوم القرآن للسيوطى (۱/ ۲۸). وينظر البرهان في علوم القرآن للزرکشى (۱/ ۲۲).

ومَنْ أَلَّفَ فِيهِ، أَبُو الْحَسْنِ عَلَيْ بْنِ أَحْمَدَ الْوَاحِدِيُّ الْنِيْسَابُورِيُّ (ت: ٥٤٦٨هـ).

ومنهم الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت: ٥٨٥٢هـ)، وبيّن كتابه (العجائب).  
وأجمع المؤلفات كتاب (باب النقول في أسباب النزول) للإمام جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)<sup>(١)</sup>.

و بما أوضحتنا لك من تدرج القرآن في النزول، ونزول الكثير منه لأسباب ومناسبات، تعلم أنَّ القرآن لم تنزل آياته على الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طبقاً لهذا التَّرْتِيبِ الذي تراه، وهو التَّرْتِيبُ الذي كان في مكتونٍ علمَ اللهُ تَعَالَى، وتنزَّل به جُمِلَةً واحِدَةً إلى السماء الدُّنيَا، وإنَّما كان ينزل من ذلك ما تدعوه إليه الحاجة ويتناوب مع تدرج التشريع، حتى تكامل كله.

---

<sup>(١)</sup> ينظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطى (٤٧/١).

## أدوار جمٌع القرآن وكتابه

أولاً - كتابة القرآن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

ثانياً - ما جدّ من ذلك في عهد أبي بكر رضي الله عنه

ثالثاً - ما جدّ من ذلك في خلافة عثمان رضي الله عنه



## مرئ كاتبة القرآن الكريم بمراحل نوحزها فيما يلي:

أولاً - ترتيب القرآن وكتابته في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم:

استغرق نزول القرآن من الزَّمن ثلاثة وعشرين عاماً، هي جملة العمر الذي تكامل فيه هذا الكتاب العظيم نزواً وترتيباً بين سوره وآياته: روى البخاري عن عائشة، وأبي عباس رضي الله عنهم: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَبِثَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ، يُنَزَّلُ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرَ»<sup>(١)</sup>.

فكيف تم ترتيبه وتنسيقه بهذا الشكل، وهل كان ثمة من يكتب كل ما ينزل منه في عهده صلى الله عليه وسلم؟

أما الترتيب والتنسيق فإن الأحاديث الواردة في هذا الشأن تتفق على أنَّ

- ترتيب الآيات إلى جانب بعضها، حسبما عليه المصحف الآن، وإنما هو ترتيب توقيفي، لم يجتهد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من الصحابة في عهده أو من بعده، وإنما كان يتلقى ترتيبها إلى جانب بعضها وحياً من عند الله تعالى بواسطة جبريل عليه السلام.

روى الإمام أحمد عن عثمان بن أبي العاص، قال: كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا إِذْ شَخْصٌ بَيْصَرٌ ثُمَّ صَوَّبَهُ حَتَّىٰ كَادَ أَنْ يُلْرِقَهُ بِالْأَرْضِ، قَالَ: ثُمَّ شَخْصٌ بَيْصَرٌ فَقَالَ: «أَتَانِي جِبْرِيلٌ فَأَمَرَنِي أَنْ أَضْعَ هَذِهِ الْآيَةَ

<sup>(١)</sup> البخاري في المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم (٣٥٤٧) ومسلم في الفضائل، باب في صفة النبي صلى الله عليه وسلم (٢٣٤٧). ويلاحظ أن عائشة رضي الله عنها أسقطت المددة التي فتر فيها الوحي، وهي في بعض الأقوال ثلاثة سنوات، ويقصد هذا الحديث.

يُكَذِّبُ الْمَوْضِعُ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ...﴾  
الآية [النحل: ٩٠]»<sup>(١)</sup>.

وأورد القرطبي في تفسيره عن ابن عباس قال: «آخر ما نزل من القرآن:  
﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تَوَفَّ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]  
فَقَالَ جِبْرِيلُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا مُحَمَّدُ ضَعْفَهَا عَلَى رَأْسِ ثَمَانِينَ وَمَا تَيْنَينَ  
مِنَ الْبَقَرَةِ»<sup>(٢)</sup>.

وروى البخاري بسنده عن ابن الرئيسي: قُلْتُ لِعُثْمَانَ: هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ  
﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّونَ مِنْكُمْ وَيَذْرُونَ أَزْواجًا وَصَيَّةً لِأَزْواجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة:  
٢٤٠] قَدْ نَسَخَتْهَا الْأُخْرَى، فَلِمَ تَكْتُبُهَا؟ قَالَ: «تَدْعُهَا يَا ابْنَ أَخِي، لَا أُغَيِّرُ  
شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ»<sup>(٣)</sup>.

وبناءً على ذلك فقد تم إجماع العلماء ومختلف المؤرخين والباحثين على أن ترتيب آيات القرآن عملٌ توقيفي من الله عز وجل.

وما يُقال عن ترتيب الآيات، هو الذي يُقال أيضًا في ترتيب السور ووضع البسملة في الأوائل، قال القاضي أبو بكر بن الطيب - روايةً عن مكي رحمه الله في تفسير سورة «براءة» - إن ترتيب الآيات في السور ووضع البسملة في

<sup>(١)</sup> مسند أحمد رقم (١٧٩١٧).

<sup>(٢)</sup> الجامع لأحكام القرآن (٣ / ٣٧٥)، وينظر البخاري في التفسير باب ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ  
إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

<sup>(٣)</sup> البخاري في تفسير القرآن، باب ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّونَ مِنْكُمْ وَيَذْرُونَ أَزْواجًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]  
[٤٥٣٦).

الأوائل هو توقيفٌ من النبيٍّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولما لم يُؤمِر بذلك في أول سورة براءة تركت بلا بسمة.

يقولُ القرطبيُّ: ذَكَرَ ابْنُ وَهْبٍ فِي (جَامِعِهِ) قَالَ: سَمِعْتُ سُلَيْمَانَ بْنَ بِلَالٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَبِيعَةَ يَسْأَلُ: لَمْ قَدَّمْتَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، وَقَدْ نَزَّلَ قِبْلَهُمَا بِضَعْنَ وَثَمَانُونَ سُورَةً وَإِنَّمَا نَزَّلْنَا بِالْمَدِينَةِ؟ فَقَالَ رَبِيعَةُ: فُدِّمْتَا وَأَلْفَ الْقُرْآنَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ أَنَّهُ<sup>(١)</sup>.

إِلَّا أَنَّهُ وَقَعَ بَحْثٌ بَيْنَ عُلَمَاءِ هَذَا الشَّأْنِ فِي حِكْمَمٍ مِنْ أَحَبَّ أَنْ يَرْتَبْ سُورَةِ الْقُرْآنِ طَبْقًا لِتَارِيخِ نَزُولِهَا لَا لِتَرتِيبِهَا الْأَخِيرِ الَّذِي يَأْمُرُ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هَلْ هُوَ عَمَلٌ جَائِزٌ أَمْ لَا؟ وَلَيْسَ لَنَا فِي هَذَا الْمَحَالِ غَرْضٌ يَتَعَلَّقُ بِهَا الْبَحْثُ.

وَأَمَّا كِتَابَتِهِ فَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ أُمِيًّا لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ؛ أَجْمَعَ عَلَى ذَلِكَ عَامَّةُ الْمُؤْرِخِينَ وَالْبَاحِثِينَ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كُتِبَ تُتَلَوِّنْ قِيلَهُ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ يَمِينَكَ إِذَا لَأْرَتَابَ الْمُبْطَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَعْهُدُ بِكِتَابَةِ مَا يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَى أَشْخَاصٍ مِنَ الصَّحَابَةِ بِأَعْيُنِهِمْ، كَانَ يَطْلُقُ عَلَيْهِمْ اسْمَ (كِتَابُ الْوَحْيِ)، وَأَشْهَرُهُمُ الْخَلْفَاءُ الْأَرْبَعَةُ، وَأَبْنَى بْنُ كَعْبٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابَتَ، وَمَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفِيَانَ، وَالْمَغْيِرَةُ بْنُ شَعْبَةَ، وَالرُّبِّيُّ بْنُ الْعَوَامَ، وَشَرْحِبِيلُ بْنُ حَسَنَةَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ<sup>(٢)</sup>.

<sup>(١)</sup> انظر تفسير القرطبي (١ / ٦٠).

<sup>(٢)</sup> انظر فتح الباري: (٩/١٨).

وقد كانوا يكتبون القرآن فيما تيسّر لهم من العظام والسعف وألواح الحجارة الرّقيقة. وقد كانوا يضعون هذا الذي يكتبونه في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يكتبون منه لأنفسهم صوراً أخرى يحفظونها لديهم<sup>(١)</sup>.

فعمل كتاب الوحي في عهده صلى الله عليه وسلم لم يكن جمعاً لكتاب الله تعالى بين دفتيْن، وإنما كان مجرّد تسجيل كتابي له على مفترقات العظام والحجارة والأوراق وغيرها، مع ترتيب سوره وأياته حسب ما يوحى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولقد كان في الصحابة من يتبع آيات القرآن وترتيبها، فيحفظها عن ظهير قلب، حتى حفظوا بذلك القرآن كله، فمن مشاهيرهم: عبد الله بن مسعود، وسلام مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت.

وكان سائر الصحابة يشتّرون بحفظ مقدار كبيرة من القرآن، حسب ما يكون كتب منه لنفسه أو حسب ما يتيسّر له. وظلّ الصحابة يحفّظون على حفظ القرآن غيّاً حتى ارتفعت نسبة الحفاظ منهم إلى عدد لا يُحصى، يدلّ ذلك على ذلك ما يذكره الرواية من أنّ موقعة اليمامة التي وقعت في زمن أبي بكر رضي الله عنه قد قُتِلَ فيها سبعون صحافياً من حفظة القرآن، وروى القرطبي<sup>(٢)</sup> أنّهم سبعين - وهي رواية ضعيفة ولا شك - إلا أنك تستطيع أن تفهم من ذلك نسبة الصحابة الذين يحفظون القرآن في صدورهم.

<sup>(١)</sup> التّحقيق أنّ كتاب الوحي كانوا يضعون ما يكتبونه من القرآن في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال ذلك المحسّني في كتاب «فهم السنّن» وانظر البرهان للزرκشي (٢٣٨/١) والإتقان للسيوطى (٥٨/١).

<sup>(٢)</sup> انظر تفسير القرطبي: (٥٠/١).

ويَتَضَعُ لَكَ مِنْ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ أَنَّ الْقُرْآنَ وَعَاهُ الصَّدْرُ الْأَوَّلُ مِنَ  
الصَّحَابَةِ وَبَلَغُوهُ إِلَى مَنْ بَعْدِهِمْ بِطَرِيقَتَيْنِ:

إِحْدَاهُمَا: الْكِتَابَةُ الَّتِي كَانَتْ تَتَمُّ بِأَمْرِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ  
لِأَشْخَاصِ بِأَعْيَانِهِمْ وَكُلَّ إِلَيْهِمْ هَذَا الْأَمْرُ.

الثَّانِيَةُ: حفظُهُ فِي الصُّدُورِ عَنْ طَرِيقِ التَّلَقِيِّ مِنْ كَبَارِ قُرَاءِ الصَّحَابَةِ  
وَحَفَاظَهُمُ الَّذِينَ تَلَقَّوْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَقْرَهُمُ عَلَى كِيفِيَّةِ  
النُّطُقِ وَالْأَدَاءِ.

كَمَا يَتَضَعُ لَكَ أَنَّ الْقُرْآنَ رَغْمَ ذَلِكَ لَمْ يُجْمَعْ فِي مَصْحَفٍ عَلَى عَهْدِهِ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالسَّبِيلُ هُوَ ضِيقُ الْوَقْتِ بَيْنَ آخِرِ آيَةٍ نُزِّلَتْ مِنْهُ وَبَيْنِ  
وفَاتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ فَقَدْ عَلِمْتَ مَا ذَكَرْنَاهُ أَنَّ الْفَتْرَةَ بَيْنَهُمَا لَمْ تَزُدْ عَلَى  
تِسْعَ لَيَالٍ فِي أَكْثَرِ الرِّوَايَاتِ وَأَقْرَبَهَا إِلَى الاعْتِمَادِ.

ثَانِيًّا - مَا جَدَّ مِنْ ذَلِكَ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:  
قُلْنَا إِنَّ الْقُرْآنَ كَتَبَ كُلَّهُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَكِنْ  
مُتَفَرِّقاً دُونَ أَنْ يُجْمَعَ فِي مَصْحَفٍ وَاحِدٍ بَيْنَ دَفْتَرَيْنِ كَمَا هُوَ الْيَوْمُ  
فَلَمَّا تَوَفَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَوَلَّتِ الْخِلَافَةُ مِنْ بَعْدِهِ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ  
اللَّهُ عَنْهُ، وَوَقَعَتْ مَعرِكَةُ الْيَمَامَةِ الَّتِي اسْتَشَهَدَ فِيهَا - كَمَا قُلْنَا - عَدْدٌ كَبِيرٌ مِنَ  
حَفَظَةِ الْقُرْآنِ أَشَارَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِجَمْعِ الْقُرْآنِ  
وَحِفْظِهِ بَيْنِ دُفَّيْنِ مُخَافَةً أَنْ يَمُوتَ أَشْيَاطُ الْقُرَاءِ كَأُبَيِّ بْنَ كَعْبٍ، وَابْنِ مُسْعُودٍ،  
فَيُخْتَلِفُ النَّاسُ فِي قُرَاءَتِهِ إِذَا لَمْ يَكُونْ عِنْدَهُمْ إِمَامٌ يَجْمِعُونَ عَلَيْهِ.  
وَلِنُنْقَلِ لَكَ نَصًّا مَا رَوَهُ الْبَخَارِيُّ فِي ذَلِكَ.

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: «أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة - أي عندما قتل أهل اليمامة - فإذا عمر بن الخطاب عنده»، قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثيراً من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: «كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟» قال عمر: هذا والله خير، «فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلِكَ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر»، قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهكمك، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتبعد القرآن فاجمعه، «فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أشق على إمام أمري به من جمع القرآن»، قلت: «كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟»، قال: هو والله خير.

فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلِكَ شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهم، فتبعد القرآن أجمعه من العصب واللخاف، وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبية مع أبي حزيمة الأنباري لم أجدهما مع أحد غيره، ﴿لَقَدْ جاءُكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عِنْهُ﴾ [التوبية: ١٢٨] حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه<sup>(١)</sup>.

<sup>(١)</sup> البخاري في فضائل القرآن، باب جمع القرآن (٤٩٨٦).

فابلديد الذي أمر به أبو بكر رضي الله عنه، هو جمع ما تفرق من الرِّقَاع والحسب وغيرها، ثم استنساخها منها إلى صفحات مرتبة مجتمعات، تكون محفوظة في دار الخلافة ومرجعاً لل المسلمين في كيفية القراءة والأداء.

إذاً لم يكن عمل زيدٍ عبارة عن مجرّد جمع تلك القطع المتناثرة إلى بعضها بخيطٍ، كما قد يتصور بعض الناس ويفهمه من كلمة «جمع القرآن» وقول أبي بكرٍ لزيد «فتبع القرآن فاجمِعْه». وإنما كانت مهمة زيدٍ التي وكلت إليه هي جمع هذه المُتفرّقاتِ ثم الكتابة على مُنْوِلِهَا من جديدٍ.

يدلُّ على ذلك ما رواه ابن أشنة في (كتاب المصاحف) عن الليث بن سعدٍ قال: أَوَّلُ من جمع القرآن أبو بكرٍ، وكتبَه زيدٌ.  
وأكَّد ذلك الحارثُ الحاسبيُّ في كتابه (فهم السنن).

ويؤكّد ذلك ما رواه ابن أبي داود من طريق هشام بن عمروة عن أبيه عروة بن الزبير أنَّ أباً بكرٍ قال لعمراً ولزيدٍ: اقعد على بابِ المسجد، فمن جاءكم بشاهدين على شيءٍ من كتابِ الله، فاكتبه<sup>(١)</sup>.

وإذا وقفت على النَّهج الذي كان يسيرُ عليه زيدٌ رضي الله عنه في الاستيقاظ من الآية عند كتابتها، أدركتَ مدى الدقة العظيمة التي امتدت مع المراحل التاريχية المختلفة لكتابة القرآن وجمعيه، فقد كان لا يكتب من القرآن آية إلا بشاهدين يجتمعان عليها من حيث اللفظ والأداء، وهو الحفظ والكتابة، رغم أنَّه كان هو نفسه في مقدمة حفاظ القرآن غياً، فكان في غنىٍّ عن أنْ يحمل نفسه هذا الجهد، ولكن الورع في الدين والحيطة في النقل حمله على أن يضع

<sup>(١)</sup> انظر الإتقان: (٥٨/١)، وفتح الباري : (٩/١١)، وقال: ورجاله ثقات.

نفسه - من أَجْلِ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي تَوَلَّى الْكِتَابَةَ - فِي الْمَوْضِعِ الْأَخِيرِ بَعْدَ عَامَةِ الصَّحَابَةِ.

وهذا المنهج الشَّدِيدُ الَّذِي اتَّبَعَهُ زِيْدٌ، هُوَ الَّذِي يَفْسِرُ لَكَ مَعْنَى قُولِهِ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ الْآيَاتِ الْأُخِيرَةِ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ إِلَّا مَعَ أَبِي خُزَيْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ، فَلَيْسَ مَعْنَى كَلَامِهِ هَذَا أَنَّهُ اعْتَمَدَ فِي كِتَابَتِهِ عَلَى خَبْرِ الْوَاحِدِ فَقَطْ وَهُوَ أَبُو خُزَيْمَةُ، وَإِنَّمَا هُوَ مُزِيدٌ فِي الْحِيطَةِ مِنْهُ، فَهُوَ لَا يَكْتُفِي مَا يَكْتُبُ أَيْضًا إِلَّا بِالَّذِي كَانَ دَاخِلًا مِنْهُ تَحْتَ إِشْرَافِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَتَوَلَّى كِتَابَتِهِ أَحَدُ كُتَّابِ الْوَحِيِّ أَنفُسِهِمْ. فَمَنْ أَجْلَ ذَلِكَ ظَلَّ مُتَوَقِّفًا عَنْ تَسْجِيلِ هَذِهِ الْآيَاتِ رَغْمَ حِفْظِهِ لَهَا وَرَغْمَ وُجُودِهَا فِي صُدُورِ عَامَةِ الصَّحَابَةِ إِلَى أَنْ عَثَرَ لَهَا عَلَى الشَّاهِدِ الثَّانِي أَيْضًا وَهُوَ الْكِتَابَةُ الْمُوْثَقَةُ الصَّحِيحةُ.

قال أَبُو شَامَةَ<sup>(١)</sup>: «إِنَّمَا كَانَ قَصْدُهُمْ أَنْ يَنْقُلُوا مِنْ عَيْنِ الْمَكْتُوبِ بَيْنَ يَدِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يَكْتُبُوا مِنْ حِفْظِهِمْ»

قال: «وَلَذِلِكَ قَالَ فِي آخِرِ سُورَةِ التَّوْبَةِ لَمْ أَجِدْهَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ» - أَيْ غَيْرِ أَبِي خُزَيْمَةِ الْأَنْصَارِيِّ - أَيْ لَمْ أَجِدْهَا مَكْتُوبَةً مَعَ غَيْرِهِ، لِأَنَّهُ كَانَ لَا يَكْتُفِي بِالْحِفْظِ دُونَ الْكِتَابَةِ.

ثَالِثًاً - مَا جَدَّ مِنْ ذَلِكَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَقِيَ الْأَمْرُ عَلَى قَامَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَدَّةً خِلَافَتِهِ، ثُمَّ مَدَّةً خِلَافَةِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَفِي صَدِرِ مِنْ خِلَافَةِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. إِلَّا أَنَّهُ حَدَثَ

<sup>(١)</sup> في المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز (١/٥٧ و ٤٩) وانظر الإتقان: (١/٥٨)، وفتح الباري: (٩/١٢).

بعد ذلك أمرَ نَبِيُّهُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى ضرورة وجودٍ تُسْخِنَ مُتَعَدِّدَةٍ من هذا المصحف الإِلَامِيِّ الَّذِي اعْتَمَدَهُ الْخُلُفَاءُ، لِتَوزِيعِهَا فِي الْأَمْصَارِ وَجَمْعِ النَّاسِ عَلَيْهَا، كَيْ لَا يَكُونَ لِلْعُجَمَةِ وَاللَّهِجَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ سَبِيلٌ إِلَى اخْتِلَافِ النَّاسِ فِي الْقِرَاءَةِ أَوْ إِلَى تَحْرِيفِ شَيْءٍ مِّنَ الْقُرْآنِ لِفَظًا أَوْ أَدَاءً.

ولِنُنْقَلَ لَكَ مَرَّةً أُخْرَى مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ بِسَنَدِهِ<sup>(١)</sup> فِي ذَلِكَ: (عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، أَنَّ أَنَسَّ بْنَ مَالِكٍ، حَدَّثَهُ أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ، قَدِيمٌ عَلَى عُثْمَانَ وَكَانَ يُغَازِي أَهْلَ الشَّامَ فِي فَتْحِ أَرْمَيْنِيَّةَ، وَأَذْرِيْجَانَ مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ، فَأَفْرَغَ حُذَيْفَةَ اخْتِلَافَهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ، فَقَالَ حُذَيْفَةَ لِعُثْمَانَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَدْرِكْ هَذِهِ الْأُمَّةَ، قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكِتَابِ اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ: «أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحْفِ نَسَخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ، ثُمَّ نَرْدُهَا إِلَيْكَ»، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهَا حَفْصَةُ إِلَى عُثْمَانَ، فَأَمَرَ زَيْنَدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيرِ، وَسَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ فَنَسَخُوهَا فِي الْمَصَاحِفِ.

وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ التَّلَاثَةِ: «إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَرَبِّيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِّنَ الْقُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَّلَ بِلِسَانِهِمْ» فَفَعَلُوا حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصُّحْفَ فِي الْمَصَاحِفِ، رَدَ عُثْمَانُ الصُّحْفَ إِلَى حَفْصَةَ، وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَّفٍ إِمَّا نَسَخَوا، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَّفٍ أَنْ يُحْرَقَ).

وَإِنَّكَ لَتَدْرِكُ مِنْ هَذَا النَّصِّ أَنَّ هَنَالِكَ فَرَقاً مِّنْ ثَلَاثَةَ وَجْهَهُ بَيْنَ مَا فَعَلَهُ عُثْمَانُ رَضِيَّ وَمَا كَانَ قَدْ فَعَلَهُ مِنْ قَبْلِهِ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

<sup>(١)</sup> في فضائل القرآن، باب جمْع القرآن (٤٩٨٧).

**الأَوَّلُ:** أن السبب فيما فعله عثمان إِنَّما هو ما رأه من اختلاف بعض المسلمين في قراءة القرآن، من أثر اتساع الفتوحات ودخول عددٍ كبيرٍ من الأعاجم في الإسلام، يدلُّك على ذلك ما قاله حذيفةُ بنُ اليمان رضي الله عنهما وقد أفرزه ما رأه من بادرة الاختلاف في قراءة القرآن، وهذا ما حمل عثمان رضي الله عنه على جمع المهاجرين والأنصار وجلة أهل الإسلام وشاورهم في الأمر، فاتفقت كلمتهم على استنساخ عددٍ من المصاحف من الأصل المعتمد واطراح ما سواها، عن عمير بن سعيدٍ قال عليهُ رضي الله عنه: لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان.

أمّا ما فعله أبو بكرٍ فإِنَّما كان ذلك بسببٍ مصْرِعٍ كثیرٍ من حفاظ القرآن، كما قد رأيتَ<sup>(١)</sup>.

**الثاني:** اعتمد عثمان رضي الله عنه في كتابة المصاحف على لجنةٍ مكونةٍ من أربعةٍ أشخاصٍ من كبار القراء والحفاظ، من بينهم (زيدُ بنُ ثابتٍ).

أمّا الجمُع الأوَّل فقد اعتمد فيه أبو بكرٍ - كما قد رأيتَ - على زيدٍ ابن ثابتٍ فقط، ولعل سببَ هذا الفرق مضاعفة الجهد هنا بسببٍ كتابة نسخ متعددة.

**الثالث:** الصُّحفُ التي جُمِعَتْ في المرَّةِ الأوَّلِ، إِنَّما كان المراد منها أنْ تبقى في دارِ الخِلافَةِ مُعْتَمِداً ومَرْجِعاً للدُّولَةِ، إذ لم يكن في البال ما تسرَّبَ إلى بعض الألسنةِ أخيراً من الاختلاف في قراءة القرآنِ بسبب شيوخ العُجمَةِ واتساع الرقعة الإسلامية.

<sup>(١)</sup> انظر تفسير القرطبي: (٥٢/١)، و(٥)، والبرهان (٢٣٠/١).

أما الكتابة الثانية زمن عثمان فإنما أُريد منها اعتمادها ثم توزيعها في الأنصار لتوحّد القراءة على أساسها.

إلا أنَّ الباحثين اختلفوا في عدد المصاحف التي استنسختها، والراجح الذي عليه أكثرهم أنَّها سبعة مصاحف، استبقى واحداً منها عنده - وهو الذي سمى بـ(المصحف الإمام) - وورَّع سائرها على (الكوفة، والبصرة، والشام، واليمن، ومكة، والبحرين)<sup>(١)</sup>.

ثم إنَّك إذا تأمَّلت في قصَّة هذا الجمع الثاني وقفت على حقيقتين لا بدَّ من إدراكِهما:

**الأولى:** ترتيب نسخ المصحف التي نسخت بأمر عثمان ورسمه إنما كان على نسقِ ما كتبه زيدُ بن ثابتٍ في الجمع الأوَّل، إذ إنَّ الصُّحف التي اعتمدَ عليها إنما كانت - كما علمت - من كتابةِ زيد، بعد أن أمرَه كُلُّ من أبي بكرٍ وعمر بذلك، وزيدُ بن ثابتٍ هذا هو من أشهر الصحابة ضبطاً للقرآن وحفظه، وهو صاحبُ العرضة الأخيرة للقرآن على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُبيلَ وفاته، فأقرَّه الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأمرَ النَّاسَ بأخذ القرآن عنه، ومن هنا قطع كافَّةُ العلماء والباحثين بأنَّ هذه النُّسخة التي وزَّعها عثمان في الأقطار هي الصورةُ الحَقِيقَةُ الدَّقِيقَةُ للقرآن الذي نزل على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والذي كان يُتلى به.

**الثانية:** أنَّ القرآن إنما نزل بلهجة قريشٍ فينبعي أن يُكتب أيضاً برميمهم وطريقة كتابتهم، تفهم ذلك من قول عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: «إذا

---

<sup>(١)</sup> البرهان: ٢٤٠/٢.

اختلftم أنتُم وزيد بن ثابت في شيءٍ من القرآن - أي إملاءً ولهجةً - فاكتبواه بلسانِ قريشٍ، فإنما نزل بلسانهم».

وقد تمَّ هذا العملُ العظيمُ الذي قام به عثمانُ بنُ عفانَ رضي الله عنه في عام (٢٥ هـ). أما ما قام به أبو بكرٍ رضي الله عنه فقد كان بعدَ موقعة اليمامة في العام الثاني عشر للهجرة (١٢ هـ).

وما هو إلا أنْ توزَّعت هذه النسخ التي كتبت بأمر عثمانَ في البلدان الإسلامية حتى أحرقَ كلُّ امرئٍ ما كان عنده من قبلٍ. وأقبلوا يعكفون على استنساخ المصاحف من هذه الأصولِ الوثيقة المعتمدة، إلى جانب تلقّيها مشافهةً من كبارِ القراءِ الذين كان يعيشهم عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار ليتلقّى الناسُ منهم كتابَ الله عزَّ وجلَّ.

هذا ونستطيع أنْ نقطع بأنَّ واحداً من المصاحف العثمانية كان باقياً في دمشق بمسجد بني أمية الكبير حتى القرن الثامن الهجري، حيث يقول ابنُ كثير في كتابه (فضائل القرآن)<sup>(١)</sup>: وأما المصاحف العثمانيةُ الأئمةُ فأشهرُها - اليوم - الذي في الشّام بـ(جامع دمشق) عند الرّكنِ، شرقي المقصورة المعمرة بذكرِ الله، وقد كان قدِيماً بمدينة طبرية، ثم نُقلَ منها إلى دمشق في حدودِ ثالثي عشرة وخمسينَ، وقد رأيْتُه كِتاباً عَزِيزاً جَلِيلًا عَظِيماً ضَخْماً بخُطٍّ حَسِنٍ مَبْيَنْ قَوِيٍّ بحِيرٍ مُحَكَّمٍ، في رُقٍّ أَظْنَهَ من جلودِ الإبل - والله أعلم - زاده الله تشريفاً وتعظيماً وتكريراً.

<sup>(١)</sup> فضائل القرآن لابن كثير (ص: ٨٩).

أما بعد ذلك، فالحديث عن تحقيق هذه النسخ ونقلها بين المكتبات والمتاحف والبلدان، أمرٌ يطول ولسنا بقصد هذا البحث.

إذا تأمّلت في هذه الخلاصة التي سردناها من تاريخ هذا الكتاب العظيم، منذ نزوله على قلب المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى وصوله إلينا اليوم من حيث الأدوار التي تدرج فيها كتابةً وجمعًا، وتلقياً ودرساً - تصوّرت أنك من هذا الكتاب المبين أمّام شمسٍ واضحةٍ مشرقةٍ تسير أمّام عينيك في قبة السماء الصافية، ليس حولها مزقة سحابٍ تغشى عليها وليس بينك وبينها أي زوبعةٍ أو ضبابٍ يمحوها عنك.

سلسلة متصلةٌ من التدوين الكتابي الدقيق، والتلقي الشفهي السليم، يسيران جنبًا إلى جنبٍ في مطابقةٍ واتفاقٍ، منذ بزوغ فجر هذا التنزيل إلى هذه الساعة من يومنا هذا، لا ترى فيها حلقةً مفقودةً أو ثغرةً ينفذ منها الشك أو اختلافًا يبعث على الريبة.

فائيُّ خبرٍ أو كتابٍ سار خلال القرون في مثل هذا النفق المُحكَم العجيب من الحفظ والواقية؟ اللهم إنَّ العقلَ لا يفهم من ذلك إلا أنَّه تصديق الدهر والقرون لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ۹] وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ شَنِّيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ۴۲].



## رسم القرآن وقطعه

ما لا شكَّ فيك، أنَّ الصُّحفَ التي كانت قد كُتِبَتْ على عهد النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمصاحفُ العُثْمَانِيَّةُ التي وُزِعَتْ على الأُمَّصارِ، كانت كلها خالية عن الشَّكِّ والنَّقْطِ، وكان العربُ إذ ذاك يهتدون إلى النُّطْقِ السَّلِيمِ بوسيلتين:

إحداهما: السَّلِيقَةُ الْعَرَبِيَّةُ الأُصِيلَةُ التي كانوا يتمتعون بها، والأصالةُ اللُّغُوِيَّةُ التي كانت فطرتهم مطبوعة عليها، فلم يكن لِمَا عُرِفَ بعد ذلك باسم (اللَّحْنِ) أي سبِيلٍ إلى أسلوبهم، وليس لديهم أي فقرٍ في فهم المعنى الصَّحِيحِ للفظ من الألفاظِ الْعَرَبِيَّةِ أو في الشَّكِّ السَّلِيمِ للنُّطْقِ بها.

الثانية: التَّلَقِيُّ والمشافهة، وقد قُلْنَا إِنَّ الْقُرْآنَ كَانَ يُضَبَطُ وَيُحْفَظُ، بكلٍّ من وسائل الكتاب والتَّلَقِيِّ، فلا الكتابة وحدها كانت معتمدًا كافيًّا لهم، ولا التَّلَقِي وحده كان أساسًا معتمدًا عندهم، بل الأمرُ إِنَّما يعتمدُ على كلا الوسائلتين.

فكان التَّلَقِيُّ يزيد من وضوح الكتابةِ، ويُبَيِّنُ ما قد يُتَصَوَّرُ من اللَّبسِ في النُّطْقِ بعض الكلماتِ، كتلك التي تحتمل عدداً من وجوه الأداءِ والقراءةِ، بسببِ عدم توفرِ النَّقْطِ فيها، على أنَّ رُتْخَصَةَ النُّطْقِ بالأَحْرُفِ السَّبْعَةِ في أولِ عهْدِ الْعَرَبِ بِالْقُرْآنِ ساهمت باعتبارها وسيلةً ثالثةً في تسهيلِ ضبطِ القرآن دراسةً وحفظاً، وأورثت طمأنينةً بعدم الوقع في أي لَبْسٍ أو وهمٍ، عند النُّطْقِ بهذه الكلماتِ المحتملةِ.

وما لا ريب فيه أَيضاً، أنَّ رسم المصاحفِ العُثْمَانِيَّةِ التي نُسِخَتْ على هدي الصُّحفِ الأولى يقوم على إِمْلَاءٍ خاصٍّ به في ذلك العصرِ وفيما بعده أَيضاً.

وإنك لتجد في إملائه من أنواع التزادات والحدف للحروف والمدود وطريقة الرسم، ما لم يكن معهوداً حتى عند كثير من القبائل العربية إذ ذاك.

إلا أنه كان يتفق في جملته مع الرسم القرشي في ذلك الوقت، ومن هنا قال عثمان رضي الله عنه للكتابين: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في كلمة من كلمات القرآن، فاكتبوها بلسان قريش، فإن القرآن أنزل بلسانهم.

ولقد ظهر تطبيق هذه الوصية، عندما اختلف الكتاب الأربعة في كيفية رسم «التابوت» في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رِبِّكُمْ...﴾ الآية [البقرة: ٢٤٨]، فقد قال زيد: «التابوه». وقال القرشيون: «التابوت». وترافعوا إلى عثمان فقال: اكتبوا «التابوت» فإنما أنزل القرآن على لسان قريش<sup>(١)</sup>.

فقد علمت إذًا، أن في رسم القرآن في عهده الأول، ظاهرتين:  
**الظاهرة الأولى:** أن له إملاءً خاصاً به من حيث كيفية كتابة المhmزة مثلاً، أو الأحرف اليائية والواوية، ومن حيث الزيادة والنقص وما شابه ذلك.  
**الظاهرة الثانية:** أنه كان مجرداً عن الشكل الذي يوضح إعرابه، وعن النقط الذي يميز الأحرف المعجمة عن المهملة.

فأمّا الظاهرة الأولى: فقد استمرت فيما بعد، ولم يطرأ عليها تغيير أو تحويل يذكر، فقد أحد الناس يعتبرون الرسم القرآني ربما معيناً خاصاً به، ولم يجدوا ما يدعوا إلى مدّ يد التغيير إليه، بعد أن وصل إليهم بهذا الشكل صورة طبق الأصل للكتبة المعتمدة الأولى، بل لقد رأى العلماء أن الحيطة في حفظ القرآن تدعو

<sup>(١)</sup> البرهان: (٣٧٦/١)، والإتقان: (٩٨/١).

إلى وجوب إبقاءه على شكله الأَوَّل، وتحريم أو تكريه أي تطويرٍ كتابيٍّ فيه، تطبيقاً للقاعدة الشرعية الكبرى (سَدُّ الدَّرَائِع).

روى أبو عَمْرُو الدَّانِي<sup>(١)</sup> عن أَشْهَب، قَالَ: «سُئِلَ مَالِكٌ رَحْمَةُ اللَّهِ: هَلْ يُكْتَبُ الْمَسْحَفُ عَلَى مَا أَحْدَثَ النَّاسُ مِنَ الْمِحَاجَةِ؟ فَقَالَ: لَا، إِلَّا عَلَى الْكَتْبَةِ الْأَوَّلِيَّةِ».

وُسْأَلَ مَالِكٌ مَرَّةً أُخْرَى عَنِ الْحُرُوفِ فِي الْقُرْآنِ مُثْلِ (الْوَوْ) وَ(الْأَلْفِ): «أَتَرِي أَنْ تَعِيرَ مِنَ الْمَسْحَفِ إِذَا وَجَدُوكُمْ فِيهِ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: لَا»<sup>(٢)</sup>.

وَذَهَبَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلَ رَحْمَةُ اللَّهِ إِلَيْهِ أَنَّهُ تَحْرُمُ مُخَالَفَةُ حَطٌّ مَسْحَفِ عُثْمَانَ فِي (يَاءٍ) أَوْ (وَوْ) أَوْ (أَلْفِ) أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ<sup>(٣)</sup>.

وليس يعنينا هنا، أن نُعْرِضَ لِتَحْقِيقِ الْحُكْمِ الشَّرِعيِّ فِي هَذَا الْأَمْرِ، خصوصاً فِي مَحَالَاتِ التَّعْلِيمِ وَالتَّدْرِيسِ، إِنَّمَا الَّذِي نَقْصَدُ إِلَيْهِ هُوَ أَنْ نَتَأْمَلَ فِي مَدِيَّةِ الْحِيطَةِ وَالشَّدَّةِ الْعَجِيْتَيْنِ الَّتِيْنِ صَيَّنَ بَعْدَ الْقُرْآنِ خَلَالَ تَارِيْخِ وَصُولِهِ إِلَيْنَا.

أَمَا الظَّاهِرَةُ الْثَّانِيَةُ: فَقَدْ دَخَلَهَا التَّطْوِيرُ وَالتَّحسِينُ فِيمَا بَعْدِهِ، كَمَا بَخِدَ أَثْرَ ذَلِكَ فِي رِسْمِ الْمَسْحَافِ فِي عَصْرِنَا هَذَا.

<sup>(١)</sup> المحكم في نقط المصاحف (ص: ١١).

<sup>(٢)</sup> المقنع في رسم مصاحف الأمصار (ص: ٣٦) وقد أوضح الداني رحمة الله ذلك بقوله: "يعني الواو والألف الزائدتين في الرسم لمعنى المعادومتين في اللفظ نحو (الواو) في (أولئك) و(أولى) وأولات).

<sup>(٣)</sup> انظر البرهان: (٢٧٩/١).

## نقط المصحف:

وأصح ما قيل عن تاريخ أول طور تحسيني دخل رسم القرآن، أنه كان في عهد التابعين في منتصف القرن الأول للهجرة، وأصح ما قيل فيما باشر ذلك أنه (أبو الأسود الدؤلي) الذي توفي عام تسع وستين. فقد أجمعوا روایات الثقات - كما يقول المرحوم مصطفى صادق الرافعي<sup>(١)</sup> - على أنَّ أبي الأسود الدؤلي هو أول من وضع النحو بإشارة من سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ولعلك تقولُ: فما علاقة وضع النحو بتحسين رسم القرآن؟ وهل يلزم من أنَّ أبي الأسود الدؤلي هو الواضع للنحو أنَّ يكون هو أول مباشر لتحسين الرسم القرآني؟

**والجواب:** إنَّ عامَةً روایات هؤلاء الثقات تتفق على أنَّ سبب وضعه النحو هو ما رأه أو قيل له من شیع اللحن في قراءة القرآن، كما تتفق معظم هذه الروایات - ومنها رواية أبي الطيب اللغوي وابن النديم وابن عساكر - على أنَّ وضعه للنحو كان مصحوباً بنقط المصحف<sup>(٢)</sup>.

ولعل الرواية التي ساقها ابن خلkan<sup>(٣)</sup> تجمع القدر المشترك بين مختلف تلك الروایات، وإليك ما يقوله في ذلك:

<sup>(١)</sup> ينظر تاريخ آداب العرب: (١٥٥ / ١).

<sup>(٢)</sup> انظر وفيات الأعيان: (١ / ٢٤٠)، وانظر كتاب «النحو العربي» للأستاذ الدكتور مازن المبارك ص (١٠٠ - ٢٩) فقد عرض فيه لتحقيق واسع فيما روى من خبر أول وضع للنحو، وقارن بين مختلف الروایات في ذلك.

<sup>(٣)</sup> في كتابه وفيات الأعيان (٢ / ٥٣٧).

قيلَ لِأَبِي الْأَسْوَدِ: مَنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا الْعِلْمَ - يَعْنُونَ النَّحْوَ -؟ فَقَالَ: لَقُنْتُ حَدْوَدَةً مِنْ عَلَيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كَانَ (أَيْ: الدُّؤُلِيُّ) لَا يُخْرُجُ شَيْئاً أَخَذَهُ عَنْ عَلَيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى أَحَدٍ، (يَقْصُدُ بِهِ الرَّقْعَةَ الَّتِي كَانَ قَدْ أَعْطَاهَا إِلَيْهَا وَفِيهَا قَوَاعِدُ أَوَّلِيَّةَ لِلنَّحْوِ) حَتَّى بَعَثَ إِلَيْهِ زِيَادَ (أَيْ: ابْنَ أَبِيهِ وَالِّي الْعَرَاقِ يَوْمَئِذٍ): أَنْ اعْمَلْ شَيْئاً يَكُونُ لِلنَّاسِ إِمَاماً وَيُعْرَفُ بِهِ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَاسْتَعْفَاهُ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى سَمِعَ أَبُو الْأَسْوَدَ قَارِئاً يَقْرَأُ: (إِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ)، بِالْكَسْرِ، فَقَالَ: مَا ظَنَنْتُ أَنَّ أَمْرَ النَّاسِ آلَ إِلَى هَذَا، فَرَجَعَ إِلَى زِيَادَ فَقَالَ: أَفَعَلْ مَا أَمْرَ بِهِ الْأَمْرِيُّ، فَلَيْغُنِي كَاتِبًا لَقِنَاً يَفْعَلُ مَا أَقُولُ لَهُ، فَأَتَيَ بِكَاتِبٍ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ فَلَمْ يَرْضِهُ، فَأُتَيَ بِآخَرَ، فَقَالَ لِهِ أَبُو الْأَسْوَدِ: «إِذَا رَأَيْتَنِي قَدْ فَتَحْتَ فَمِي بِالْحَرْفِ فَانْفَطَطَ نَقْطَةً فَوْقُهُ، وَإِذَا ضَمَّمْتُ فَمِي فَانْفَطَطَ بَيْنَ يَدَيِ الْحَرْفِ، وَإِذَا كَسَرْتُ فَاجْعَلْ النَّقْطَةَ مِنْ تَحْتِ» فَفَعَلَ ذَلِكَ<sup>(١)</sup>.

إِذَا تَأْمَلْتَ فِي هَذَا الْخَبْرِ - وَهُوَ كَمَا قُلْتَ لَكَ قَدْرُ مُشْتَرِكِ الْرَوَايَاتِ الَّتِي سَاقَهَا ابْنُ عَسَاكِرٍ وَابْنُ النَّدِيمِ وَأَبُو الطَّيْبِ الْلُّغُويِّ - عَلِمْتَ أَنَّ الَّذِي يَدْأُبُّ بِتَحْسِينِ رِسْمِ الْقُرْآنِ هُوَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدُّؤُلِيُّ، وَعَلِمْتَ أَنَّ هَذَا التَّحْسِينُ هُوَ وَضْعُ النَّقْطِ لِلْقُرْآنِ؛ وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَقْصُدُ بِهِ تَميِيزَ الْحُرُوفِ الْمَهْمَلَةِ عَنِ الْمَعْجمَةِ كَمَا هِيَ وَظِيفَةُ النَّقْطِ فِيمَا نَعْلَمُ، وَإِنَّمَا كَانَ يُرِادُ بِهِ الشَّكْلُ الَّذِي يَقْوِمُ مَقْامُ الْفَتْحِ وَالْكَسْرِ وَالضْمِنِ مَنْعَلًا عَنِ الْلَّهْنِ فِي الْقِرَاءَةِ، وَعَلِمْتَ أَيْضًا أَنَّهُ إِنَّمَا وَضَعَ النَّحْوَ مِنْ حِيثِ نَقْطَةِ الْقُرْآنِ وَأَنَّ الَّذِي دَفَعَهُ إِلَى وَضْعِ النَّحْوِ وَتَقْعِيدِ قَوَاعِدِهِ وَإِبْرَازِ

<sup>(١)</sup> وَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ: (٤٠/٢٢).

الرقة التي كان قد أعطاه إياها علي بن أبي طالب، هو ما أفرزه من سماع اللّحن في تلاوة القرآن.

ولعلك تسمع بعد هذا، عن روايات تقول بأن يحيى بن يعمر (ت: ١٢٩هـ) هو أول من نقط القرآن، أو أن الذي بدأ بذلك هو نصر بن عاصم الليثي (ت: ٨٩هـ). وهي في الحقيقة لا تنافي ما نقلناه، فقد كان كلّ من يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم تلميذين لأبي الأسود الدؤلي، وقد كان يحيى بن يعمر قاضياً بمرو، فلعله عمد فنقط مصحفه على نحو ما فعل أستاده، قبل أن يفعل ذلك هناك أحد غيره، وأماماً عمل نصر بن عاصم فهو في أغلب الظن إنّما يعتبر طوراً آخر من التحسين بعد العمل الذي قام به أبو الأسود، تدلّ على ذلك الرواية التي ساقها ابن حلكان، إذ يقول (ثم كثُرَ التَّصْحِيفُ وانتشر بالعراق؛ ففزع الحجاجُ بن يوسفَ إلى كتابه، فسألهُمْ أَنْ يضعوا لهذه الحروف المشتبه علامات، فيقال إن نصر بن عاصم قام بذلك<sup>(١)</sup>). فأنت ترى أن الحجاج إنّما أمر كتابه أن يعملوا شيئاً تتميز به الحروف المشتبه في القرآن، والحراف المشتبه إنّما هي المهملة والمعجمة كالحاء والجيم والعين والغين. فيكون عمل نصر بن عاصم إن صحت الرواية تقنيطاً، لتمييز المتشابه من الحروف لا لضبط الشّكل والإعراب كما فعل أبو الأسود.

ثم إن هذا التحسين الذي ذكرناه، دخل طوراً ثانياً، بل أخذ يتدرج في إطار متلاحقة، لا يمكننا أن نضبط كلاً منها بتاريخ دقيق صحيح، كما لا يمكن أن ننسبة إلى شخص معين في رواية موثوقة.

<sup>(١)</sup> انظر المرجع السابق: (١٣٥/١).

ولكن مما لا شكّ فيه أن للحجّاج عملاً عظيماً في ذلك بقطع النّظر عن تفاصيل ما قام أو أمر به كما يقول الدكتور صبحي الصالح<sup>(١)</sup>.

وممّا لا شكّ فيه أيضاً أن النّقط والشكّل تكامل وجودهما في القرآن على عهد الخليل بن أحمد (ت: ١٧٠ هـ) عندما ألف كتابه في النّقط والشكّل<sup>(٢)</sup>.

واستمرّت الخطوات التحسينية في رسم القرآن في اطّارٍ إلى يومنا هذا، ابتعاد تحقيق المزيد من ضبطه وتسهيل قراءته. إلا أنَّ الظاهرة الأولى المتعلقة بإملائه بقيت - كما ترى - على الشّكّل الذي كُتِبَتْ به الصُّحف الأولى والمصاحف العثمانية.

ومن هذا الذي ذكرناه يتضح لك أن علم النحو لم يقعَدْ ويدوّن إلا خدمةً لضبط القرآن - كما قد رأيت - وستجد فيما بعد أنَّ معظم العلوم العربية الأخرى إنما قامت لخدمة القرآن أو نبعَتْ من مضمونه.

<sup>(١)</sup> انظر كتاب مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح: ٩٧.

<sup>(٢)</sup> وفيات الأعيان: (١٧٢/١).



**الأَحْرُفُ السَّبْعُ**

**تعريف الأَحْرُفُ السَّبْعُ**

**بيان الأَحْرُفُ السَّبْعُ فِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ**

**دلالة هذه الأحاديث على أصول الموضوع**

**الأَحْرُفُ السَّبْعُ وَالقراءات السَّبْعُ**

**ما هي حقيقة الأَحْرُفُ السَّبْعُ**

**أين الأَحْرُفُ السَّتَّةِ ؟**



يجُد الدَّارُسُ لِهذا المَوْضُوعِ فِي دراستِهِ هُنَا تَطْبِيقًا لِأَصْلٍ عَظِيمٍ مِنَ الْأَصْوَلِ  
الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الشَّرِيعَةُ، وَهُوَ مُرَاعَاةُ الْيُسْرِ عَلَى النَّاسِ، وَرَفْعُ الْعُسْرِ وَالْمُشْكَةِ  
عَنْهُمْ، وَمَوْضُعُ الْيُسْرِ هُنَا هُوَ أَنْ يُسْهَلَ عَلَى الْعَرَبِ أَخْذَ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى،  
وَالْاَهْتِدَاءُ بِهُدَاهُ.

### تعريف الأَحْرُفِ السَّبْعَةِ:

الحرف لغة: الحرف في أصل كلام العرب معناه الطرف والجانب، وحرف السفينية والجبل جانبهما، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ  
أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْتَقَلَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِيرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ  
الْخُسْرَانُ الْأَسْبَعُ﴾ [الحج: ١١] أي أن من الناس من لا يدخل في الدين دخولًا  
متمكّنً، فإن أصابه خير - أي حصل - وكثير ماله اطمأن به، ورضي بيده،  
 وإن أصابته فتنه اختبار بحدب وقلة مال انقلب على وجهه - أي رجع عن  
دينه إلى الكفر وعبادة الأوثان<sup>(١)</sup>.

### الأَحْرُفُ السَّبْعَةُ اصطلاحًا:

«سبعة أوجيه فصيحة من اللغات القراءات أنزل عليها القرآن الكريم».

### بيان الأَحْرُفِ السَّبْعَةِ فِي الْحَدِيثِ النَّبَويِ:

ولما كان سبيلاً درس هذا الموضوع هو النَّقل الثابت الصَّحِيحُ من الذي لا  
ينطِقُ عن الموى، ولا مجال للرأي والاجتهاد فيه إِلَّا لِجُنْسِ الْفَهْمِ، والتَّرجِيحُ بينَ

<sup>(١)</sup> من تفسير الزجاج وقال بنحوه ابن قتيبة في كتابه «تأويل مشكل القرآن» ص ٢٧ - ٢٨.

الآراء، فإننا نقدم نخبةً من الأحاديث الثابتة تلقي لنا الضوء على هذا الموضوع فيما يلي:

الحديث الأول: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام، يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة، لم يقرئها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكيدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم، فلبته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتني تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: كذبت، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوذه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أرسله، أقرأ يا هشام» فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كذلك أنزلت»، ثم قال: «أقرأ يا عمر» فقرأ القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كذلك أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف» .<sup>(١)</sup>

الحديث الثاني: عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: كنت في المسجد، فدخل رجل يصلي، فقرأ قراءةً أنكرها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءةً سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: إن هذا قرأ قراءةً أنكرها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه،

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف (٤٩٩٢)، مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف (٨١٨)

فَأَمْرُهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَرَءَ، فَحَسَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَائِئَهُمَا، فَسَقَطَ فِي نَفْسِي مِنَ التَّكْذِيبِ، وَلَا إِذْ كُنْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا قَدْ عَشَيْنِي، ضَرَبَ فِي صَدْرِي، فَفَضَّلَ عَرْقاً وَكَعْباً أَنْظُرُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَرْقاً، فَقَالَ لِي: «يَا أَبِي، أُرْسِلُ إِلَيَّ أَنْ اقْرَأَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَرَدَّدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوْنٌ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّانِيَةَ اقْرَأْهُ عَلَى حَرْفَيْنِ، فَرَدَّدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوْنٌ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّالِثَةَ اقْرَأْهُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، فَلَكَ بِكُلِّ رَدَّةٍ رَدَّدْتُكَهَا مَسْأَلَةً تَسْأَلُهَا، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، وَأَخْرُجْ الثَّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ إِلَيَّ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ، حَتَّىٰ إِبْرَاهِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ<sup>(١)</sup>

وَعَنْ أَبِي بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَيْضًا، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ عِنْدَ أَصَادَةَ بَنِي غِفارٍ، قَالَ: فَاتَّاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَقَالَ: «أَسْأَلُ اللَّهَ مُعافَاتَهُ وَمَعْفَرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ»، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفَيْنِ»، فَقَالَ: «أَسْأَلُ اللَّهَ مُعافَاتَهُ وَمَعْفَرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ»، ثُمَّ جَاءَهُ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، فَقَالَ: «أَسْأَلُ اللَّهَ مُعافَاتَهُ وَمَعْفَرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ»، ثُمَّ جَاءَهُ الرَّابِعَةَ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، فَأَيَّما حَرْفٍ قَرَأُوا عَلَيْهِ فَقَدْ أَصَابُوا. أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ<sup>(٢)</sup>.

(١) مُسْلِمٌ فِي صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ، بَابُ بِيَانِ أَنَّ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ (٨٢٠).

(٢) مُسْلِمٌ فِي صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ، بَابُ بِيَانِ أَنَّ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ (٨٢١).

الحاديـث الثـالـث: عـن ابـن عـبـاسِ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـمـا: أـنَّ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ، قـالـ: «أـقـرـأـنـي جـبـرـيلـ عـلـى حـرـفـ، فـلـمـ أـزـلـ أـسـتـرـيـدـ حـتـىـ اـنـتـهـىـ إـلـىـ سـبـعـةـ أـخـرـفـ». مـتـفـقـ عـلـيـهـ<sup>(١)</sup>.

الحاديـث الـرـابـع: وـمـسـلـمـ<sup>(٢)</sup> عـنـ ابـنـ شـهـابـ: «بـاغـنـي أـنـ تـلـكـ السـبـعـةـ الـأـخـرـفـ إـنـماـ هـيـ فـيـ الـأـمـرـ الـذـيـ يـكـونـ وـاحـدـاـ، لـاـ يـخـتـلـفـ فـيـ حـلـالـ وـلـاـ حـرـامـ».

### دلالة هذه الأحاديث على أصول الموضوع:

دـلـلـتـ هـذـهـ الـأـحـادـيـثـ عـلـىـ جـمـلـةـ قـوـاعـدـ هـامـةـ نـوـضـحـهـاـ فـيـمـاـ يـلـيـ:

- ١ - ثـبـوـتـ التـوـسـعـةـ فـيـ إـنـزـالـ الـقـرـآنـ عـلـىـ سـبـعـةـ أـخـرـفـ ثـبـوـتـاـ قـاطـعاـ، نـظـراـ لـصـحـةـ أـسـانـيدـ الـأـحـادـيـثـ الـوارـدـةـ فـيـ الـقـضـيـةـ صـحـةـ جـازـمـةـ، بـلـ إـنـ الـحـدـيـثـ بـلـغـ درـجـةـ التـوـاـثـرـ الـذـيـ يـفـيـدـ الـيـقـيـنـ، لـكـثـرـةـ أـسـانـيدـ وـرـوـاتـهـ مـنـ الصـحـابـةـ فـمـنـ بـعـدـهـمـ.
- ٢ - إـنـ الـقـرـاءـةـ بـأـيـ حـرـفـ مـنـ هـذـهـ الـأـخـرـفـ يـلـزـمـ فـيـهـاـ اـتـبـاعـ التـلـقـيـ عـنـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ.

وـأـولـ ماـ يـدـلـ عـلـىـ ذـلـكـ هـذـاـ التـعـبـيرـ (أـنـزـلـ) الـذـيـ تـوـاتـرـتـ بـهـ الـأـحـادـيـثـ، فـإـنـهـ يـدـلـ عـلـىـ أـنـهـ نـزـلـ بـهـ الـوـحـيـ.

وـيـدـلـ عـلـىـ ذـلـكـ أـيـضاـ دـلـائـلـ كـثـيرـةـ فـيـ نـصـوصـ الـأـحـادـيـثـ، مـاـ يـدـلـ عـلـىـ أـنـ المـعـيـارـ فـيـ قـبـولـ الـحـرـفـ أـوـ رـدـهـ لـيـسـ هـوـ عـدـمـ أـلـفـتـهـ مـنـ السـامـعـ، وـلـاـ كـوـنـهـ لـهـجـةـ

<sup>(١)</sup> البخاري في فضائل القرآن، باب ذكر الملائكة (٣٢١٩) ومسلم في صلاة المسافر وقصرها، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف (٨١٩).

<sup>(٢)</sup> مسلم في صلاة المسافر وقصرها، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف (٨١٩).

غير مألوفةٍ له، إنَّما الأَسَاسُ في المَوْضِعِ كُلُّهُ هو السَّمَاعُ والتَّلْقِي عنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو عدم التَّلْقِي عنه.

وَمَا يَدُلُّ عَلَى بُطْلَانِ تَفْوِيسِ الْقِرَاءَةِ لِلقارئِ بما يَخْتَارُهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِهِ أَنَّ ذَلِكَ يَؤْدِي إِلَى ذَهابِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ وَتَعْرِيضِهِ لِأَنْ يُبَدَّلُ، وَذَلِكَ خَلَافُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرَأَنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

ثُمَّ إِنَّ التَّغْيِيرَ وَالتَّبَدِيلَ يُمْرَادُ فِي أَوْ بَغْيَرِ مُرَادِفٍ مَرْفُوضٍ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يُرْجَونَ لِقَاءً مَا أَتَتْ بِقُرْآنٍ غَيْرَ هَذَا أَوْ بَدَلَهُ، قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدَلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنَّ أَتَبَعَ إِلَّا مَا يَوْحِي إِلَيَّ أَيِّ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [بِيُونَس: ١٥] فَإِذَا كَانَ هَذَا لِيُسَمِّنُ حَقَّ النَّبِيِّ نَفْسِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكِيفَ يَسْوَعُ ذَلِكَ فِي حَقٍّ أَحَدٍ لِمَنِ النَّاسِ؟ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ السَّابِقِ «هَكَذَا أَنْزَلْتُ».

٣ - ثُبِّتَتْ عبارات الأحاديث المفصلة الواردة في الأَحْرُفِ السَّبْعَةِ أَصْلًا هامًا يجب أن لا يغيب عن بايِّ الباحثِ في تفسير الأَحْرُفِ السَّبْعَةِ، وهو أَنَّها وجوهٌ في أَدَاءِ الْأَلْفَاظِ فَقْطُ، أي كَيْفِيَاتِ قِرَاءَةِ الْقِرَاءَةِ.

وَجَهَ الدَّلَالَةُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الْخَلَافَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ فِي الْقِرَاءَةِ إِنَّمَا وَقَعَ حَوْلَ قِرَاءَةِ الْأَلْفَاظِ، وَلَمْ يَكُنْ اخْتِلَافٌ فِي تَفْسِيرِ الْمَعَانِي، انْظُرْ إِلَى قَوْلِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ عَلَى حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ، مَمْ يُقْرِئُنِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، وَهَكَذَا سَائِرُ الْعِبَاراتِ تُشَيِّرُ إِلَى أَنَّ الْقَضِيَّةَ كَانَتْ تَدُورُ حَوْلَ كَيْفِيَّةِ قِرَاءَةِ الْأَلْفَاظِ، لَا تَفْسِيرِ الْمَعَانِي.

## الأَحْرُفُ السَّبْعُهُ وَالقِرَاءَاتُ السَّبْعُهُ:

دَلَّتْنَا النُّصُوصُ الْتِي درسناها وَمَحْصَنَا دلائلها عَلَى أَنَّ الْمَرَادَ بِ(الأَحْرُفِ السَّبْعِ) سَبْعُ لُغَاتٍ نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ، وَنَوْدُ أَنَّ نَبْيَهُ بَأْنَ الأَحْرُفَ السَّبْعُهُ لَيْسَ هِيَ الْقِرَاءَاتُ السَّبْعُهُ الْمَشْهُورَهُ، الَّتِي يَظْنُ كَثِيرٌ مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ أَكْهَا الأَحْرُفَ السَّبْعُهُ، وَهُوَ خَطَّاً عَظِيمًا نَاشِئًا عَنِ الْخَلْطِ وَعَدَمِ التَّمِيزِ بَيْنَ الأَحْرُفِ السَّبْعِهِ وَالْقِرَاءَاتِ.

وَهَذِهِ الْقِرَاءَاتُ السَّبْعُهُ إِنَّمَا عُرِفَتْ وَاشْتَهِرَتْ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ، عَلَى يَدِ الْإِمَامِ الْمُقْرِئِ (ابْنِ مُجَاهِدٍ) الَّذِي اجْتَهَدَ فِي تَأْلِيفِ كِتَابٍ فِي الْقِرَاءَاتِ، فَاتَّفَقَ لَهُ أَنَّ جَاءَتْ هَذِهِ السَّبْعُهُ مُوافِقَهُ لِعَدِيِّ الْأَحْرُفِ، فَلَوْ كَانَتِ الْأَحْرُفُ السَّبْعُهُ هِيَ الْقِرَاءَاتُ السَّبْعُهُ لَكَانَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ فَهُمْ أَحَادِيثُ الْأَحْرُفِ السَّبْعِهِ وَالْعَمَلُ بِهَا مُتَوَقِّفًا حَتَّى يَأْتِي ابْنُ مُجَاهِدٍ وَيُخْرِجُهَا لِلنَّاسِ وَقَدْ كَثُرَ تَبَيْيَهُ الْعُلَمَاءُ فِي مُخْتَلِفِ الْعُصُورِ عَلَى التَّفَرِيقِ بَيْنَ الْقِرَاءَاتِ السَّبْعِهِ وَالْأَحْرُفِ السَّبْعِهِ، وَالتَّحذيرُ مِنِ الْخَلْطِ بَيْنِهَا<sup>(١)</sup>.

### ما هي حقيقة الأَحْرُفِ السَّبْعِهِ:

إِذَا بَحْثَنَا بَعْدَ هَذَا عَنْ حَقِيقَهِ الْأَحْرُفِ السَّبْعِهِ بِدَقَّهٍ بَخْدَ أَمَامَنَا مَذَا هَبَتْ بَخْتَهُدُ فِي تَفْسِيرِ الْمَرَادِ بِهَذِهِ الْأَحْرُفِ، تَحَاوُلُ تَبَيِّنَ الْاِخْتِلَافِ فِي كَيْفِيَهِ أَدَاءِ الْفَاظِ الْقُرْآنِ عَلَى الْأَوْجَهِ السَّبْعِهِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ، وَلَعَلَّ هَذَا الْخِلَافُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَغْرِيًّا مَعَ اِتْفَاقِ أَصْحَابِهِ هَذَا الْمَنْهَجِ عَلَى أَنَّ الْمَرَادَ بِالْأَحْرُفِ السَّبْعِهِ (سَبْعُهُ أَوْجَهٍ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ)، وَسَبَبَ هَذَا الْاِخْتِلَافُ، هُوَ اِخْتِلَافُ الطَّرِيقَهِ الَّتِي تَوْصِلُ إِلَى تَحْدِيدِ هَذِهِ الْأَحْرُفِ:

<sup>(١)</sup> انظر كلاماً لهم في كتاب النشر (١/٣٦ و ٣٩ و ٤٠ و ٤٦) وفتح الباري (٩/٢٥).

ذهب بعض العلماء إلى استخراج الأحرف السبعة باستقراء أوجه الخلاف الواردة في قراءات القرآن كلها صحيحها وشاذها، ثم تصنيف هذه الأوجه سبعة أصنافٍ.

وذهب آخرون إلى التماس الأحرف السبعة في لغات العرب.  
فتكون بذلك مذهبان رئيسيان، نذكر نموذجاً عن كلّ منهما فيما يلي:

### المذهب الأول:

مذهب استقراء أوجه الخلاف (في لغات العرب، وفي القراءات كلّها) ثم تصنيفها، وقد تعرض هذا المذهب للتشريح على يد أنصاره الذين تابعوا عليه، وخلصاته تصنيف الإمام الرازى، نسقته فيما يلى:

قال أبو الفضل عبد الرحمن الرازى: «فمن التأويلات التي يحتملها الخبر ولم يتقدم على نظامه تأويلٌ هو أنَّ كلَّ حرفٍ من الأحرف السبعة المنزلة جنسٌ ذو نوعٍ من الاختلاف». نحو

- أحداها: اختلاف أوزان الأسماء من الواحد والثنية والجمع والذكير والمبالغة وغيرها.

ومن أمثلته: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [ المؤمنون: ٨] و قوله (لِأَمَانَاتِهِمْ) بالإفراد.

- والثاني: اختلاف تصريف الأفعال وما يسند إليه، نحو الماضي والمستقبل والأمر، وأن يسند إلى المذكر والمؤنث والمتكلّم والمخاطب والفاعل والمفعول به.

ومن أمثلته: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدُ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩] بصيغة الدعاء، وقرئ: (رَبَّنَا بَعْدُ) فعلاً ماضياً.

- الثالث: وجوه الإعراب.

ومن أمثلته: ﴿ولَا يُضَارِ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢] فُرِئَ بفتح الراء وضمها.

﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥] يرفع (المجيد) وجّهه.

- الرابع: الزيادة والنقص.

مثل: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ [الليل: ٣] فُرِئَ (والذكر والأنثى).

- الخامس: التقديس والتأخير.

مثل: ﴿فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبه: ١١١]، فُرِئَ: (فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ).

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩]، فُرِئَ: (وجاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بالموت).

- السادس: القلب والإبدال في الكلمة بأخرى، أو حرفٍ آخر.

مثل: ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنَشِّرُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] بالزاي، وفُرِئَ: (نُنَشِّرُهَا) بالراء.

- السابع: اختلاف اللغات.

مثل: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [التازعات: ١٥] ثُقِرَ بالفتح والإملأة في (أَتَى) و(موسى).

وغير ذلك من ترقيق وتفخيم، وإذ gamm ... وهكذا ... ثم قال أبو الفضل الرزاقي: «... فهذا التأويل مما جمع شواد القراءات ومتشايرها، ومناسيقها على موافقة الرسم ومخالفته، وكذلك سائر الكلام لا ينفك احتلافه من هذه الأجناس السبعة المتنوعة، فإن وافق هذا التأويل معنى

الخبر - أي حديث الأحرف السبعة - حذوا بحذو فقد أصاب من أخذ به، وإن لم يوافقه فلا شك في دخول معنى الخبر تحت هذه الوجوه، وإن لم يكن مرتباً عليها»<sup>(١)</sup>.

### المذهب الثاني:

إن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات قبائل العرب الفصيحة، وذلك لأن المعنى الأصلي للحرف هو اللغة، فأنزل القرآن على سبع لغات مراجعاً ما بينها من الفوارق التي لم يألفها بعض العرب، فأنزل الله القرآن بما يألف ويعرف هؤلاء وهؤلاء من أصحاب اللغات، حتى نزل في القرآن من القراءات ما يسهل على حل العرب إن لم يكن كلهم، وبذلك كان القرآن نازلاً بلسان قريش والعرب - كما قال الإمام البخاري في صحيحه<sup>(٢)</sup> -.

وقال جماعة من العلماء: إن هذه اللغات هي لغات: (قريش، وهذيل، وتميم، وأزد، وربيعة، وهوازن، وسعد بن بكر)<sup>(٣)</sup>.

والحاصل أن هذين المذهبين أقوى ما قيل في تفسير حقيقة الأحرف السبعة، ولا خلاف بينهما في النتيجة، لأنَّ أحدهما : يبيّن أوجه الاختلاف. والثاني: ما تنطبق عليه هذه الأوجه من لغات العرب.

<sup>(١)</sup> الأحرف السبعة في القرآن: ص ١٠٠، نقاً عن كتاب أبي الفضل الرازي نفسه، وانظر فتح الباري ٩/٢٣ - ٢٤) ومناهل العرفان (١٤٩).

<sup>(٢)</sup> في كتاب فضائل القرآن، فقد بوب بقوله: (باب نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ وَالْعَرَبِ وَقَوْبَلِ اللَّهِ عَالَىٰ: «قُرْآنًا عَرَبِيًّا» [يوسف: ٢]، «بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» [الشعراء: ١٩٥].

<sup>(٣)</sup> البرهان (١/٢١٧).

وَهُمَا يُحْقِقُانِ مَا وَرَدَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ مِنْ نَزْوِ الْقُرْآنِ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ يُقْرَأُ إِلَيْهَا.

### أين الأَحْرُفُ السَّتَّةُ؟

ذَلِكَ مَا تَبَيَّنَ بِالْأَدْلَةِ مِنْ حَقِيقَةِ الْأَحْرُفِ السَّبْعَةِ، وَالْقَوْلُ الصَّحِيفُ فِيهَا، فَأَيْنَ هِيَ الْأَحْرُفُ السَّبْعَةُ، وَهُلْ مَا يَقْرَأُ بِهِ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْقِرَاءَاتِ الْيَوْمِ يَشْتَمِلُ عَلَى الْأَحْرُفِ السَّبْعَةِ وَيُحَقِّقُهَا، أَوْ أَنَّهُ حَرْفٌ وَاحِدٌ، وَأَيْنَ هِيَ السَّتَّةُ الْبَاقِيَةُ إِذْن؟ يَرَى الْمُحَقِّقُونَ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ - كَالإِمَامِ الْبَاقِلَانِيِّ وَغَيْرِهِ - أَنَّ الْأَحْرُفَ السَّبْعَةَ بَاقِيَّةً، وَأَنَّ الْمَصَاحِفَ الْعُثْمَانِيَّةَ - الَّتِي اسْتَسْخَرَهَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَدْ اشْتَمَلَتْ عَلَى الْأَحْرُفِ السَّبْعَةِ جَمِيعًا.

وَهَذِهِ عَبَارَاتُ الْإِمَامِ الْحَقِيقِ أَبِي بَكْرِ الْبَاقِلَانِيِّ تَلْقَى الضَّوءَ سَاطِعاً عَلَى الْقَضِيَّةِ، قَالَ رَحْمَهُ اللَّهُ وَرَضِيَ عَنْهُ: «إِنَّ عُثْمَانَ لَمْ يَقْصُدْ قَصْدَ أَبِي بَكْرٍ فِي جَمْعِ نَفْسِ الْقُرْآنِ بَيْنَ لَوْحَيْنِ، وَإِنَّمَا قَصَدَ جَمْعَهُمْ عَلَى الْقِرَاءَاتِ الثَّابِتَةِ الْمَعْرُوضَةِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِلَغَاءِ مَا لَمْ يَجِدْ مُحْرِيَ ذَلِكَ، وَأَنْذَهُمْ بِمَصْحَفٍ عُثْمَانَ لَا تَقْدِيمَ فِيهِ وَلَا تَأْخِيرَ، وَلَا تَأْوِيلَ أَثَبَتْ مَعَ تَنْزِيلِهِ وَلَا مَنْسُوخَ تَلَاوَتِهِ كَتَبَ مَعَ مَثْبُتِ رَسْمِهِ وَمَفْرُوضِ قِرَاءَتِهِ وَحْفَظِهِ ...»<sup>(١)</sup>.

«... لَأَنَّ الْقَوْمَ عِنْدَنَا لَمْ يَخْتَلِفُوا فِي هَذِهِ الْحُرُوفِ الْمُشَهُورَةِ عَنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّتِي لَمْ يَمْتُ حَتَّى عُلِمَّ مِنْ دِينِهِ أَنَّهُ أَقْرَأَ بِهَا، وَصَوْبُ الْمُخْتَلِفِينَ فِيهَا، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي قِرَاءَاتِهِ وَوَجْهِهِ أُخْرَى لَمْ تَثْبُتْ عَنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ

<sup>(١)</sup> الانتصار للقرآن، للباقلي (٦٥/١)، وانظر البرهان (٢٣٥/١) وشرح صحيح مسلم لل النووي (٦٠٠/٦).

والسَّلامُ، وَلَمْ تَقْمِ بِهَا حَجَّةً، وَكَانَتْ تَحْيِيءُ مَجَيْءَ الْآخَادِ وَمَا لَا يَعْلَمُ ثَبَوْتَهُ  
وَصَحَّتْهُ، وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَقْرَأُ التَّأْوِيلَ مَعَ التَّنْزِيلِ، نَحْوَهُ:  
قَوْلُهُ: («الصَّلَاةُ الْوَسْطَى» وَهِيَ صَلَاةُ الْعَصْرِ)<sup>(١)</sup>.

(«فَإِنْ فَاؤُ» فِيهِنَّ)<sup>(٢)</sup>.

(«وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْيَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ» فِي مَوَاسِيمِ الْحَجَّ)<sup>(٣)</sup> ...  
فَمَنْعَ عُثْمَانُ مِنْ هَذَا الَّذِي لَمْ يَبْثُتْ وَلَمْ تَقْمِ الْحَجَّ بِهِ، وَأَحْرَقَهُ، وَأَحْدَهُ  
بِالْمُتَعِّنِّ الْمُعْلَمِ مِنْ قِرَاءَاتِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ...»<sup>(٤)</sup>.

<sup>(١)</sup> أصل الآية «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى وَقَوْمًا لِهِ قَاتِنِينَ» وورد عن بعض الصحابة زيادة  
«وهي صلاة العصر»، وهي قراءة تفسيرية، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم تفسير  
الصلوة الوسطى أنها صلاة العصر.

<sup>(٢)</sup> الآية أصلها في المرأة يختلف روجها لا يقرها: «فَإِنْ فَاؤُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» وقراءة (فيهنَّ) تفسيرية.

<sup>(٣)</sup> الآية في بيان بعض أحكام الحج، وجواز تعاطي التجارة ونحوها للمحرم بالحج، وقوله «في  
مَوَاسِيمِ الْحَجَّ» تفسير ليس من الآية.

<sup>(٤)</sup> الانتصار للقرآن، للباقياني (٣٥١/١).



# القراءاتُ والقراءُ

تعريف القراءة

ضوابط القراءة المقبولة

أنواع القراءات حسب أسانيدها

القراءات المتواترة وقراءتها

القراءات الشاذةُ



## تعريف القراءة:

القراءة لغةً: مصدرٌ لِقَرْأَةٍ.

وفي الاصطلاح: «القراءات علم بكيفيات أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة»<sup>(١)</sup>.

وقولهم: (كلمات القرآن) أي كلمة من أول القرآن إلى آخره، ببيان ما يندرج تحت قاعدة عامة، وما هو حالة خاصة. مثل السكوت اللطيف على **﴿عِوَجًا﴾** من الكهف.

وقولهم: (بعزو الناقلة) أي أن هذا العلم ثابت بالعقل الثابت المتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم، لا مصدر له سوى النقل والتلقين الشفاهي.

و(المقرئ): العالم بالقراءات، الذي رواها مشافهةً بالتلقى عن أهلها إلى أن يبلغ النبي صلى الله عليه وسلم، فلو حفظ كتاب «التيسير» في القراءات مثلاً فليس له أن يقرأ بما فيه إن لم يشاهده من شوفه به مُسَلِّسًا، لأن في القراءات أشياء لا تُحْكَم إِلَّا بالسماع والمشافهة<sup>(٢)</sup>.

## ضوابط القراءة المقبولة:

ولما كان النقل بعزو الناقلة مختلف قوًّا وضعفاً بحسب حال الناقلة، فقد احتاج الأمر إلى ضوابط تميز بها القراءة المقبولة وغير المقبولة.

وقد نصَّ علماء القراءات على قاعدة مشهورة متفق عليها بينهم في تحديد القراءة المقبولة وهي:

<sup>(١)</sup> منجد المقرئين لابن الجوزي ص ٣. وانظر تعريفاً آخر في مناهل العرفان (٤٠٥/١).

<sup>(٢)</sup> منجد المقرئين ص ٣.

«كُلُّ قِرَاءَةٍ وَافَقَتِ الْعَرَبِيَّةَ وَلَوْ بِوَجْهِهِ، وَوَافَقَتْ رَسْمَ أَحَدِ الْمَصَاحِفِ وَلَوْ احْتِمَالًاً، وَصَحَّ سَنْدُهَا فَهِيَ الْقِرَاءَةُ الصَّحِيحَةُ»<sup>(١)</sup>.

ويبيّنُ من هذه القاعدة ثلاثة ضوابط يتوقف قبول القراءة على اجتماعها كلّها وهي:

### الضابط الأول: موافقة العربية ولو بوجهه

ومعنى هذا الضابط أن تكون القراءة موافقة لوجهه من وجوه النحو، ولو كان مختلفاً فيه اختلافاً لا يضرُّ مثله، فلا يصحُّ مثلاً الاعتراض على قراءة حمزة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَائِلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامِ﴾ بحُرّ (الأرحام) بأنَّه عَطْفٌ على الضمير المجرور بدون إعادة الجار، وهو خلاف مذهب البصريين، لأنَّنا نقول: إنَّ الكوفيين يُجزِّيون مثل هذا العطف، وهكذا ..

### الضابط الثاني: موافقة خط أحد المصاحف ولو احتمالاً

وذلك أنَّ النطق بالكلمة قد يوافق رسم المصحف تَحْقِيقاً إذا كان مطابقاً للمكتوب، وقد يوافقه احتمالاً أو تَقْدِيرًا باعتبار ما عرفنا أنَّ رسم المصحف له أصولٌ خاصةً به تسمح بقراءته على أكثرِ من وجهه.

مثال ذلك: (مَالِكٍ يَوْمُ الدِّينِ) ربَّتْ (مَلِكٍ) بدون ألفٍ في جميع المصاحف، فمن قرأ: ﴿مَلِكٍ يَوْمُ الدِّينِ﴾ بدون ألفٍ موافق للرسم تَحْقِيقاً، ومن قرأ: (مَالِكٍ) فهو موافق تَقْدِيرًا، لِحَذْفِ هذه الألفٍ من الخط اختصاراً.

<sup>(١)</sup> النشر بتصرف يسir (٩/١).

### **الضابط الثالث: صحة السندي**

وهو أن يروي القراءة عدلاً ضابطاً عن مثله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير شذوذ ولا علة.

ويشترط في هذه القراءة أن تناول ثقة أئمة القراء الضابطين، بحيث تكون مشهورة لديهم متلقاة بالقبول عندهم. وقد يسأل من لم يتمتعن بحقيقة المسألة:

كيف يكفي لقبول القراءة صحة السندي مع أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر؟  
**الجواب** عن هذا السؤال من أوجهه كثيرة نكتفي منها بوجه هو أن القراءة ثابتة بنقل أهل المنطقة كلهم، لكن بحكم قانون الانتخاب الطبيعي يوجد أفراد يفوقون أهل عصرهم، حتى يكونوا مرجعا لهم، وكذلك شأن هؤلاء القراء، فإن السندي وإن اتصل بخبر صحيح ظاهراً، لكنه متواتر في الحقيقة، لذلك قالوا: يشترط أن تناول ثقة الأئمة وتكون مشهورة بينهم.

### **أنواع القراءات حسب أسانيدها:**

وبالتلزيم لما ذكرناه فقد قسموا القراءات بحسب أسانيدها ستة أقسام، وبينوا حكم كل نوع ودرجه من حيث القبول أو الرد، وهذه الأقسام هي:  
الأول - المتواتر: وهو ما نقله جمّع غفير لا يمكن تواطئهم على الكذب عن مثلهم إلى منتهى السندي، وهذا النوع هو غالبية القراءات.  
الثاني - المشهور: وهو ما صح سند له، واستوف شروط القراءة الصحيحة، و Ashtoner عند القراء فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ، وهذا تصح القراءة به، ولا يجوز ردّه، ولا يخل إشكاله.

الثالث - الآحاد: وهو ما صَحَّ سُنْدُه وخالفَ الرِّسْمَ أو العَرَبِيَّةَ، أو لم يشتهِر الاشتهاَر المذكور، وهذا لا تَحوز القراءَةُ به.

الرابع - الشاذ: وهو ما لم يصَحَّ سُنْدُه ولو وافقَ رَسْمَ المَصَحَّفِ والعَرَبِيَّةَ، مثل قراءَةٍ: (مَلَكَ يَوْمَ الدِّينِ) بصيغَةِ الماضِي في (مَلَكَ) ونصبٍ (يَوْمَ) مَفعولاً.

الخامس - الموضوع: وهو المختلُقُ المكذوب.

السادس - ما يشبه المدرج من أنواع الحديث: وهو ما زَيَّدَ في القراءَةِ على وجهِ التَّفسِيرِ، كما نُقلَ عن ابنِ عَبَّاسٍ رضيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَرَأَ (وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحةٍ غَصْبًا)، فكلمةٌ (صالحةٌ) ليستْ قُرآنًا، إِنَّما هي تفسيرٌ.

وهذه الأنواعُ الْثَّلَاثَةُ الْآخِيرَةُ لَا تَحْلُّ القراءَةُ بِهَا، بِالْأَخْرِيِّ وَالْأُولِيِّ إِذَا كَانَتْ قراءَةُ الآحادِ لَا تَحْلُّ القراءَةُ بِهَا، وَيُعَاقَبُ مَنْ قَرَأَ بِهَا.

### القراءات المتواترة وقراءاتها:

تلقَّى الصَّحَابَةُ الْفُرْقَانَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَرَأَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ الْفُرْقَانَ كَمَا تَعَلَّمُوهُ مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ خَرَجَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ فِي الْفَتوحَاتِ فِي كَتِيبَةٍ أَوْ كَتَابٍ مُجْتَمِعَةٍ إِلَى بَعْضِهَا، وَاسْتَقَرَّتْ فِي الْبِلَادِ تَقْرَأُ قِرَاءَتَهَا، وَيَتَلَقَّاها الْأَبْنَاءُ عَنِ الْأَبْاءِ فَكَانَ لِكُلِّ بَلِدٍ أَوْ قَطْرٍ قِرَاءُهُ الْمَتَوَاتِرُ جِيلًا عَنْ جِيلٍ.

وَكَانَ مِنَ الضرُورِيِّ وَالظَّاهِرِيِّ أَنْ يَشْتَهِرَ فِي كُلِّ عَصْرٍ جَمَاعَةٌ مِنَ الْقُرَاءِ، فِي كُلِّ طبَقَةٍ مِنْ طبقاتِ الْأَمَمِ، يَتَفَوَّقُونَ فِي حَفْظِ الْفُرْقَانِ وَإِتقَانِ ضَبْطِ أَدَائِهِ، وَالتَّصْدِي وَالتَّفْرِغُ لِتَعْلِيمِهِ، مِنْ عَصْرِ الصَّحَابَةِ، ثُمَّ التَّابِعِينَ، وَاتَّبَاعِهِمْ، وَهَكُذا.

وكان من القراء من بلغ الدرجة في الإتقان والضبط، كما كان ثمة قراء دونهم، وآخرون ليسوا من أهل الإتقان، فقام العلماء بتمحیص هذه القراءات ودراسة أحوالها، وبينوا للناس المتواتر منها.

وبناءً من عصر التابعين انتشرت القراءات كثيراً، فشعرت طائفة من أهل العلم بضرورة الاحتياط للقرآن وقراءاته، فنهض كل إمام بضبط القراءة عن الأئمة المقربين وهكذا في العصور التالية، ثم أودع تلك القراءات في مؤلفات خاصة، كما فعله أبو عبيدة ثم الطبراني ومن جاء بعد ...

ثم جاء الإمام أحمد بن موسى بن العباس المشهور بـ(ابن مُحَمَّد) (ت: ٣٢٤ هـ)، فأفرد القراءات السبع المعروفة فدوّنها في كتابه «السبعة في القراءات» فاحتلت مكانتها في التدوين وأصبح علمها مُفرداً يقصدُها طلاب القراءات.

وقد بني اختياره هذا على شروطٍ عالية جداً، فلم يأخذ إلا عن الإمام الذي اشتهر بالضبط والأمانة، وطول العمر في ملازمة الإقراء، مع الاتفاق على الأخذ منه، والتلقى عنه، فكان له من ذلك قراءاتٌ هؤلاء السبعة، وهم:

- ١ - عبد الله بن كثير الداري المكي (ت: ١٢٠ هـ).
- ٢ - عبد الله بن عامر اليحصي الشامي (ت: ١١٨ هـ).
- ٣ - عاصم بن أبي النجود الأسدية الكوفي (ت: ١٢٧ هـ).
- ٤ - أبو عمريو زيان بن العلاء البصري (ت: ١٥٤ هـ).
- ٥ - حمره بن حبيب الزيات الكوفي (ت: ١٥٦ هـ).
- ٦ - نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدي (ت: ١٦٩ هـ).
- ٧ - أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي النحوي الكوفي (ت: ١٨٩ هـ).

وقد تابع العلماء البحث لتحديد القراءات المتواترة، حتى استقر الاعتماد على العلمي واشتهر على زيادة ثلات قراءات أخرى، أضيفت إلى السبع فأصبح مجموع المتواتر من القراءات عشر قراءات، وهذه القراءات الثلاث هي قراءات هؤلاء الأئمة:

- ٨ - أبو جعفر يزيد بن الفقيه المدي (ت: ١٣٠ هـ).
- ٩ - يعقوب بن إسحاق الحضرمي (ت: ٢٠٥ هـ).
- ١٠ - خلف بن هشام البغدادي (ت: ٢٢٩ هـ).

### **القراءات الشاذة:**

تعريف القراءة الشاذة: هي كل قراءة لم يتوفّر فيها شرط واحد من شروط القراءة الصحيحة التي سبقت في ضوابط القراءة المقبولة.

وهذا الإطلاق للشذوذ قديم، وكان الأصل فيه إطلاق الشذوذ على ما خالف رسم المصحف، واستوفى سائر الشروط، ويطلق على القراءة التي استوفت الشروط إلا أن سندها ضعيف «رواية ضعيفة»، كما أطلقوا عليها وصف «الشذوذ» أيضاً على سبيل التوسيع.

أمّا إذا لم يوجد للقراءة سند فإنّها تكون رواية مكذوبة مخالفة، حتّى لو وافقَت المعنى ورسم المصحف.

أمّا حكم القراءة الشاذة فتلخص بما يلي:

- ١ - يحرّم القراءة بها، ولا يجوز الصلاة بها، لأنّها ليست قرآنًا.
- ٢ - ذهب كثير من الفقهاء - ومنهم الشافعية - إلى عدم الاحتياج بالقراءة الشاذة، لأنّها زعمت قرآنًا ولم يثبت ذلك.

وذهب الحنفية إلى أنه يجوز الاحتجاج بها في الأحكام، لأنّها مِنْ قَبِيلِ التّفسيرِ، والظاهرون أنّه تفسير نَقْلَةِ الصَّحابيِّ عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٣ - أما الاحتجاج بالقراءات الشّادّة في اللُّغَةِ فالراجح قَبْلُهَا، لأنّها لا تقلُّ عن كثيَرٍ مِنْ شَوَاهِدِ النَّحوينَ واللغويينَ.

وبعد :

فإنَّ للأَحْرُفِ السَّبْعَةِ وَالقراءاتِ أَهميَّةٌ بِالْغُلَامِ، لِمَا جَاءَتْ بِهِ مِنْ فوائدٍ في تَنزيلِ الْقُرْآنِ وَحْفَظِ لُغَاتِ الْعَرَبِ وَهَجَانِهَا، وَلِزِيادةِ الدَّلَالَةِ عَلَى إِعْجَازِ الْقُرْآنِ، فِي إِنَّمَا تؤيِّدُ بَعْضَهَا بعضاً، كَمَا أَنَّ نَظَمَ الْقُرْآنِ الْمُعْجِزِ يَجْرِي فِي كُلِّ قِرَاءَاتِهِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ إِعْجَازٍ (جَزَالَةً، أَوْ تَتَابُعَ سَرْدٍ، وَنَعْمٌ مُوسِيقِيٌّ، مَعَ كُثْرَةِ أَوْجُهِ القراءات) مَا يَزِيدُ الدَّلَالَةَ عَلَى إِعْجَازِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ<sup>(١)</sup>.

<sup>(١)</sup> انظر للتوسيع في حِكْمِ نَزْولِ الْقُرْآنِ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُوفٍ وَقِرَاءَاتِهِ في تفسير الطبرى (١/٧٠ - ٧١) والأَحْرُفِ السَّبْعَةِ وَمَنْزَلَةِ القراءاتِ مِنْهَا، للدُّكتُورِ حَسْنِ ضِيَاءِ الدِّينِ عَطْرَصِ ١٣٨ - ١٤٦ وَغَيْرِهِمَا.



# علوم القرآن

تمهيد

التفسيرُ

(حقيقة ، نشأته وتطوره ، مذاهبه وشروطه)

المكي والمدني

(تعريف ، و خصائص ، والفائدة)

المبهِّمُ والمتَّشابِهُ فِي الْقُرْآن



## **تمهيد حصتين**

- ١ - ما هي علوم القرآن؟
- ٢ - (علوم القرآن) اصطلاح خاص.
- ٣ - متى ظهر هذا الاصطلاح؟



## ما هي علوم القرآن؟

علوم القرآن كثيرة، وحسبك أنْ تعلمَ أنَّ المكتبةَ العربيةَ كُلُّها بعلومها المختلفةِ الكثيرةِ، إِنَّمَا انبثقتَ عنِ القرآنِ وتفرَّعَتْ عنه

- فعِلْمُ الْعَرَبِيَّةِ بفروعِها منْ (أدبٍ، وبلاطِةٍ، وقواعدٍ، ولغةٍ) منْ علومِ القرآنِ.

- والشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ بفروعِها منْ (الفقهِ، والأصولِ، والتَّفْسِيرِ، والحدِيثِ والتوحيدِ) منْ علومِ القرآنِ.

- والتَّارِيخُ وكثيرٌ منْ مسائلِ الكونياتِ وأصولِ البحثِ منْ علومِ القرآنِ.

قال الزركشي : «وَكُلُّ عِلْمٍ مِنَ الْعِلُومِ مُتَنَزَّعٌ مِنَ الْقُرْآنِ وَإِلَّا فَلَيْسَ لَهُ بُرْهَانٌ»<sup>(١)</sup>.

رواہ البیهقی في المدخل عن ابن مسعود أَنَّه قال: «مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيَتَوَرَّثْ عَنِ الْقُرْآنِ أَيْ ليفكر في معانيه وتفسيره وقراءته) فَإِنَّ فِيهِ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ».

وقال الزركشي : «أَرَادَ بِهِ أُصُولَ الْعِلْمِ»<sup>(٢)</sup>.

وبعد أن تستعظام هذا الكلام، وتردّه إلى المبالغة والتزييد، نقول لك:

إِنَّمَا يصدق هذا، على أساس الوجهين التاليين:

<sup>(١)</sup> البرهان: (٨/١).

<sup>(٢)</sup> المرجع السابق: (١/٨).

**الوجه الأول**: أن القرآن يشتمل على كلٍّ تلك العلوم اشتاماً مختلفاً ومتفاوتاً.

فمنها ما يشتمل عليه القرآن بمعناه الحقيقي دون أي تأويل أو مبالغة كعلوم الفقه، والأصول، والتفسير، والبلاغة، والقواعد، واللغة.

ومنها ما يشتمل القرآن على أصوله ومفاتيحه، بمعنى أن ينبه القارئ إليه ويرشدء إلى كثير من كلياته وأصوله، ككثيرٍ من العلوم الكونية والفلكلورية، وعلم الطبّ والأبدان.

**الوجه الثاني**: أنَّ القرآن هو الذي نَبَّهَ العربَ والمسلمين إلى ضرورة الإقبال على هذه العلوم والأبحاث، بل هو المنطلق الأوَّل لشيء اسمه «التدوين» في التاريخ العربي.

فالقرآن - كما قد رأيت فيما مضى - :

- هو الذي أَشَعَّ النَّاسَ بضرورِه وضع قواعد في النَّحو والإعرابِ.

- وهو الذي أَشَعَّهُم بالحاجةِ إلى وضع موازين وضوابط للبلاغة العربية ووجوهها.

- وهو الذي دعاهم إلى وضع الموسوعات اللُّغوية المختلفة.

- وهو الذي اضطررهم إلى تدوين شيء اسمه (علم الكلام) بما يشتمل عليه هذا العلم من قواعد البحث والمنطق لتعزيز الأدلة النقلية بالبراهين العقلية.

ثم لولا القرآن وما أَدَى إليه تدوينه والإقبال عليه، لما أَقبلوا بعد ذلك إلى شيءٍ من العلوم الكونية والتشريح والطب.

وآية ما تقدّم أنّ الذين نبغوا من العرب في هذه العلوم، إنّما نفذوا إليها من دراساتهم القرآنية قبل ذلك، فأنت لا تكاد تقع على ترجمة واحدٍ منهم إلّا وتجده مفسّراً فقيهاً ذا باع طويلاً في القرآن وعلومه، كـ(ابن النّفيس) مثلاً فهو طبيبٌ نطاسيٌّ، وهو مكتشفُ الدّورة الدّمويّة، وهو قبل ذلك كان من كبار فقهاء الشافعية، وقد ألهَ في الفقه والسيرة النبوية، وترجم له السبكيُّ في (طبقات الشافعية)<sup>(١)</sup>.

**الملاصقة** إنّ بُنيَّةَ الحضارة العَرَبِيَّةِ بما اشتملت عليه من علومٍ وفنونٍ وفكِّرٍ وابتکارٍ، إنّما قامت بتأثير القرآن وعلى ضوءه، ولا ينافي ذلك ما نعلمه جميعاً من كيفية تسلسل الأحداث وارتباط الأمور بعضها. إنّما المهم أنْ تعلم أنَّه لولا القرآن لما كانت هذه المكتبة العَرَبِيَّةُ التي نرفع الرأس بها اليوم عالياً. وذلك معنى قولنا: القرآن يحتوي على علوم كثيرة جداً، وهو معنى قول الزركشي السابق: «كُلُّ عِلْمٍ مِنَ الْقُرْآنِ مُنْتَزَعٌ».

### (علوم القرآن) اصطلاح خاص:

ثم إنَّ هذه الكلمة أصبحت تُطلق على طائفةٍ معينةٍ من الأبحاث الهامة المتعلقة بالقرآن تعلقاً مباشراً وقريباً. كـ(تفسيره، وناسخه ومنسوخه، ومكيّه ومدنيّه، ومُحكَمِه ومتشاِهِه، وقراءاته ... وغير ذلك)، لأنَّ كلاًّ من هذه الأبحاث، قد دار حوله كلامٌ كثيرٌ، واستلزم فهمُه معرفةً دقيقةً لضبطه وتحديده،

---

<sup>(١)</sup> انظر طبقات السبكي : (١٢٩/٥).

وأُلْفَتْ فِيهِ الْكِتَبُ الْمُسْتَقْلَةُ، فَتَحَوَّلَتِ الْمُعْرِفَةُ بِذَلِكَ إِلَى عِلْمٍ، كَمَا يَقُولُ ابْنُ خَلْدُونَ<sup>(١)</sup>.

- فَالْتَّفَسِيرُ إِذَا فِي مُسْتَقْلٍ بِرَأْسِهِ، يَقُومُ عَلَى أُسُسٍ وَمَقَوْمَاتٍ وَشُرُوطٍ.

- وَالنَّاسُخُ وَالْمَنْسُوخُ فِي الْقُرْآنِ أَيْضًا فِي خَاصٍ يَقُومُ عَلَى دِرَاسَةٍ مُعَيَّنَةٍ وَأَهْمَى خَاصَّةً.

- وَالْمُحْكَمُ وَالْمُتَشَابِهُ كَذَلِكَ .. وَهُلْمٌ جَرًا.

ثُمَّ لَمَّا كَثُرَتْ تَالِيفُ الْعُلَمَاءِ فِي هَذِهِ الْقُرُونِ، وَأَطْلَقُوا عَلَى حُمُلَتِهَا اسْمَ (عِلْمُ الْقُرْآنِ) وَتَكَرَّرَ هَذَا اسْمُ وَتَدَالُوهُ الْبَاحِثُونَ وَالْكَاتِبُونَ، أَصَبَحَ هَذَا الإِطْلَاقُ عَلَمًا عَلَى هَذِهِ الطَّائِفَةِ مِنْ عِلْمِ الْقُرْآنِ وَابْحَاثِهِ. وَأَصَبَحَتْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ مِنَ الْأَبْحَاثِ عِلْمًا مُسْتَقْلًا بِرَأْسِهِ.

مَتى ظَهَرَ هَذَا الْاَصْطِلاَحُ؟

ثُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ عَصَرَ الصَّحَابَةِ كَانَ عَصَرَ تَلْقِي الْقُرْآنِ وَالسُّنْنَةِ، وَكَانَ الصَّحَابَةُ رَضِوانُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ يُدْرِكُونَ مَعَانِي الْأَلْفَاظِ وَمَا وَرَاءَهَا بِفَطْرَتِهِمِ الْعَرَبِيَّةِ الْأَصِيلَةِ، فَإِذَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ أَيْضًا سَأَلُوا عَنْهُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ كَانَتْ رِقْعَةُ حِيَاتِهِمْ ضَيِّقَةً لَا تَنْخِرُ أَوْ تَزَاحِمُ فِيهَا التَّقَالِيدُ وَالْأَفْكَارُ وَالْمُشَكَّلَاتُ الطَّارِئَةُ، فَكَانَتْ مَعَارِفُهُمْ فِي أَذْهَانِهِمْ، وَكَانَ مَرْجِعُهُمْ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ كَبَارُ الصَّحَابَةِ مِنْ بَعْدِهِ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ مَا أَطْلَقَ عَلَيْهِ فِيمَا بَعْدِ اسْمِ «عِلْمِ الْقُرْآنِ».

<sup>(١)</sup> مقدمة ابن خلدون: ٢١٤ طبعة بولاق.

ثم لما كان عصر التّابعين، أقبلَ التّابعونَ على مشاهيرِ الصّحابةِ يتعلّمونَ منهم كتابَ الله تعالى وتفسيره، وربما أحذَ البعضَ يدوّنُ من ذلك الكثيرَ ما يحرص عليه.

وقد اشتَهرَ من التّابعينَ في دراسةِ القرآنِ وتفسيره: مجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء ابن أبي رباح، والحسن بن يسارٍ البصري.

روى ابن كثيرٍ عن ابن مُلِيكة قال: رأيْتُ مجاهداً سألاً ابنَ عبّاسٍ رضيَ الله عنهما عن تفسيرِ القرآنِ، ومعه الْواحِدُ، قال: فيقول له ابن عباس: «اكتب» حتى سأله عن التّفسيرِ كله<sup>(١)</sup>.

وهكذا تكونَ وظاهرُ في عصرِ التّابعينِ «علم تفسيرِ القرآنِ» في مقدمة علومه وأبحاثه الأخرى، إذ هو أساسها وإليه مردها؛ ظهرَ علماً بدأً تدوينه وجمعُه، بعد أن كان معارفَ في الأذهانِ والصدورِ.

ثم تفرعَ عن علم التّفسيرِ علومه الأخرى، عندما تكاثرَ أربابُ الاختصاص في الدراساتِ العَرَبِيَّةِ والإسلاميَّةِ.

- فالفقهاءُ والأصوليونُ عنوا منها بـ(علم النّاسخِ والمنسوخِ).

- وعلماءُ التّفسيرِ والكلام اهتموا من ذلك بـ(علم المُخْكِمِ والمُتَشَابِهِ، والقراءاتِ).

- وعلماءُ العَرَبِيَّةِ انصرفوا إلى مباحثِ (الإعجازِ والأسلوبِ، وعلمِ إعرابِ القرآنِ) .. وهلمُ حراً.

<sup>(١)</sup> تفسير ابن كثير ٤/١.

ولا شك أن هذه الفنون لم تظهر في حقبة واحدة من الزمن، وإنما ظهرت متتابعة، إلا أنها تكاملت علوماً خلال القرنين الثاني والثالث.

أما إطلاق لفظ (علوم القرآن) اصطلاحاً على هذه العلوم القرآنية فإن البعض يرى أن الإمام الشافعي هو أول من سير هذا الاصطلاح وذلك لأن

الخليفة هارون الرشيد سأله: كيف علمك يا شافعي بكتاب الله؟

قال الشافعي: عن أبي كتاب من كتب الله تعالى يا أمير المؤمنين؟ فإن الله أنزل كتبًا كثيرة!

قال الرشيد: قد أحسنت، لكن إنما سألت عن كتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم.

قال الشافعي: إن للقرآن علوماً كثيرة، فهل تسلّني عن مُحَكِّمه ومتشاربه، أو عن تقديمه وتأخيره أو ناسخه ومنسوخه؟ وأغلب الظن أن الكلمة أصبحت اصطلاحاً، بتداول المؤلفين لها، وجعلها اسمًا على مباحثهم المتعلقة بالقرآن. وأيًّا كان الأمر فإن الخطب في ذلك يسير وهو ما لا يتعلّق لنا به غرض كبير.

تعريف علوم القرآن في الاصطلاح، والتَّصْنِيف فيه<sup>(١)</sup>:

علوم القرآن اصطلاحاً: «هو المباحث الكلية التي تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله، وترتيبه، وجمعه، وكتابته، وتفسيره، وإعجازه، وناسخه ومنسوخه، ... وغير ذلك»<sup>(٢)</sup>.

<sup>(١)</sup> هذه الفقرة مستفادة من كتاب الأستاذ نور الدين عتر حفظه الله: (ص: ٨).

<sup>(٢)</sup> وقد قال الدكتور عتر حفظه الله معلقاً: ومن هنا ندرك الخطأ الواضح الذي وقع فيه من عرف علوم القرآن فقال: «هي جميع المعلومات والبحوث التي تتعلق بالقرآن ...».

## التصنيفُ في علوم القرآن:

وبالنَّظرِ لِأَهْمَيَّةِ هَذَا الْعِلْمِ كُثُرَتِ الدِّرَاسَاتُ فِيهِ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ، فَكَتَبَ كَثِيرٌ مِّنَ الْمُفَسِّرِينَ فِي مَقْدِمَاتِ تَفَاسِيرِهِمْ بَحْوَثًا هَامَّةً فِي عِلْمِ الْقَرآنِ، عَنْهَا فِيهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِأَصْوَلِ تَفْسِيرِهِ وَإِعْجَازِهِ، عَلَى مَثَلِ مَقْدِمةِ الطَّبْرِيِّ، لِتَفْسِيرِهِ «جَامِعِ الْبَيَانِ»، وَمَقْدِمةِ الْفُرَطِيِّ لِتَفْسِيرِهِ «الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقَرآنِ».

وَصَنَّفَ الْعُلَمَاءُ مُؤْلِفَاتٍ مُسْتَقْلَةً تَشْمِلُ كُلَّ عِلْمِ الْقَرآنِ، مُثَلُ هَذِهِ الْكِتَابَاتِ الْهَامَّةِ:

- ١ - «فنون الأفان في عيون علوم القرآن»، للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ).
  - ٢ - «البرهان في علوم القرآن»، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت: ٧٩٤هـ).
  - ٣ - «الإتقان في علوم القرآن»، للإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت: ٩١١هـ). وقد بناه على كتاب البرهان، وأضاف إليه فوائد وبحوثاً.
- وَفِي هَذَا الْعَصْرِ اقْتَصَرَ الْبَاحِثُونَ فِي هَذَا الْعِلْمِ عَلَى أَهْمَمِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْدَّارِسُ فِي هَذَا الْعَصْرِ، اعْتِمَادًا عَلَى تَكْمِلَةِ بَحْوثٍ أُخْرَى مِنْ عِلْمِ شَرْعِيَّةِ الْقَرآنِ.

---

= فقد خلط بين المعنى اللغوي وهو يدل على علوم كثيرة، والمعنى الاصطلاحي وهو علم واحد،  
ألا ترى إلى قوله «هي». وهكذا استمر الخطأ ...



# **التفسير**

**حقيقة التفسير والفرق بينه وبين التأويل**

**نشأة التفسير وتطوره**

**تدوين التفسير**

**مذاهب التفسير وشروطه**

**المشتراك بين نوعي التفسير**

**شروط التفسير**

**التفسير العلمي والتفسير الإشاري**



## حقيقة التفسير والفرق بينه وبين التأويل:

قال الزركشي في (البرهان): «الْتَّفْسِيرُ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ فَهُمْ كَتَابُ اللَّهِ الْمَنْزَلُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبِيَانِ مَعَانِيهِ وَاسْتِخْرَاجِ أَحْكَامِهِ وَحُكْمِهِ؛ وَاسْتِمْدَادِ ذَلِكَ مِنْ عِلْمِ الْلُّغَةِ وَالنَّحْوِ وَالصَّرْفِ وَعِلْمِ الْبَيَانِ وَأَصْوَلِ الْفَقِيرِ وَالْقَرَاءَاتِ»<sup>(١)</sup>.

وَثَمَّةَ كَلْمَةً أُخْرَى كَثِيرًا مَا تُسْتَعْمَلُ فِي مَكَانِ التَّفْسِيرِ، وَهِيَ: «الْتَّأْوِيلُ». إِلَّا أَنَّهَا لَيْسَ مَرَادِفَةً لِلتَّفْسِيرِ بِمَعْنَاهُ الدَّقِيقِ، بَلْ هِيَ فِي الأَصْلِ تُخْتَلِفُ عَنْهُ اخْتِلَافًاً مَا، وَلَكِنْ كَثْرَةَ اسْتِعْمَالِهَا فِي مَكَانِ «الْتَّفْسِيرِ» جَعَلَهَا تُؤْدِي مَعْنَاهَا وَتَقْوِيمَ مَقَامِهَا.

قال الإمام النووي<sup>(٢)</sup> في بيان الفرق بينهما: «أَمَا الْتَّأْوِيلُ؛ فَقَالَ الْعُلَمَاءُ: هُوَ صِرْفُ الْكَلَامِ عَنْ ظَاهِرِهِ إِلَى وَجْهِ يَحْتَمِلُهُ. أَوْجَبَهُ بِرَهَانٌ قَطْعِيٌّ فِي الْقَطْعِيَاتِ، وَظَنِّيٌّ فِي الظَّنِّيَاتِ. وَقَيْلٌ: هُوَ التَّصْرِيفُ فِي الْلَّفْظِ بِمَا يَكْشِفُ عَنْ مَقْصُودِهِ. وَأَمَّا الْتَّفْسِيرُ: فَهُوَ بِيَانِ مَعْنَى الْلَّفْظَةِ الْقَرِيبَةِ أَوِ الْخَفِيَّةِ». أَقُولُ: وَلَعَلَّ هَذَا التَّفْرِيقُ أَصْحَّ مَا قَدْ قِيلَ فِي ذَلِكَ.

وَلَكِنَّ هَذَا الْفَرْقُ نَاظِرٌ إِلَى معْنَى كُلِّ مِنَ الْكَلْمَتَيْنِ مِنْ حِيثِ دَلَالَتَهَا الْلُّغُوِيَّةِ. أَمَا عِنْدَمَا تَصْبِحُ كَلْمَةُ «الْتَّفْسِيرِ» إِطْلَاقًا عَلَى عِلْمٍ مُعَيَّنٍ كَمَا ذَكَرْنَا، فَهِيَ تَتَسَعُ

<sup>(١)</sup> البرهان للزرکشي (١٣/٢).

<sup>(٢)</sup> في تحذيب الأسماء واللغات للنووي: (١٥/٣)، وانظر البرهان: (١٤٩/٢).

حينئذٍ لمعنى التّفسير والتّأويل، إذ الكلُّ يدخل تحت مدلول هذا العلم. وتبقى العلاقة حينئذٍ بين الكلمتين (العموم والخصوص المطلق) فكلُّ تأويلٍ تفسيرٌ، وليس كُلُّ تفسيرٍ تأويلاً.

**ولعلَكَ تَسْأَلُ فَتَقُولُ:** فإذا كان القرآن كتاباً مبيناً، وقد نزل إلى الناس ليقرؤوه فيفهموه، فينبعي أن يكون عنّياً عن التّفسير والمفسّرين؛ وينبعي أن يكون مفهوماً بذاته، لأنّ الله تعالى إنما يخاطب عباده بما يفهمونه، ففيه احتياج إلى تفسير؟

**فالجواب:** الحاجة إلى تفسير القرآن ليست بسبب أنّه كتاب مُبَهَّمٌ يحتاج إلى مفتاح له ومُترجم عنه وإنما الحاجة إليه من وجوده أخرى تُحملها فيما يلي:

**الوجه الأوّل:** أنّ القرآن جارٍ على أسلوبٍ يصحُّ أن يخاطب به طبقات الناس كلهم على اختلاف مداركهم وثقافاتهم - كما سنشرح ذلك فيما بعد - فهو يعطي كلاً، من معانيه وأحكامه قدر طاقته وما يتسع له فكره؛ فإذا أراد القارئ أن يستشف منه ما وراء ذلك وينتهي في سير أغواره إلى أكثر ما فهمه منه بطبيعته وفكره، فإنّ سبيله إلى ذلك الرّجوع إلى فهمٍ من هُمْ أوسع منه علماً وأغزر ثقافة وفهمًا ليُبصّروه بما وراء الذي انتهى عنته علمه من دلائله ومعانيه. فهذا وجه من وجوه الحاجة إلى التّفسير.

**الوجه الثاني:** أنّ القرآن - كما قال الزركشي - كلام متكلّم لم يصل الناس إلى مراده بالسماع منه، ولا إمكان للوصول إليه، بخلاف الأمثال والأشعار، فإنَّ الإنسان يمكن علمه بمراد المتكلّم بأنْ يسمع منه أو مِنْ سمع منه<sup>(١)</sup>.

---

<sup>(١)</sup> البرهان: (١٦/١).

ومن هنا تجد القرآن مُحاطاً بسورٍ من الرّهبة والجلال يمنع قارئه أنْ يُسرع فيقتَحِم إلَيْه بالشَّرِح والتَّفْسِيرِ كما يشرح الكتب الأخرى. وإنَّما الشَّأنُ أَنْ يتوسَّط إلى ذلك بما قد أثَرَ من تفسير النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ أو أثَرَ من تفسيرات الصَّحَابَةِ رضوان الله عليهم، فهو الذي أُوحِيَ إِلَيْهِ القرآنُ مُباشِرًا، وهو الذي أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنْ يَبِينَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ.

فهذا وجه ثانٍ في الحاجة إلى تفسيره والاطمئنان إلى حقيقة معانيه المُرادَة منه.

**الوجه الثالث:** إنَّ القرآنَ كتابٌ يحتوي بين دُفْتيه

- مبادئ العقيدة والتَّوْحِيدِ.
- كما يحوي مبادئ الشَّرِيعَةِ وأحكامِ الْحَالَلِ والْحَرَامِ.
- ويشمل التَّوجيهاتِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، ومبادئ التنظيماتِ الاجتماعيةِ.
- إلى جانبِ ما فيه من عِبَرِ الأُمُمِ الماضيةِ والإِخبارِ عن المغيباتِ ووجودِ النُّقاشِ والحجاجِ.

فلا جرمَ أَنَّهُ إِنَّما يتناولُ كُلَّ ذلك ويعالجه بأسلوبٍ من التَّركيز والاختصار يضمن للقارئ الفهم الموجز الكلّي من ناحيةٍ، ويحمله على البحثِ والدَّرِسِ والوقوفِ على تفصيلات ذلك من ناحيةٍ أخرى. فكانت الحاجة إلى تفسير القرآن من هذه الجهة استجابةً للغرض المتعلق بتفصيل موجزاته وشرح كلياتها.

**الوجه الرابع:** أَنَّ المعنى الذي يُرادُ بتفسيرِ القرآنِ - بعد كُلِّ هذا الذي ذكرناه - ليس متوقفاً على شرح الكلمة وترجمتها، وإنَّما هو يتعدَّى ذلك إلى

ووجهٍ وأنواعٍ من الاستنباطات المتعلقة بدقائق المباحث والعلوم، تختلف حسب اختلاف وجهة المفسر واحتياجه من عربية، وأصول فقه، وتوحيد، وكونيات. القرآن - كما قد علمت وستعلم - ذو دلالات متسلسلة لا تكاد تنتهي. وإنما سبيل الكشف عنها أو عن بعضها، بعکوف أرباب الاختصاصات عليه بالدرس والبحث والتفسير.

فهذه هي خلاصة الأسباب الداعية إلى تفسير القرآن وشرحه. وهي - كما رأيت - أسباب لا تتنافى مع كونه كتاباً عربياً غير ذي عوج، ولا تتعارض مع ما هو مقرر ثابت من أنَّ الله إِنَّمَا يُخاطِبُ عباده بما يفهمون.

#### نشأة التفسير وتطوره:

نشأ علم التفسير في صدر الإسلام، في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن لم يكن يسمى حينئذ علمًا. وذلك هو الشأن في سائر العلوم الإسلامية - تقريباً - نشأت حقائقها في صدر الإسلام، وتكونت أغلقتها فيما بعد. ومعلوم أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أول من مارس التفسير وعلمه للناس، إذ كان هو المصدر الأول لفهم الكتاب وتبيينه. ولا بد أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه سائر معاني الكتاب كما بين لهم ألفاظه وطريقه تلاوته<sup>(١)</sup>.

#### التفسير زمن الصحابة:

أما الصحابة، فهم الطبقة الأولى في تاريخ علماء التفسير، وهم الأساس والأصل اللذان قامت عليهما نشأة علم التفسير.

<sup>(١)</sup> انظر الإتقان للسيوطى: (١٧٨/٢).

غير أنَّ الصَّحَابَةَ لِيُسُوا كُلَّهُمْ فِي مَسْتَوِيٍ وَاحِدٍ مِنَ الْعِلْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى  
وَالوُقُوفِ عَلَى تَفْسِيرِهِ، وَإِنَّمَا هُنَاكَ نَخْبَةٌ امْتَازَتْ وَاشْتَهَرَتْ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ  
الصَّحَابَةِ بِهَذَا الْعِلْمِ.

#### أشهُرُ الْمُفْسِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ:

مِنْهُمُ الْخَلْفَاءُ الرَّاشِدُونَ الْأَرْبَعَةُ، وَابْنُ مُسْعُودٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَأَبْيُونَ بْنَ كَعْبٍ،  
وَزَيْدَ بْنَ ثَابَتَ، وَأَبْوَ مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الرَّبِيعِ، وَأَنْسَ بْنَ مَالِكَ، وَأَبْوَ  
هَرِيرَةَ، وَجَابِرَ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ رَضِوانَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ<sup>(١)</sup>.  
وَلَقَدْ كَانَ أَكْثُرُ هَؤُلَاءِ رِوَايَةً لِلتَّفْسِيرِ أَكْثَرُهُمْ تَعْمِيرًا وَأَطْوَلُهُمْ حِيَاةً، فَمَنْ أَجْلَى  
ذَلِكَ كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (ت: ٦٨ هـ) فِي مَقْدِمَةِ مِنْ اشْتَهَرَ مِنْ  
الصَّحَابَةِ بِالتَّفْسِيرِ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ فِي التَّفْسِيرِ مَا لَا يَكُادُ يُحْصَى كُثْرَةً، وَقَدْ  
سَمِّيَ ابْنُ مُسْعُودٍ (تَرْجِمَانُ الْقُرْآنِ).

وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تَجَدُّدُ الْخَلْفَاءِ الْثَّلَاثَ: أَبَا بَكْرَ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ أَقْلَى الَّذِينَ  
ذَكَرْنَا هُنَّا رِوَايَةً لَهُ بِسَبِيلِ تَقْدِيمِ وَفَاتِهِمْ، وَلَعِلَّهُ بِسَبِيلِ أَعْبَاءِ الْخِلَافَةِ أَيْضًا<sup>(٢)</sup>.  
وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ التَّفْسِيرَ إِنَّمَا كَانَ عِنْدَ هَذِهِ الطَّبَقَةِ رِوَايَةً وَأَدَاءً بِالنُّطُقِ  
وَالْمَشَافِهَةِ فَقَطَّ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْهُ يُكَتَبَ عَلَى عَهْدِهِمْ، كَمَا لَمْ يُكَتَبْ أَيُّ عِلْمٍ  
آخَرَ اللَّهُمَّ إِلَّا الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ.

#### التَّفْسِيرُ فِي عَهْدِ التَّابِعِينَ:

ثُمَّ تَأْتِي (الْطَّبَقَةُ الثَّانِيَةُ) مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ، وَهِيَ طَبَقَةُ التَّابِعِينَ، وَقَدْ نَبَغَ  
مِنْهُمْ فِي التَّفْسِيرِ ثَلَاثُ طَوَافَاتٍ:

<sup>(١)</sup> انظر كشف الظنون : (١/١٧٨).

<sup>(٢)</sup> انظر كشف الظنون : (٤/٢٩٨)، والإتقان : (٢/١٨٧)، وتفسير ابن كثير : (١/٤).

## **الطائفة الأولى:**

وهم أصحاب عبد الله بن عباس، من علماء مكة المكرمة، أشهرهم:

مجاهدُ بْنُ جَبِيرٍ (ت: ٣٠١هـ).

وسعيدُ بْنُ جَبِيرٍ (ت: ٤٩٥هـ).

وعكرمةُ مولى ابن عباس (ت: ٥٠١هـ).

وطاوسُ بن كَيْسَان (ت: ٦١٠هـ).

وعطاءُ بْنُ أَبِي رِبَاح (ت: ١٤١١هـ).

وهذه الطائفة تُعدُّ من أعلم الناس بالتفصير في عصر التابعين، وفي مقدمتهم

مجاهدُ بْنُ جَبِيرٍ، نقل النَّوْوَيُّ عنه أَنَّهُ قَالَ: «عَرَضْتُ الْقُرْآنَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ثَلَاثَيْنَ مَرَّةً»، وَقَالَ: «كَانَ أَعْلَمُهُمْ بِالتَّفْصِيرِ مجاهد»<sup>(١)</sup>.

## **الطائفة الثانية:**

وهم أصحاب عبد الله بن مسعودٍ، من علماء الكوفة، فمنهم:

علقمةُ بْنُ قَيْسِ النَّخْعَنِيُّ (ت: ٢٠١هـ).

والأسودُ بْنُ يَزِيدَ النَّخْعَنِيُّ (ت: ٧٥٥هـ).

وإبراهيمُ بْنُ يَزِيدَ النَّخْعَنِيُّ (ت: ٩٥٥هـ).

وعامرُ بْنُ شراحيل الشعبي (ت: ٣٠١هـ).

## **الطائفة الثالثة:**

وهم أصحاب أنسٍ بن مالكٍ وغيره، فمنهم:

<sup>(١)</sup> تَحْذِيفُ الْأَسْمَاءِ وَالْلُّغَاتِ: (٢/٨٣)، وَانْظُرْ إِلَيْهِ: (٢/١٨٩)، وَكَشْفُ الظُّنُونِ:

.(١/٩٩٢).

زيد بن أسلم (ت: ١٣٦هـ).

وقادة بن دعامة السدوسي (ت: ١١٧هـ).

والحسن بن يسار البصري (ت: ١١٠هـ).

وعطاء بن أبي سلمة (ت: ١٣٥هـ).

ومحمد بن كعب الفرضي (ت: ١٧٥هـ).

فهذه الطوائف الثلاث، هي التي تكون الطبقة الثانية من علماء التفسير. وإنما كان علم التفسير عند هؤلاء؛ الرواية عن الصحابة. فكانوا يرثون عنهم التفسير إلى جانب ما يرثونه من الحديث والفقه، ولكنهم اشتهروا بميزان من العناية بتفسير كتاب الله، ولا سيما بعضًا منهم مثل مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن البصري.

غير أنَّ عمل هذه الطبقة يتماًز عن عمل الصحابة بظهور الكتابة والتلويين عند بعضهم، وقد كان في مقدمة من قام بذلك (مجاهد بن جبر) من أصحاب ابن عباس رضي الله عنهما، فقد روى ابن حجر عن أبي ملائكة قال:رأيت مجاهداً سأله ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه الواحده. قال: فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كلّه<sup>(١)</sup>.

وهي وإن كانت كتابة جزئية لم تبلغ درجة التأليف بمعناه المألوف إلا أنها مهدت ذلك لأرباب الطبقة الثالثة الذين عكفوا على تصنيف كتب التفاسير.

---

<sup>(١)</sup> تفسير ابن حجر: (٣٠/١).

## تدوين التفسير:

أمّا الطبقةُ الثالثة فقد قامَ علماؤها بتألِيفٍ تفاسيرٍ واسعةٍ تجمعُ ما انتهى إليهم من أقوالِ الصَّحابةِ والتابعينَ من مثلِ:

– تفسير سفيان بن عيينة المكيّ: (ت: ١٩٨هـ).

– تفسير وكيع بن الجراح الرؤاسيّ (ت: ١٩٧هـ).

– تفسير شعبة بن الحجاج العنكبيّ (ت: ١٦٠هـ) وغيرهم؛ وهم كثير.

ثم جاء في أعقابهم:

– شيخُ المفسّرين الإمام الفقيه المحدثُ محمدُ بنُ جريرٍ الطبريُّ (ت: ٣١٣هـ) فجمعَ أشتات هذه التفاسير وقربَ منها البعيد.

– والإمام الحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت: ٢٧١هـ). وغيرهما.

وكلُّهُمْ مُتّقِنٌ مأجورٌ فجزاهُم اللهُ خيراً – كما يقول الزركشي<sup>(١)</sup>.

وتفسير ابن جرير (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، تفسير عظيم جمع فيه المأثور بالسند وميز بين الصحيح منه وغيره، وأصبحَ مُستنداً هاماً لسائر المفسّرين من بعده.

ولقد امتاز عمل هذه الطبقة من المفسّرين بما يلي:

**أولاً - جمعوا** ما انتهى إليهم من أقوالِ الصَّحابةِ والتابعينَ في تفسير آيات القرآن، في مؤلفاتٍ منسقةٍ ينتظم فيها تفسيرُ جميعِ آيِ القرآن بترتيبها المعروف، وبذلك تم ظهور هذا الفن العظيم في مؤلفاتٍ ومصنفاتٍ جامدة.

<sup>(١)</sup> انظر البرهان: (٢/١٥٩).

**ثانياً - ضبطوا الرواية عن الصحابة**، فقد بحثوا في حال التابعين الذين نقلوا إليهم أقوال الصحابة في القرآن، فاعتمدوا منهم من توفرت لديهم شروط الرواية وأمارات الثقة وأهملوا الآخرين، وذلك لـما اندسَ في صفوهم من الدخاء المستتر بين بلباسِ العلم والإسلام، نمثّل لذلك بطرق الرواية عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

#### طرق رواية التفسير عن ابن عباسٍ:

- قام ابنُ حريرٍ وابنُ أبي حاتمٍ ومن صنفَ التفسير في هذه المرحلة باعتماد أسانيد وطرق لرواية التفسير عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما فـ
- اعتمدوا مثلاً طريق علي بن أبي طلحة الماشمي (ت: ١٤٣هـ)، لأنها كانت أصح الطرق عنه، واعتمد عليها البخاري في صحيحه.
  - وأهملوا بالمقابل طريق محمدٍ بن السائب الكلبي (ت: ١٣٦هـ) عن أبي صالح مولى أم هانئ (ت: ٢٢٣هـ) عن ابن عباسٍ، وقالوا: فإن انضم إلينهما محمدٌ بن مروانَ السدي (ت: ١٨٦هـ) فهي سلسلة الكذب<sup>(١)</sup>.

**ثالثاً - أضافوا إلى ما نقلوه عن الصحابة والتابعين زياداتٍ واستنباطات توسعوا فيها، فمنها ما يتعلّق بالعربيّة، ومنها ما يتعلّق بالقراءات، ومنها ما يتعلّق بالفقه وأحكام الحلال والحرام، ملتزمين في ذلك قواعد التفسير وشروطه التي ستحدث عنها فيما بعد إن شاء الله.**

ولعلّ أهم هذه الأعمال الثلاثة، هو ضبطُ الأسانيد والروايات وخلوها بذلك المنخل العلمي العظيم الذي لا ولن يملك مثله لدى البحث العلمي غير

<sup>(١)</sup> انظر الإتقان للسيوطى: (١٧٨/٢)، وكشف الظنون: (٢٩٩/١).

المسلمين، وأئِنَّ لِلآخرين أَن يرتفعوا فِيمَا يرْعُمُونه مِن البحث العلمي إِلَى هَذَا المستوى، وَإِنَّمَا بحوثهم العلمية كُلُّها تَقْوِيمٌ عَلَى أَسَاسٍ (الاستنتاج) وَيَا لَهُ مِن أَسَاسٍ عَلَمِيٍّ مُتِينٌ؛ ذَاك الَّذِي يَقْتَنِصُ حَقَائِقَ الْعِلْمِ وَسَطْ دُخَانَ الْأَهْوَاءِ وَفِي سَبَحَاتِ الْخَيَالِ !!

ولقد كَانَ عِلْمُ التَّفْسِيرِ خَلَالَ هَذِهِ الْمَرَاحِلِ التَّلَاثِ يَضْمُنُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِفَهْمِ الْقُرْآنِ وَكَشْفِ أَسْرَارِهِ وَغُوَامِضِهِ، مِنْ (قراءاتٍ، وَأَسْبَابِ نَزُولٍ، وَنَاسِخٍ وَمَنْسُوخٍ، وَمُتَشَابِهٍ) إِذْ كَانَ الْحَدِيثُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ دَاخِلًا فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ.

فَلَمَّا توَسَّعَتِ الْاِختِصَاصَاتُ الْعَلَمِيَّةُ، وَظَهَرَ الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ اخْتَصُّوْا - بَعْدَ كَفَائِيَّتِهِمُ الْعَلَمِيَّةِ - بِالْفَقْهِ، وَالَّذِينَ اخْتَصُّوْا بِعِلْمِ الْكَلَامِ، وَالَّذِينَ انْصَرَفُوا إِلَى عِلْمِ الْقَرَاءَاتِ وَهُلْمَ جَرًّا - أَخْذَ كُلُّ مِنْ أَرْبَابِ الْاِختِصَاصِ يَتَنَاهُو مِنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ مَا يَتَعَلَّقُ بِاِختِصَاصِهِ فِي فِرْدَهِ بِالْبَحْثِ وَالْتَّأْلِيفِ.

- وَهَكُذا انْفَصَلَ بَحْثُ القراءاتِ مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ، لَمَّا أَفْرَدَ الْقُرَاءُ التَّأْلِيفَ فِيهِ، فَأَصْبَحَ عَلِمًا مُشْتَقًا مِنْ التَّفْسِيرِ.

- وَانْفَصَلَ عَنْهُ مَبْحَثُ أَسْبَابِ النَّزُولِ وَأَفْرَدَ بِمَؤَلَّفَاتِ.

- وَانْفَصَلَ النَّاسِخُ وَالْمَنْسُوخُ، لَمَّا أَفْرَدَ فِيهِ عُلَمَاءُ الْفَقْهِ وَالْأَصْوَلِ وَالْبَحْثِ وَالْتَّأْلِيفِ.

- وَانْفَصَلتِ عَنْهُ مَبَاحِثُ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ مَا عَنِ النُّحَاةِ بِإِفْرَادِ التَّصَانِيفِ فِي ذَلِكَ.

وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ وَحْدَهَا ثَمَرَةً ظَهُورِ الْاِختِصَاصَاتِ الْعَلَمِيَّةِ، بَلْ ثَمَرَةً ثَمَرَةً. فَلَقَدْ أَخْذَتِ كُتُبُ التَّفْسِيرِ تَجَهُّزَهُ فِيمَا بَعْدَ - مِنْ حِيثِ الْعِنَايَةِ وَالْاِهْتِمَامِ

- وجْهَةُ اِختِصَاصِ الْمُؤَلِّفِ:

فقد أَلْف علماء العَرَبِيَّةِ في تفسير القرآن، ليخدموا بذلك فنهم، فكان  
عملهم يتركز على إبراز بلاغته العَرَبِيَّةِ وإعجازه الْغُوْيِّ، من ذلك:

- تفسير (الكَشَاف عن حِقَائِقِ التَّنْزِيلِ) لجَارِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ الزَّخْشَرِيِّ  
(ت: ٥٣٨هـ).

- وتفسير (البَحْرُ الْمُحِيطُ) لِأَبِي حَيَّانَ الْأَنْدَلُسِيِّ (ت: ٧٤٥هـ).

- وتفسير (إِرشادُ الْعُقْلِ السَّلِيمِ إِلَى مَزاِيَا الْكِتَابِ الْكَرِيمِ) لِأَبِي السُّعُودِ مُحَمَّدِ  
الْعَمَادِيِّ (ت: ٨٣٩هـ).

وَأَلْفُ عَلَمَاءِ الْفَقِهِ فيه أيضًا؛ ليستجلوا منه أحكام الحلال والحرام، فكان  
عملهم منصباً منه على هذا الجانب أكثر من غيره، كـ:

- (الجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ) للقرطبيِّ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ الْخَزْرَجِيِّ (ت: ٦٧١).

- (أَحْكَامُ الْقُرْآنِ) لِأَبِي بَكْرِ ابْنِ الْعَرَبِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمَعَافِرِيِّ (ت:  
٥٤٣)، واقتصر في تفسيره على تفسير آيات الأحكام فقط.

وَأَلْفُ فِيهِ عَلَمَاءِ التَّوْحِيدِ وَالْكَلَامِ، ليستخرجوا منه دلائل التوحيد وفروعه  
ومتعلقاته، فلم يعنوا منه العناية التامة إلا بهذا الجانب دفاعاً عن العقيدة  
الإسلامية وتحليلاً لأمرها، كالأمام فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦) في تفسيره:  
(مفآتِيحُ الْغَيْبِ).

فهذه خلاصة كافية عن نشأة علم التَّفْسِيرِ وتطوره.

### مذاهب التفسير وشروطه:

اتَّخذَت مذاهب المفسرين في تفسير كلام الله عز وجل أحد مذهبين:  
**الأَوَّلُ**: التزام الوارد في تفسير الآية عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو عن  
الصَّحَّابةِ أو التابعين، دون سوق أي زيادة على ذلك، اللهم إِلَّا أن تكون شرحاً

لغويًّا لِكَلْمَةٍ، أو كُشْفًا عن إعرابِ جملةٍ، أو نحو ذلك، وقد أطلق على هذا المسلك فيما بعد اسم «التَّفْسِيرُ بِالْمَأْثُورِ».

ومن أشهر كتب التفسير بالمؤثر:

- ١ - تفسير الطبرى، وقد مررت الإشارة إليه قریباً.
- ٢ - تفسير القرآن العظيم: للإمام عماد الدين إسماعيل بن عمرو ابن كثير الدمشقى، (ت: ٧٧٤ هـ) وقد وصف ابن كثير بـ«أنه منّجع التَّفْسِيرِ»، ويعتاز تفسيره بحسن الانتقاء، مع نقدٍ للمرويات فيميز الصَّحيح من الضعيف.
- ٣ - لباب التأويل في معانى التنزيل: المعروف بـ(تفسير الخازن) لأبي الحسن علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي<sup>(١)</sup>، يكثر من التفسير المؤثر، وتظهر في هذا التفسير العناية بتخريج الأحاديث النبوية من الصحيحين والسنن الأربع وغیرها، وشرح غريب الأحاديث التي يوردها.

الثاني: عدم الاقتصار على ذلك، بأن يتجاوز المفسر حدود الوارد والمأثور في تفسير الآية، إلى استنباطاته الخاصة من دلائل الصيغة أو قواعد العلوم، إذا كان اللفظ قابلاً لحمل المعنى المستربط، وقد تكون هذه المعانى المستنبطة مباحث من علوم وفنون مختلفة غير التي تدلُّ عليها الآية من قريبٍ.

وقد أطلق على هذا المسلك فيما بعد اسم «التَّفْسِيرُ بِالْوَأْيِ». ومن كتب هذا المسلك، التفاسير التي مررت الإشارة إليه قریباً: (مفاتيح الغيب) للرازى، تفسير (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) لأبي السعود

---

<sup>(١)</sup> وُعِرِفَ بـ(الخازن)، لأنَّهَ كان خازنَ كتب خانقاه السُّمِيساطيَّةِ بدمشق.

العمادي، و(الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي، و(البحر المحيط) لأبي حيان، وأحكام القرآن) لابن العربي. ومنها أيضاً:

- تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) للإمام عبد الله بن عمر البيضاوي (ت: ٦٨٥ هـ): وهو تفسير متوسط الحجم، جمع التفسير والتأويل، وقرر فيه الأدلة على أصول أهل السنة.

- تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) لعبد الله بن أحمد بن محمود النسفي الحنفي، (ت: ٧٠١ هـ): جمع فيه بين وجوه الإعراب والقراءات، عني بكشف وجوه البلاغة وأساليب الأداء في القرآن، وعند آيات الأحكام يعرض للمذاهب الفقهية التي لها تعلق وارتباط، كل بدون توسيع، أو إطناب، فهو موجز العبارة سهل المأخذ غزير الفائدة.

### المشتراك بين نوعي التفسير:

لا يذهب بك الوهم إلى أن أصحاب التفسير بالرأي يستبدلون بالرواية والأحاديث الثابتة في تفسير الآية رأياً أو حكماً من عند أنفسهم، فهذا مما لا يُقدِّم عليه مسلم وهو عمل محظوظ بالاتفاق.

بل الحقيقة أن ثمة قدرًا مشتركاً بين أصحاب التفسير بالتأثر والتفسير بالرأي، وهو الأخذ بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن الصحابة (على الصحيح الذي يعتبر قول الصحابي في التفسير في حكم المرفوع) في تفسير الآية. ثم يفترقان بعد ذلك:

فصاحب (التفسير بالتأثر) لا يزيد على ذلك إلا أن يعزز النقل بنقولٍ أخرى مثلها أو مخالفتها لها ليجمع بينهما.

وصاحب (*التفسير بالرأي*) يُحِيز لنفسه أنْ يزيد على ذلِك من اجتهاداتِه واستنباطاته المختلفة بقدرِ ما تسمح به دلالَةُ اللفظِ.

### شروط التفسير:

إنَّ الذي يجمع بين طرقي التفسير بالمؤثر والتفسير بالرأي (*شروط أربعة*) لا بدَّ من مُراعاتها لكلٍّ من حاولَ أنْ يُفسِّر شيئاً مِنْ كتابِ الله تعالى أياً كانَ مسلكه و منهجه في ذلك:

**(الشرط الأول):** التزام القول بما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك، إذا كان فيه حديث ثابت صحيح؛ قالوا: ولكن ينبغي الحذر من الواقع في الصُّعبِ والمَوْضِعِ أَيْضاً، وقد بيَّنَ العلماء ذلك ومِيزوه.

وقال ابنُ حِيرٍ ما خلاصته: ومصدرُ هذا الوجوب أنَّا نقطعُ أنَّ في القرآنِ ما لا تُدركُ معناه إلَّا ببيانِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا إِلَيْكَ الْذِكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، مثال ذلك جميع الآياتِ المتعلقة بـ(*الأوامر والنَّواهي والإرشادات*)، مما يتوقفُ فهمُه على معرفةِ نوع النَّهْيِ والأمرِ فيه، ومبَلغ فرائضه وقدرها وحدودها وشروطها وقيودها، وهذا وجَه لا يجوز لأحد القول فيه إلَّا ببيانِ رسول الله صلى الله عليه وسلم أو إقراره لأحدٍ من الصَّحابة<sup>(١)</sup>.

وعلى هذا المعنى يُنَزَّل ما وردَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلَيَبْتَوَأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»<sup>(٢)</sup>.

<sup>(١)</sup> ينظر تفسير ابن حِيرٍ: (٢٥/١).

<sup>(٢)</sup> أخرجه الترمذى في تفسير القرآن، بابُ ما جاءَ في الَّذِي يُفَسِّرُ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِ (٢٩٥١).

وما روي عن أبي بكرٍ رضي الله عنه أنه قال: «أَيُّ سَمَاءٍ تُظْلِنِي، أَوْ أَيُّ أَرْضٍ تُقْلِنِي إِنْ أَنَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ؟»<sup>(١)</sup>.

(الشرط الثاني) التزام الأخذ بقول الصحابة إذا كان قد أثر عنهم في ذلك قول. وهذا ما ذهب إليه الأكثرون من أن تفسير الصحابة للقرآن يعتبر في حكم المروء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك لأنّه ليس من قبيل الرأي وإنما هو في الحقيقة من قبيل الرواية.

(الشرط الثالث) التزام قواعد اللغة العربية وضوابطها ومقاييسها في التفسير: فإن القرآن نزل بلسانٍ عربيٍّ مبين، وإنما تفسّره الدلالات اللغوية والقواعد العربية، فمن لم يكن ذا بصيرة سليمةٍ في فهّم العربية فليس له أن يفسّر شيئاً من كتاب الله عزّ وجلّ، يقول الإمام مالك بن أنسٍ رحمه الله: «لا أوّتى برجلٍ غير عالمٍ بلغاتِ العربِ، يُفسّرُ كتابَ الله تعالى، إِلّا جعلته نكالاً»<sup>(٢)</sup>.

(الشرط الرابع) التزام المقتضى الذي يدل عليه العلم بكتاب الله تعالى، والتزام أصول الشرع وقواعده في الفهم والاستنباط والاجتهاد، ك(المفهوم، والفحوى، ودلالة العام والخاص، والمطلق والمقيّد...)، وهي في مجموعها إنّما تعتبر ملكةً علميّةً تؤهل صاحبها لاستنباط المعانى والأحكام من كتاب الله عزّ وجلّ.

<sup>(١)</sup> فضائل القرآن للقاسم بن سلام (ص: ٣٧٥).

<sup>(٢)</sup> البيهقي في شعب الإيمان، فصل في ترك التفسير بالظنّ (٢٠٩٠).

فليس من ضيرٍ - بعد أن يتلزم المفسّر الشروط الثلاثة الأولى - في أنْ يستنبطَ مزيداً من التّفسيرِ للاية بدلالة المقتضى والقواعد العلمية التي ترسّخ في معرفتها وتذوقها.

واستنباط المعنى من الآية بهذه الوسيلة، هو الذي دعا به النّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباس حينما قال: «اللَّهُمَّ فَقِهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِمْهُ التَّأْوِيلَ» وهو المقصود بما قاله عليٌّ رضي الله عنه عندما سُئلَ: هل خصّكم رسول الله بشيء؟ فقال: ما عندنا غير ما في هذه الصحيفة أو فهم يؤتاه الرجل (رواه البخاري). ولكن لا يجوز تفسير القرآن - على كُلِّ حالٍ - بِمُحَرَّدِ الرَّأْيِ والاجتهاد من غير أصلٍ يستند إليه، فهو أشبه بحالٍ من لم تكن عنده أي بصيرة فقهية وهو يزعم أنَّه يجتهدُ في استنباطِ أحكامِ الفقيهِ، ففي حَقٍّ مثلِ هذا قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَبْتَوَأْ مَفْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»<sup>(١)</sup> وقال: «مَنْ قَالَ فِي كِتَابِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ، فَقَدْ أَخْطَأَ»<sup>(٢)</sup>. قال البيهقي<sup>(٣)</sup>: هذا إِنْ صَحَّ، فَإِنَّمَا أَرَادَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - الرَّأْيَ الذي يغلبُ من غير دليلٍ قام عليه، فمثل هذا لا يجوز تفسير القرآن<sup>(٤)</sup>.

<sup>(١)</sup> أخرجه الترمذى في التفسير، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، (٢٩٥١) و(٢٩٥٢) وأخرجه أحمد في المسند (٢٠٦٩).

<sup>(٢)</sup> أخرجه الترمذى في التفسير، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، (٢٩٥٣)، وأبو داود في العلم، باب الكلام في كتاب الله بغير علم، (٣٦٥٢).

<sup>(٣)</sup> في شعب الإيمان (٥٤٦/٣).

<sup>(٤)</sup> هذه الشروط ذكرها الزركشى في البرهان: (١٥٦/١) والصفحات التي تليه، ونقلها السيوطي في كتابه الإتقان: (١٧٨/٢). وقد عرضناها بالآفاظ مختلفة ، قصدًا لزيادة الإيضاح.

فهذه الشروط لا بد من التزامها سواء بالنسبة لمن يفسر القرآن بالتأثير ولمن يفسر بالرأي.

وبذلك تعلم أنه لا خلاف بين هذين المنهجين في التفسير من حيث نقد أصحاب أحدهما على الآخرين، وإنما هو مجرد اختيار للطريقة، وما دامت الشروط متوفرة فلا ضير.

### التفسير العلمي والتفسير الإشاري:

ونختم حديثنا عن التفسير ببيان أن ما يسلكه بعض الناس اليوم من تفسير الآيات الكونية في كتاب الله تعالى طبق نظريات وآراء علمية، لا دلالة في الآية عليها بميزانها اللغوي وحسب القواعد العلمية للتفسير، بل هو من قبيل التفسير الفاسد الذي يتبع فيه المفسر رأيه المجرد.

ومثله ما يسمى بالتفسير الإشاري أو الباطني الذي تنتهيجه بعض الفرق الباطنية أو المنحرفون من المتصوفة؛ ويسير وراءهم في ذلك طائفة أخرى من الناس، هان عليهم القرآن وفرغت قلوبهم من الشعور بجلاله وهيبته، فاقتربوا إليه بالتنسir والتّأویل، طبقاً لما تهواه أنفسهم وتستدعيه عصبياتهم وأحیائهم، وهم عن الشروط والضوابط التي ذكرناها، معرضون وغافلون.

فالقرآن عند هؤلاء الناس ليس أكثر من خادم لتأييد آرائهم ومذاهبهم وأحيلتهم!.. لهم أن يختاروا ما يشاؤون من المذاهب والأراء والتصورات في حق أنفسهم ومصيرهم والكون الذي من حولهم، وعلى القرآن أن يكون طوع آرائهم والخادم الأمين لتصوراتهم وأفكارهم، ولا ضير أن يُحرر القرآن إلى ذلك حراً، خارج حدود اللغة وضوابطها والحقيقة ومحازها!!!

فإذا كانت تصوراتكم وقناعاتكم النَّفْسِيَّة تقضي بأنَّ عذابَ الكافرين يوم القيمة مجرَّد شعورٍ معنويٍّ بعُثُر الشُّعُور بالندامة والخزي، فما أيسَرَ عليهم أن يشطبوا على كلِّ الآياتِ القرآنيَّةِ الصَّريحة ذات الدلالة القاطعة المؤكدة بأنَّه عذابٌ جسديٌّ ومعنويٌّ معاً، وأنَّ لهذا العذاب أدوات ووسائل مادية محسوسة. فإنَّ المهم ما توحِي به تصوراتكم وأوهامهم لا ما يقرِّره كتاب رحْمَة.

قلت لواحدٍ من هؤلاء: إنَّكُم تزعمون أنَّ الشُّعُور بالخزي هو مصدرٌ لعذابِ الكافرين يوم القيمة، ولكنَّ القرآن يقول صراحةً نقِيض ما تزعمون، إذ هو يقرِّر أنَّ الخزي فرعٌ عن دخولهم النار، ألا ترى إلى قوله عزَّ وجلَّ وهو يعلَّمنا كيف ندعوه ونلحُّ إلينه: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ۱۹۲] ثمَّ ما علاقة الشُّعُور بالخزي المعنوي بالجلود التي تنضج من شدَّةِ العذاب فييدلها الله جلوداً أخرى ليستمر العذاب ... وهو ما يقرِّره القرآنُ بعبارةٍ صريحةٍ وقاطعةٍ؟!..

ورأَيْتُ الرَّجُلَ يذهبُ في الاعتدادِ برأْيِه وتصوُّراتِه، مَذْهَبًا يجعله غير مبالٍ بكلِّ ما ي قوله القرآنُ حِلَافًا لتصوُّراتِه!.. ونحن لا نشكُ أنَّ هؤلاء إنَّما يعبدون أفكارَهم وقناعاتِهم، تلك هي الحقيقة مهما جاءت مغلفةً ومقنَّعةً.

والملهم أنَّ تكونَ أيُّها القارئ على حذرٍ من أنْ تسري إليك عدوى تأليهِ الأفكار والقناعات الذَّاتِيَّة، فتكوَن بذلك مِنْ قالَ اللهُ عنهم: ﴿أَرَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هُوَاهُ ...﴾ [الفرقان: ۴۳].

واجعلَ عونَك في هذا الحذر تَذَكَّر الشُّرُوطُ والضَّوابطُ التي تحدَّثنا عنها لتفسيِّر القرآن.

ثُمَّ اجْعَلْ قَدْوَتِكَ فِي ذَلِكَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْتَّابِعِينَ  
الَّذِينَ جَاءُوا عَلَىٰ أَئْرَهُمْ، وَتَأْمَلْ كِيفَ كَانُوا فِي غَايَةِ الْأَدْبِ مَعَ كِتَابِ اللَّهِ وَالتَّوْقِيرِ  
لَهُ، وَكِيفَ كَانُوا يَجْعَلُونَ نَصْوَصَ الْقُرْآنِ حَاكِمَةً عَلَىٰ آرَائِهِمْ وَتَصْوِرَاتِهِمْ، عَلَىٰ  
نَقْيَضِ مَا يَفْعَلُهُ هُؤُلَاءِ الَّذِينَ خَلَفُوا مِنْ بَعْدِهِمْ.

نَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَحْرِرَنَا مِنْ أَهْوَانِنَا وَرَعْوَانَاتِنَا  
وَأَنْ يَجْعَلَنَا عَبِيدًا صَادِقِينَ لَهُ، لَا نَرُوغُ عَنْ أَمْرِهِ وَلَا نَتَلَاعِبُ بِبِيَانَاتِهِ  
وَأَحْكَامِهِ.



المكي والمدني

تمهيد

تعريف المكي والمدني

خصائص كلّ منها

الفائدة من معرفة هذا العلم



## **تمهيد:**

ينقسم القرآن في مجموعه إلى (مكيٌّ ومدنيٌّ)، وقد عني العلماء والرواة عنайه كُبرى بتمييز هذين القسمين عن بعضهما واستخراج خصائص كلٍّ منهما، لما يترتب على ذلك من الفوائد التشريعية والتاريخية التي ستعلمتها فيما بعد، بل لقد عني الرواة والباحثون بتصنيف القرآن إلى ما نزل منه في النهار، وما نزل منه في الليل، وإلى مانزل في الحضر، وما نزل منه في الأسفار.

ونحن لن نتناول في هذه العجالة حديث الليلي والنهاري، أو الحضري والسافري من القرآن، لأننا نرى أن فائدة ذلك - في هذا المقام - فائدة جزئية ضعيفة، وإن كان البحث فيه ينبعنا إلى مدى اهتمام العلماء والرواة بالقرآن وإلى مدى خدمتهم ودراستهم له من شتى الجوانب المختلفة.

## **تعريف المكي والمدني:**

للعلماء ثلاثة اصطلاحات في تعريف كلٍّ من المكي والمدني:

أحدها: أن المكي هو كل ما نزل بمكة والمدني ما نزل بالمدينة، سواء كان ذلك قبل الهجرة أو بعدها. فالاعتبار على هذا الاصطلاح للمكان وحده.

والثاني: أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة. فالاعتبار على هذا للموضوع وحده.

والثالث: أن المكي ما نزل من قبل الهجرة والمدني ما نزل من بعد الهجرة، دون النظر إلى مكان التزول بالذات. والاعتبار على هذا للزمان وحده.

وهذا الاصطلاح الثالث هو أشهر وأصح ما قيل في هذا الموضوع.

وبناءً على ذلك:

فإنَّ كُلَّ ما نزل من القرآنِ من قبل هجرته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى المدينةِ يُسمَّى مكِيًّا، سواء نزل في مكة أو في الطائف أو في أي جهة أخرى. وكل ما نزل بعد الهجرة فهو مدني، سواء نزل بالمدينة أو في الأسفار والغزوات، أو في مكة في عام الفتح، أو حجَّة الوداع. وقد تجد في القرآن سورةً نزلت كلها من قبل الهجرة، كsurah ق» و«هود» و«يوسف».

وقد تجد فيه سورةً نزلت كلها بعد الهجرة، كsurah البقرة» و«آل عمران». وقد تجد فيه سورةً كلها مكيةٌ إِلَّا بضع آيات منها، نزلت بعد الهجرة كsurah الأنعام»، كلها مكيةٌ إِلَّا ست آيات منها فهي مدنية نزلت بعد الهجرة. وقد تجد سورةً كل آياتها مدنيةٌ إِلَّا بعض آيات منها فهي مكية، كsurah الأنفال» و«التوبه».

**ولعلك تسأل:** فكيف تنسَّى للعلماء أنْ يعرفوا تفصيل هذا الأمر، وكيف أمكنهم أن يعلموا أنَّ هذه الآية نزلت في مكة والأخرى بالمدينة، وأنَّ هذه نزلت في الليل وتلك نزلت في النهار؟

**والجواب:** أنَّ سبِيل معرفة ذلك إِنَّما هي الرواية الصحيحة الصادقة، وهي السبيل ذاتها التي وقف بها العلماء على تفسير القرآن بـ(المأثور)، كما مرّ بيانه. وما سهل للعلماء ذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم عنوا بالقرآن عنايةً فائقةً عجيبةً، فكانوا يؤرّخون كلَّ آيةٍ بوقت نزولها ومكانتها، وربما اتخذوا من الأماكن والجبال والمواoz التي يعلموها، أمّا كِنْ ذكرى، بسببِ آيةٍ أو آياتٍ من القرآن قد نزلت فيها على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أَنْزَلْتُ، وَلَا أَنْزَلْتُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أَنْزَلْتُ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمُ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ، تُبَلِّغُهُ إِلَيْهِ لَرَكِبُتُ إِلَيْهِ»<sup>(١)</sup>.

وعَنْ أَيُوبَ السَّخْتِيَانِي قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ عِكْرَمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، فَقَالَ: «نَزَّلْتُ فِي سَفْحِ ذَلِكَ الْجَبَلِ» وَأَشَارَ إِلَى سَلْعٍ<sup>(٢)</sup>.  
وَأَنْتَ خَبِيرٌ أَنَا لَا نَقْصِدُ بِمَا نَقُولُ جَمِيعَ الصَّحَابَةِ، بَلْ إِنَّ فِيهِمْ مَنْ لَمْ يَتَوفَّرْ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكُنَّا نَقْصِدُ مِنْهُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَهَرُوا بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَحْفَظِهِ وَنَقْلِهِ مِنْ فِيمْ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُمْ كَثِيرُونَ، فَكَانُوا يَحْفَظُونَ - مَعَ نُطْقِ الْآيَةِ وَتَلْقِيَاهَا وَكِتَابَتِهَا - تَارِيخَ نَزُولِهَا.

فَاشتَغلَ التَّابِعُونَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ بِرَوَايَةِ هَذَا كَلْمَهِ وَنَقْلِهِ، بِالْطَّرِقِ الْعُلْمَيِّيِّ، وَحَسْبِ قَوَاعِدِ الْمَصْطَلِحِ، وَبِذَلِكَ وَجَدَ الْعُلَمَاءُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَا أَطْلَقَ عَلَيْهِ فِيمَا بَعْدِ اسْمِ (عِلْمِ الْمَكَّيِّ وَالْمَدْنَيِّ).

### خَصَائِصُ كُلٍّ مِنْهُمَا:

عَلِمْتُ مَا قَلَّنَاهُ أَنَّ الْآيَاتِ الْمَكَّيَّةِ مِنَ الْقُرْآنِ، هِيَ الَّتِي نَزَّلْتُ فِي صَدْرِ الإِسْلَامِ وَهِيَ الْفَتْرَةُ الَّتِي يَحْدُّهَا مِنَ الرَّزْمِ ثَلَاثَةُ عَشَرُ عَامًا، أَمْضَاهَا رَسُولُ اللَّهِ

<sup>(١)</sup> البخاري : في فضائل القرآن، بابُ الْقُرْآنِ مِنْ أَصْحَابِ الْبَيْتِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٥٠٢٢)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما (٢٤٦٣).

<sup>(٢)</sup> حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: (٣٢٧/٣) وانظر الإتقان للسيوطى: (٩/١).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَكَةَ مَعْذِبًا مَضَطَهْدًا، يَقَابِلُ الْإِيْذَاءَ وَالاضْطَهَادَ  
بِالْمُسَالَّمَةِ، مَعَ الْمُضِيِّ فِي الدَّعَوَةِ إِلَى الْحَقِّ الَّذِي أَوْحَى إِلَيْهِ.

وَعَلِمْتَ أَنَّ الْآيَاتِ الْمَدِينَيَّةِ، هِيَ الَّتِي نَزَّلَتْ مِنْ بَعْدِ الْهِجْرَةِ، وَهِيَ الْفَتَرَةُ الَّتِي  
يُحَدِّدُهَا مِنَ الزَّمِنِ عَشَرَهُ أَعْوَامٍ، بَنِي فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدُّولَةُ  
الْإِسْلَامِيَّةُ، حِيثُ تَكَامَلَتْ مُقَوِّمَاتُهَا الإِدارِيَّةُ وَالدُّسْتُورِيَّةُ وَالْقَانُونِيَّةُ.

وَعَلَى هَذَا، فَإِنَّكَ تَجِدُ خَصَائِصَ كُلًّا مِنَ الْقَسْمَيْنِ، مُسْتَمَدَّةً مِنْ طَبِيعَةِ  
هَاتِينِ الْمَرْحَلَتَيْنِ الَّتِي عَاشَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمًا بِأَمْرِ الدُّعَوَةِ.

فَأَنْتَ تَجِدُ أَنَّ الْآيَاتِ الْمَكِيَّةَ تَمَتَّازُ بِوَاحِدِ مَا يَلِي :

- ١ - ذِكْرُ قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ الْخَالِيَّةِ وَدُعَوَةِ النَّاسِ إِلَى الْاعْتَبَارِ بِهِمْ، إِلَّا مَا  
يَتَعَلَّقُ بِالْحَدِيثِ عَنْ مَرِيمَ وَعِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَوةُ وَالسَّلَامُ وَقَصَّةُ ولَادَتِهِ، فَقَدْ نَزَّلَ  
بعْضُ ذَلِكَ فِي الْمَدِينَةِ حِجَاجًا لِأَهْلِ الْكِتَابِ.
  - ٢ - الْمَنَاقِشَةُ وَالْحِجَاجُ وَعِرْضُ الْأَدْلَةِ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ تَعَالَى وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَعَلَى  
بَعْثِ الْأَجْسَادِ مَعَ أَرْوَاحِهَا مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لِلحسابِ.
  - ٣ - تَشْبِيهُ فَوَادِ الرَّسُولِ وَدُعَوَتِهِ إِلَى الصَّبَرِ عَلَى الْأَذَى تَأْسِيًّا مِنْ سَبْقِهِ مِنَ  
الْأَنْبِيَاءِ وَالْمَرْسُلِينَ الَّذِينَ بُعِثُوا لِدُعَوَةِ النَّاسِ إِلَى هَذَا الدِّينِ ذَاتَهُ.
  - ٤ - يَغْلِبُ عَلَى الْآيَاتِ الْمَكِيَّةِ أَنْ تَكُونَ قَصِيرَةً ذَاتَ وَقْعٍ مَعِينٍ فِي الْأَذْنِ  
وَالنَّفْسِ، تَبْعَثُ عَلَى الرَّهْبَةِ وَالْخُشُبَيْةِ وَتَشْعُرُ بِمَعْنَى الْجَلَالِ وَالْجَبَرُوتِ، كَمَعْظَمِ  
السُّورِ الَّتِي تَقْرَأُهَا فِي جَزءِ «تَبَارَكَ» وَ«عَمْ يَتْسَاءَلُونَ».
- فَهَذِهِ الْخَصَائِصُ تَجِدُهَا فِي الْآيَاتِ الْمَكِيَّةِ وَهِيَ مِنْ طَبِيعَةِ الْمَرْحَلَةِ الَّتِي كَانَتْ  
تَمَرُّ بِهَا الدُّعَوَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ.

أما خصائص الآيات المدنية فهي ما يلي:

- ١- البحث في الأحكام والتشريعات المتعلقة بالعبادة والمعاملات والحدود وغيرها.
- ٢- الأمر بالجهاد والقتال والتعليق على الغزوات وما يتعلّق بها من شأن الغنائم والأسرى والمنافقين.
- ٣- البحث في شؤون الحكم والشّورى وضرورة الرجوع فيهما إلى الكتاب والسنة.
- ٤- يغلب على الآيات المدنية أن تكون طويلة فيها اللين والمدحوء، ووعد المسلمين بالفوز والنصر<sup>(١)</sup>.

فهذه هي خصائص الآيات المدنية، وهي من طبيعة المرحلة الثانية التي مرت بها الدعوة الإسلامية. وبهذا تستطيع أن تُميّز بين الستور المكّيّة والمدنية من غير الرّجوع إلى روایات العلماء والمفسّرين في ذلك.

فحسبك أنْ تقرأ سورة «البقرة» وتطلّع على ما تجمع فيها من أَحكام (الصيام، والحجّ، والوَصيَّة، والقصاص، والنِّكاح، والرَّضاع، والطلاق... وغيرها) لتعلّم أنّها سورة مدنية.

وحسبك أنْ تقرأ سورةً مثل سورة «ق» وتقف على ما فيها من الحجاج والنّقاش مع المشركين، وما فيها من الأدلة على وجود الله، وما ينبعث من جرّسها وفواصلها وإيقاع آياتها من معانٍ الشدّة والتهديد والجبروت، لتعلم أنّها سورة مكّية.

---

<sup>(١)</sup> البرهان للزرکشي: (١٨٩/١)، بتصرف وزيادة.

## الفائدة من معرفة هذا العلم:

توقف فوائد علمية كثيرة على معرفة المكّي والمدني من القرآن:

### أ – تمييز الناسخ عن المنسوخ:

من أهم فوائد معرفة المكّي والمدني تمييز ما يوجد في القرآن الكريم من ناسِخٍ ومتَّسْوِخٍ، ليُصَارَ إلَى الْأَخْذِ بِالنَّاسِخِ واطراح المنسوخ – في مجال الأحكام والتشريع – وإنَّما توقف معرفة ذلك على معرفة تاريخ نزول الآياتِ.

واعلم أنَّ وجود (الناسخ والمنسوخ) في القرآن، اقتضيه ضرورةُ أخذِ الناس بالتأمِّل في الأحكام الشرعية؛ كالآيات التي نزلت مُتَدَرِّجةً في تحريم الخمر، وكالآيات التي نزلت في عقوبةِ الزنى.

وليس معنى نسخ الحكم في آيات القرآن أنَّ قرأتُها قد سقطت بذلك، بل هي تظلُّ فرآنًا يُتلَى ويُتَبَعَّدُ به، وهي مِنْ كلام الله عز وجل، ولكن يبطل العمل بها ل مكان الآية التي نسختها.

وفائدةُ ذلك لنا نحن، التبصرُ بالمراحل التدريجية التي سار فيها التشريع، والاطلاع على الطريقة الحكيمَة المثلَى التي أَخْذَ الله بها عباده فيما سَنَ لهم من أحكامٍ.

ثم إنَّ (الناسخ والمنسوخ) عِلْمٌ خاصٌ من علوم القرآن، بحثَ وكتبَ فيه علماء التشريع<sup>(١)</sup>. ولكننا نكتفي منه هنا بالذِي أوضَحَناه لكَ، والزيادة عليه شيءٌ يتعلَّقُ بالفقهِ والتشريع، وهو مِنْ مباحثِ علمِ أصولِ الفقهِ.

<sup>(١)</sup> فممن أفرده بالتصنيف، الإمام أبو بكر بن العربي (ت: ٤٣ هـ) وأبو عبيد القاسم بن سلام (ت: ٢٢٤ هـ) وهبة الله بن سلامة (ت: ٤١٠ هـ) وغيرهم.

ب - ومن فوائد ذلك أيضاً تتبع مراحل الدعوة الإسلامية، والاطلاع على كيفية تكامل بنية الفكر والتصور الإسلامي، وهو مما يهم الباحثين في تاريخ التشريع وأطواره.

ج - ومن فوائده أن يُبصّر القارئ والمفسر بمعنى الآية ويجزء عن الخطأ في تفسيرها. ذلك لأنَّ مَنْ قَرَأَ سُورَةً ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ولم يَعْلَمْ زَمَنَ نَزُولِهَا، وهل هي مَكَيَّةٌ أَمْ مَدْنِيَّةٌ، فَإِنَّهُ يَحْأُرُ فِي مَعْنَاهَا، وقد يَسْتَخْرُجُ مِنْهَا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَا يَكْلُفُونَ بِالْجَهَادِ فِي أَيِّ الْأَحْوَالِ، وَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُولُوا لِلآخَرِينَ: «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِي»، فَإِذَا عَلِمَ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةِ إِنَّمَا نُزِّلَتْ فِي مَكَّةَ، عَنْدَمَا قَالَ بَعْضُ صَنَادِيدِ الشَّرِّكِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَعَالَ يا مُحَمَّدُ نَعْبُدُ إِلَهَكُمْ يَوْمًا وَنَعْبُدُ إِلَهَنَا يَوْمًا، إِذَا عَلِمْتُمْ هَذَا، أَدْرِكُ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةِ إِنَّمَا هِيَ عَلَاجٌ لِتَلْكَ الْمَرْحَلَةِ ذَاتَهَا، وَلَيْسَ دَلِيلًا عَلَى دَمْرَةِ شُرُوعِيَّةِ الْجَهَادِ الَّذِي نُزِّلَ فِيهِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ أُخْرَى فِي الْمَدِينَةِ.

---

= كما أُفْرِدَ مَوْضِعُ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ بِالدِّرَاسَةِ وَالْبَحْثِ، وَمِنْ ذَلِكَ كِتَابُ (النَّسْخُ فِي الْقُرْآنِ) لِلدَّكْتُورِ مُصطفَى زَيْدٍ.



# **المُبَهَّمُ وَالْمُتَشَابِهُ فِي الْقُرْآن**

تمهيد

**المُبَهَّمُ (أَنْواعُهُ ، أَمْثَالُهُ ، الْحِكْمَةُ مِنْهُ)**

**الْمُتَشَابِهُ (الْمَقْصُودُ بِهِ ، حِكْمَهُ)**



تمهيد:

اعلم أنَّ عامة جمل القرآن وألفاظه لا تخرج عن أن تكون من قبيل المُحْكَم أو المُتَشَابِه أو المُبْهَم.

فأَمَا الْمُحْكَمُ، فهو ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره<sup>(١)</sup>.

وَأَمَا الْمُبْهَمُ فهو ما قد يُعرَفُ ظاهِرُه ولكن العقل يتوقَّفُ في تصوِّره وتفصيله وإدراكِ حقيقته.

وَأَمَا الْمُتَشَابِهُ فهو ما احتمل وجهين أو وجهاً من المعنى دون وجود ما يعين واحداً منها تعيناً ظاهراً أو قاطعاً.

وقد ذهب بعض الكاتبين إلى إدخال «المُبْهَم» في «المُتَشَابِه» وجعل القسمة ثنائيةً، ولكن مذهب من ميز بين «المُبْهَم» و«المُتَشَابِه» أدق وأوجع، إذ إنَّه إذا صَحَّ إدخال بعض أنواع المُبْهَم - مثل فواتح السور - في المُتَشَابِه فهنا لك أنواعاً أخرى منه لا تدخل فيه، ولا يُمْكِن أن تُعتبر منه، كذلك الأنواع التي ستحدُث عنها.

هذا، وإنَّ عامة آياتِ القرآنِ مما يتعلَّق بالأوامر والتَّواهي، والإرشاد والوعيد والوعيد، مِنْ قبيل المُحْكَمِ، ولذلك أطلقَ الله تعالى عليها اسم «أُمُّ الْكِتَابِ» إذ قال: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧] أي أساسه وجوهره

<sup>(١)</sup> لعلَّ هذا أصح ما عرف به المُحْكَم ، وهو تفسير جابر بن عبد الله رضي الله عنه وعن غيره من الصَّحَابة، وانظر تفسير القرطبي: (٩/٤).

الذى يقع به الخطاب ويتم به التكليف، وما فيه من المتشابه والمبهوم، قليلٌ  
بالنسبة للمحكم، وجد حكمة باهرة سندكُر طرقاً منها فيما بعد.

ولقد أطّلَ الباحثون عن الحديث في مُحكِم القرآن ومُبْهِمِه ومُتَشَابِهِ، لا  
سيما في القسمين الأخيرين منه.

هذا وقد أفردَ بعض العلماء في مبهم القرآن وبيان حكمه تأليف، منهم:  
الإمام السهيلي عبد الرحمن بن عبد الله (ت: ٥٨١هـ) وعنوان كتابه  
(التعريف والإعلام فيما أُبْهِمَ من القرآن).

وابن عَسْكَرَ محمد بن علي الملاقي (ت: ٦٣٦هـ)؛ وكتابه (التكامل والإتقام  
في ذيل التعريف والإعلام).

والقاضي بَدْرُ الدِّينِ محمد بن إبراهيم ابن جماعة الكناني (ت: ٧٣٣هـ)  
وكتابه (التبیان لمبهمات القرآن).

وجلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) وكتابه (مفہمات الأقران في مبھمان  
القرآن)، وهو أجمعها وأكثرها فوائد.

كما أفرد ابن أبي الأصبع عبد العظيم بن عبد الواحد (ت: ٦٥٤هـ) تأليفاً  
في (فواتح السور)<sup>(١)</sup> - وهو نوعٌ من مُبْهِمِ القرآن - وسماه (خواطر السوانح في  
أسرار الفواتح).

ونحن لن نذكر في هذه العجالة إلا ما لا بد منه، ومن أراد التوسيع في ذلك  
فليرجع إلى ما كتبه علماء الكلام والتفسير، وإلى المؤلفات الخاصة بالبحث في  
علوم القرآن.

---

<sup>(١)</sup> انظر الإتقان للسيوطى: (١٤٥ و ١٠٥/٢).

## المُبَهَّمُ

### آنُواعُهُ، أَمْثَلَةُ لَهُ، الْحِكْمَةُ مِنْهُ

مُبَهَّمَاتُ الْقُرْآنِ كُلُّهَا، تَنْحَصِرُ فِي نُوَعَيْنِ، وَذَلِكَ حَسْبَ شَدَّةِ الإِبْهَامِ  
وَضَعْفِهِ:

النوع الأوّل: الأَحْرُفُ المقطعة التي افتتح بها بعض السور، كقوله تعالى:

﴿أَمْ﴾، ﴿حَم﴾، ﴿كَهْيَعْص﴾ فَهِيَ الْفَاظُ مِبْهَمَةٌ، بِمَعْنَى أَنَّ الْقَارئَ لَا يَفْهَمُ  
مِنْهَا شَيْئاً وَرَاءَ ظَاهِرِ حُرُوفِهَا وَمَا يَنْطَقُ بِهِ مِنْهَا.

وَلَقَدْ انْقَسَمَ الْعُلَمَاءُ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْفَوَاتِحِ إِلَى مَذْهَبَيْنِ:

أَحَدُهُمَا - أَنَّ لَهُذِهِ الْفَوَاتِحِ عِلْمًا مَسْتُورًا وَسُرًّا مَحْجُوبًا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهِ:

وَرَوَى هَذَا الْقَوْلُ عَنْ أَبِي بَكْرِ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَدْ قَالَ فِيمَا رُوِيَ  
عَنْهُ: «فِي كُلِّ كِتَابٍ سُرُّ، وَسُرُّهُ فِي الْقُرْآنِ فِي أَوَّلِ السُّورِ»<sup>(١)</sup>.

ثَانِيهِمَا - أَنَّ لَهُذِهِ الْفَوَاتِحِ مُرَادًا مَعْلُومًا وَمَعْنَى يَكُونُ الْوَصْلُ إِلَيْهِ بِالنَّظَرِ

وَالْبَحْثُ:

وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ جَمِيعُ الْبَاحثِينَ مِنْ عُلَمَاءِ الْكَلَامِ «الْعِقِيدَةِ» وَالْعَرَبِيَّةِ  
وَغَيْرِهِمْ. وَهُوَ المَرْوُيُّ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَلَيْهِ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَجَمِيعِ كَبِيرِ مِنْ  
الصَّحَابَةِ<sup>(٢)</sup>.

وَالْأَصْحَابُ هَذَا الْمَذْهَبُ الثَّانِي تَأْوِيلَاتٌ وَتَحْلِيلَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ، لَا نَسْتَبِعُ أَنْ  
تَكُونَ كُلُّهَا مَقْصُودَةً - كَمَا قَالَ أَبُو فَارِسٍ وَغَيْرُهُ - إِذْ هُوَ الشَّأْنُ الْعَالِبُ عَلَى

<sup>(١)</sup> انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: (١٥٤/١)، والبرهان للزرκشي: (١٧٢/١).

<sup>(٢)</sup> الجامع لأحكام القرآن: (١٥٥/١)، وانظر مشكل القرآن لابن قتيبة: ٦٣، ٦٤.

معظم الفاظ القرآن (تحتمل اللفظة معاني متعددة كلها يصح أن يكون مراداً، إذ كلها مصداق للحقيقة التي تعبر عنها الآية)<sup>(١)</sup> وهذا من أبرز مظاهر الإعجاز في القرآن، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

غير أننا نذكر من هذه التأويلات أقربها إلى النظر وأسرعها إلى الذهن وأكثرها شيعةً وأنصاراً:

– فقد ذهب قطربُ، والفراءُ، والبراءُ، وعامّة علماء العربية، وجمع عظيم من المحققين إلى أن هذه الأحرف المقطعة إنما افتتحت بها السور، لتدل على أن القرآن ليس إلا كتاباً ألفاً من هذه الأحرف المجائية: (أ، ب، ت، ث .. إخ)، هي تلك التي تبنون كلامكم وأشعاركم منها، ومع ذلك فلن تستطعوا أن تؤلفوا من هذه الأحرف كلاماً مثله<sup>(٢)</sup>.

ويدل على سلامية هذا التفسير ووضوحيه أن الكلمة التي تلي هذه الفوائح تحمل معنى الكتاب، وتقع في معظم الأحيان موقع الخبر:

منها قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّمَا ذَكِرَ الْكِتَابُ﴾

وفي سورة الأعراف: ﴿الْمَصِّ كِتَابٌ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾.

وفي سورة يونس: ﴿الرِّثْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾.

وفي سورة هود: ﴿الرِّكَابُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

<sup>(١)</sup> انظر البرهان: (١٨٠/١).

<sup>(٢)</sup> انظر تفسير القرطبي: (٦٧/١)، وتفسير الفخر الرازي: (٦٧/١) و(٢٣٠/١) والجامع لأحكام القرآن: (١٠٥/١)، والبرهان: (١٨٥/١).

وفي سورة النمل: ﴿ طسْ تَلَكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ .

\* وإلى جانب هذه الدلالة:

- لا يبعد أن تحمل أسراراً معينةً.

- وأن تكون قد سيقت مساق القسم بها.

- وأن يكون موقعها في صدر السور موقع التنبية للأسماء والأذهان إلى

الكلام الذي يعقبها.

**النوع الثاني - جمل وألفاظ**، هي من حيث تركيبها وظاهر دلالتها أمر واضح ومعلوم؛ ولكن فيها إبهاماً:  
أ - من حيث الزمن المتعلق بها.

ب - أو من حيث تعين أسماء المشار إليهم فيها.

ج - أو من حيث نكارة وغرابة المتحدث عنه فيها.

فهذه ثلاثة أصناف للإبهام في نوعه الثاني، نذكر لكل صنف منها مثالاً:

**مثال الصنف الأول:**

الآيات المتعلقة بقيام الساعة، من مثل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زِلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ \* يَوْمَ تَرَوْهَا تَذَهَّلُ كُلُّ مُرْضِعٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُّ كُلُّ ذَاتٍ حَمْلٍ حَمَلَهَا ﴾ [الحج: ١ - ٢] الآية.

فبالجمل التركيبية في هذه الآية واضحة المعنى، ولكن فيها إبهاماً تتطلع إلى كشفه النفس، وذلك من حيث تحديد الزمن الذي ستقوم فيه الساعة - أي يوم القيمة - ولا شك أنه أمرٌ مبهم سرره الله حتى عن علم الأنبياء والمقربين إليه.

## ومثال الصنف الثاني:

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ بِنَا أَبْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَأَ قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقْبَلْ مِنْ أَخْرَقَالَ لَاقْتُلَنَاكَ قَالَ إِنَّمَا يُتَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

فابجمل الكلمات في هذه الآية واضحة الدلاله والمعنى، ولكن فيها إيهاماً من حيث تعين المقصود بـ(ولدي آدم) فمن هما ولدا آدم اللذان كانا من شأنهما ما أخبر به عنهم؟ وهو إيهام كشفت عنه السنّة وما وصلنا من تفسير الصحابة رضوان الله عليهم، فالمقصود بـ(ولدي آدم) في الآية (قابيل، وهابيل) وهما ولد آدم لصليبه.

## ومثال الصنف الثالث:

قوله تعالى: ﴿هَتَّى إِذَا فُتَحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَسْلُونَ \* وَاقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقِّ فَإِذَا هِيَ شَاصِّةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا طَالِمِينَ﴾ [الأنياء: ٩٦ - ٩٧].

فمن هم يأجوج ومأجوج؟ ومتى يحيى وقت ظهورهم؟ وما هو شأنهم؟ وعملهم؟

ذلك أيضاً من المبهم الذي لم تكشف عنه الآية بأكثر من الإثبات عنه، وأنه من الغيب الذي سيقع في حينه المقدر له في علم الله.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقُولُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].

فما هي هذه الدابة التي سترجع إلى الناس تكلّمهم وتحذّthem؟

لا تزيد الآية على الإخبار بهذا الغيب الذي سيقع، وتفصيل الأمر فيه من المبهم الذي لا يكشف عنه إلا الواقع الذي يأتي في حينه.

فهذه أمثلة لأصناف المبهم الذي وقع في القرآن، وإذا تأملت فيها علمت:

- أنّ منها ماً ممكناً تفسيره وكشفه عن طريق الوقوف على تفسير السنة

. له

- ومنها ما بقي مبهمًا مكتوناً في غيب الله عزّ وجلّ، لا يكشفه إلا الواقع الذي أخبرت عنه الآيات.

### حِكْمُ وَجْدِ الْمَبْهُمِ فِي كِتَابِ اللَّهِ:

بقي أن تعلم لوجود مثل هذه المهامات في كتاب الله عزّ وجلّ حِكْمٌ منها:

أ - أَمَّا الإِبْحَامُ الْمُتَعَلِّقُ بِ(فواتح بعض السور)، فقد علمت مما ذكرناه، أنَّ

مذهب جمهور العلماء والباحثين أنَّ هذه الفوائح معنى يمكن الوصول إليه بالنظر والبحث، فالإبham فيها إنما هو معنى العموم والخلفاء اللذين يمكن إزالتهما والوصول إلى ما وراءهما، وليس معنى انغلاق اللفظ على المعنى واستحالة وصول القارئ أو المتدارك إلى المقصود.

غير أنك قد تسأل: ففيما هذا العموم والخلفاء وإنما هو كتاب أنزل للقراءة والفهم؟

**فالجواب:** أنَّ القرآن - كما يقول ابن قتيبة - إنما نزل بألفاظ العرب ومعانيها ومذاهبها في الإيجاز، والاختصار، والإطالة، والتوكيد، والإشارة إلى الشيء، وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه إلا اللَّقَنُ - سريعة الفهم - وإظهار بعضها وضرب الأمثال لما خفي.

ولو كان القرآن كله ظاهراً مكشوفاً حتى يستوي في معرفته العالمُ والجاهلُ  
بَطْلُ التفاصيلُ بين النّاسِ وسقطَتِ المُخْنَةُ وماتتُ الحَوَاطِرُ<sup>(١)</sup>.

ولا شكَّ أنَّ من فوائدِ ما تلبست به هذه الفوائح من الإبهام، ما تراه من  
الأبحاثِ المختلفةِ الجليلةِ، التي أقامها العلماءُ على هذه الفوائح، سواءً منها:

- ما يتعلَّقُ بطبعَ هذه الحروف ووجه اتساقِها مع بعضها.

- وما يتعلَّقُ بالعلوم المستخرجة منها والدلائل المشيرة إليها.

حتَّى غدت هذه الفوائح مصدَّرَ عِلْمٍ قائمٍ برأسِه من علوم القرآن.

وإنَّما اندفعَ العلماءُ الباحثون إلى استخراجِ كلِّ ذلكَ والبحث فيه بسببِ ما يكتنفها من الغرابةِ والغموضِ الحامِلَيْنِ على النَّظرِ والفِكْرِ.

وإنَّما يأتي الكشفُ والإبداعُ من وراء الحاجةِ وضيقها. وإنَّما يقعُ الخمولُ  
والبلادةُ مِنَ الشُّعورِ بالاستغناءِ والكِفايةِ.

والإعجازُ القرآنيُّ في جملته، قائمٌ على البحثِ والنَّظرِ في أمورٍ منها  
الخفُيُّ والجلُيُّ، ومنها الدَّقيقُ والأدقُ، واللَّطِيفُ والألطفُ، وإلا فكيف تتبَعُ  
المعاني للجملةِ الواحدةِ مِنْ وراءِ بعضِها؟

وكيف تأتي الدَّهشَةُ لها إِذَا كان جميعها من الظُّهورِ بحيثُ تنكشَفُ لـكُلِّ  
قارئٍ وناظرٍ مهما تفاوتَ درجةُ العلمِ ورتبةُ الفهمِ؟

واعلم أنَّنا إنَّما نَصُدُّرُ في هذا الذي نقولُ، عنِ المذهبِ الذي تمسَّكَ به  
جمهُورُ الباحثينِ من أَنَّ ما قد يوجَدُ في القرآنِ من المُبْهَمِ أو المُتَشَابِهِ يمكنُ

<sup>(١)</sup> انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة: ٦٢.

للرّاسخين في العلم أن يفهموا منه فهّماً صحيحاً ويقعوا منه على علمٍ، حاشا  
المغيبات التي أشار القرآن إليها أو تحدثَ عن طرفٍ منها وأبْحِمَ منها طرفاً آخر.

ونقول في هذا ما قاله ابن قتيبة في كتابه، (**تأویل مُشكّل القرآن**):

(ولسنا ممّن يزعمُ أنَّ المُتَشَابِهَ في القرآن لا يعلمه الرّاسخونَ في العلم، وهذا  
غَلَطٌ من مُتَأَوْلِيهِ على اللُّغَةِ والمعنى، ولم يُنْزِلَ اللَّهُ شَيْئاً من القرآن إِلَّا لينفع به  
عباده ويدلّ به على معنى أراده، فلو كان المُتَشَابِهَ لا يعلّمُه غيره، لَلَّهُمَا للطاعِنِ  
مقالٌ وتعلّق علينا بعلّة).

وهل يجوز لأحدٍ أن يقول: رسول الله لم يكن يعرف المتشابه؟! وإذا حازَ  
أنْ يعرِفَه مع قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَاوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] حازَ أنْ يعرِفَه  
الرّبانيونَ مِن الصّحابةِ، فقد عَلِمَ عَلَيْهِ رضي الله عنه التفسير، وَدَعَا لابن عباسٍ  
رضي الله عنهما فقال: «اللهم علّمَه التأویل وفَهْمَهُ في الدين»).  
ثم قال ابن قتيبة:

(وبعد فإنّا لم نر المفسرين توقفوا عن شيءٍ من القرآن فقالوا: هذا لا يعلّمُه  
إِلَّا اللهُ، بل أمروه كله على التفسير، حتى فسروا الحروف المقطعة في أوائل السور  
مثل: ﴿الر﴾، و﴿حِم﴾، و﴿طِه﴾، وأشباه ذلك.

فإن قال قائل: كيف يجوز في اللغة أنْ يعلّمَه الرّاسخونَ والله تعالى يقول:  
﴿وَمَا يَعْلَمُ تَاوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرّاسخونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران: ٧] وأنَّ إذا  
أشركت الرّاسخينَ في العلم انقطعوا عن ﴿يقولون﴾ وليس هنَا وَنَسِيَ توجيه  
للرّاسخينَ فعلَّينِ، وهذا مذهب كثيرٍ من النحوينَ في هذه الآية، ومن جهته غلطٌ  
قومٌ من المتأولينَ؟

قلنا له: إنَّ ﴿يَقُولُونَ﴾ هنَا بِمَعْنَى الْحَالِ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ

قَائِلِينَ: آمَّا بِهِ. وَمُثْلُهُ فِي الْكَلَامِ: لَا يَأْتِيكَ إِلَّا عَبْدُ اللَّهِ وَزِيدٌ يَقُولُ: أَنَا مَسْرُورٌ  
بِزِيَارَتِكَ، يَرِيدُ لَا يَأْتِيكَ إِلَّا عَبْدُ اللَّهِ، وَزِيدٌ قَائِلًا: أَنَا مَسْرُورٌ بِزِيَارَتِكَ<sup>(١)</sup>.

ب - وَأَمَّا الإِبْهَامُ فِي النَّوْعِ الثَّانِيِّ: وَهُوَ الْجُمْلُ الْمَفْهُومُ مِنْ حِيثِ ظَاهِرِ  
دَلَالَتِهَا وَتَرْكِيَّبِهَا، وَلَكِنَّ فِيهَا إِبْهَامًا مِنْ حِيثِ تَعْيِينِ الزَّمِنِ أَوْ تَعْيِينِ الْأَسْمَاءِ أَوْ  
نَكَارَةِ الْمُتَحَدِّثِ عَنْهُ وَغَرَابَتِهِ؛ فَمَرْدُ ذَلِكَ إِلَى أَحَدٍ أَسْبَابِ ثَلَاثَةِ:

السُّبُّ الْأَوَّلُ: عَدْمُ تَعْلُقِ أَيِّ غَرْضٍ بِتَفْصِيلِهِ وَالْكَشْفِ عَنْهُ، كَالذِّي يَكُونُ  
فِي مَسَاقِ ذِكْرِ بَعْضِ الْقَصَصِ وَالْأَحْدَاثِ، مِنْ إِبْهَامِ أَسْمَاءِ الْأَشْخَاصِ وَعَدْمِ  
تَعْيِينِ الْأَمْكَنَةِ أَوِ الْأَزْمَنَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهَا. فَهَذِهِ الْقَصَصُ وَالْأَحْدَاثُ إِنَّمَا تُسَاقُ  
لِلِّاتِعَاظِ بِهَا وَأَحَدِ الْعِبَرَةِ مِنْهَا. وَتَحْقِيقُ ذَلِكَ يَتَوَقَّفُ عَلَى عَرْضِ الْجَانِبِ الَّذِي  
يَحْمِلُ مَعْنَى الْعِظَةِ وَالْعِبْرَةِ، دُونَ غَيْرِهِ، مَا يُشَتَّتُ الْذَّهَنُ عَنِ الْمَطْلُوبِ وَيُبَعِّدُ  
الْمَتَأْمَلَ عَنِ الْقَصْدِ. وَلَذِلِكَ لَمْ يَتَعْلَقُ الْغَرْضُ الْقَرآنِيُّ بِالْكَشْفِ عَنِ اسْمِ وَلَدِيِّ  
آدَمَ وَهُوَيْتَهُمَا فِي الْآيَةِ المُذَكُورَةِ، وَمِنْ أَحَلِ ذَلِكَ أَيْضًا يَقُولُ أَسْلُوبُ الْقَصَّةِ فِي  
الْقَرآنِ عَلَى تَوْجِيهِ الْفَارِئِ إِلَى مَكَانِ الْعِبْرَةِ مِنْهَا وَتَحْوِيلِ ذَهَنِهِ عَنِ الْلَّحَاقِ بِجَزِئِيَّاتِهَا  
وَهُوَامِشُهَا التَّارِيχِيَّةِ الْمُجَرَّدَةِ.

السُّبُّ الثَّانِيِّ: أَنْ يَكُونَ هَذَا الْأَمْرُ الْمُبْهَمُ مِنَ الْغَيُوبِ الَّتِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ  
تَعَالَى بِعِلْمِ أَزْمَنَتِهَا وَأَجَاهِلِهَا. وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى اقْنَضَتْ أَنْ يُخْفِي  
عَنِ عَبَادِهِ - مَصْلَحَةٌ عَظِيمَةٌ باهِرَةٌ - كَثِيرًا مِنَ الْحَقَائِقِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْغَيْبِ الَّذِي لَمْ

<sup>(١)</sup> تأویلٌ مشکلٌ القرآن: ٧٣، ٧٤.

يقع بعدُ. وأهمُها أَجَلُ الْإِنْسَانِ الذي تنتهي عنده حياته، وأَجَلُ الدُّنْيَا الذي تقومُ عند الساعَةِ، وما سيجيئه من رِيحٍ أو خسراً وسعادَةً أو شقاءً.

فكُلُّ الآياتِ التي تتعلَّقُ بمثيل هذه الأمور، يظلُّ فيها هذا الجانِبُ مُبْهِماً، لأنَّ الغرضَ الدينيَّ قد تعلَّقَ ببقائه كذلك، ولأنَّ حقيقة العبوديَّة لله عزَّ وجلَّ

تقتضي ذلك. فمنْ هذا القبيل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رِزْنَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَفَخْنَا فِي الصُّورِ فَلَا إِنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَدِ لَا يَسْأَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وهكذا، فالحقيقة الدينيَّة في مجموعها قائمةٌ على هذا النوعِ مِن الإبهام: إيهام الأمور الغيبية من حيث عدم كشفِ أَزْمَنَتِها وتعيينِ كيفيتها وآجالها. وذلك ليتبَسَّمُ الإنسان بحقيقة «الإيمان بالغيب» الذي تعبده الله عزَّ وجلَّ به.

السبب الثالث: كون الأمر المتحدَّث عنه لم يقع بعد. ومن شأن الخبر المتحدَّث عنه مما لم يقع بعد، ولم يقع له نظير أو مثيل فيما مضى، أن يظلَّ جانِبُ كبيرٍ فيه مَبْهِماً، لا يكشفُه إِلَّا الواقعُ والحقيقةُ، وقد أَخْبَرَنا الله عزَّ وجلَّ عن أمورٍ غريبَةٍ ستَقْعُ في المستقبلِ، وهي مما لم يَقُعْ نظيرُ لها فيما مضى، كـ(الإخبار عن دابة الأرض، ويأجوج ومأجوج) في الآيات السابق ذكرها، فمِمَّا لا ريبَ فيه أنَّ الصورةَ الجليةَ مثل هذه الأمورِ في الذَّهْنِ لا تتوافَر بِمُجرَّد الوصفِ والإِخبارِ، وإنَّما تأتي لدى المشاهدةِ والعيان، فالإبهامُ في هذه الحالة أمرٌ طبيعِيٌّ لا إِشكالَ فيه، اقْتضاؤه عدمُ وقوع المُخْبَرِ عنه بعدُ.

## المُتَشَابِهُ الْمَصْوَدُ بِهِ، حَكْمُهُ

وإِنَّمَا نَقْصِدُ بِ(الْمُتَشَابِهِ): تلَقَ الجُلُمُ الْجَلُومُ الَّتِي تَنَازَعَهَا أَكْثَرُ مِنْ مَعْنَى وَاحِدٍ، إِذ  
كَانَ الْلَّفْظُ أَوِ التَّرْكِيبُ صَالِحًا لِلَّدَلَالَةِ عَلَى كُلِّ مِنْهَا دُونَ أَنْ يَكُونَ صَالِحًا  
لِلَّدَلَالَةِ عَلَيْهَا كُلُّهَا بِأَنِّي وَاحِدٌ، فِيهَا حَاجَهُ الْمُفْسِرُ فِي الْمَعْنَى الْمَرَادِ مِنْهَا، لِأَنَّ كُلُّهَا  
شَبِيهُ بِهَا وَقَرِيبٌ، وَلَقَدْ قِيلَ بَعْدَ ذَلِكَ لِكُلِّ مَا غَمْضَ وَدَقَّ: مُتَشَابِهٌ، وَإِنْ لَمْ تَقْعُ  
الْحَرَيْهُ فِيهِ مِنْ جَهَهُ شَبَهَ بِمَعْنَيَيْنِ، وَلَكِنَّ الطَّرِيقَهُ الَّتِي سَلَكْنَا هَا فِي التَّفَرِيقِ بَيْنِ  
(الْمُبْهِمِ وَالْمُتَشَابِهِ) تَقْتَضِيْنَا أَنْ نَقْصِرَ اسْمَ «الْمُتَشَابِهِ» عَلَى مَعْنَاهُ الْأَسَاسِيِّ  
الْأَوَّلِ فِي هَذَا الْمَقَامِ.

وَالآيَاتُ الْمُتَشَابِهُّ بِالْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرْنَا هُوَ، إِنَّمَا وَقَعَ فِيهَا ذَلِكَ مِنْ جَهَهُ الْمَجازِ  
وَاسْتَعْمَالِهِ، فَبِسَبِيلِهِ قَدْ يَقْعُدُ الْغَلَطُ وَيَكْثُرُ التَّأْوِيلُ وَتَخْتَلِفُ الْمَذاهِبُ وَالْأَقاوِيلُ.

### أَنْوَاعُ الْمُتَشَابِهِ:

يَتَنَوَّعُ الْمُتَشَابِهُ إِلَى نَوْعَيْنِ:

– فَأَمَّا النَّوْعُ الْأَوَّلُ مِنْهُ فَالْخَطْبُ فِيهِ يَسِيرٌ، وَأَمْرُ التَّأْوِيلِ فِيهِ وَاضْعُفُ، وَوَجْهُ  
الْمَجازِ فِيهِ غَيْرُ خَفِيٌّ.

وَهَذَا النَّوْعُ يَنْطَبِقُ عَلَى عَامَّةِ الْآيَاتِ الَّتِي تَتَجَلَّ فِيهَا الْبَلَاغَهُ الْقَرَآنِيهُ عَنْ  
طَرِيقِ التَّصْوِيرِ وَتَحْسِيمِ الْمُحَرَّدَاتِ مِنِ الْمَعْنَى، فَلَا يَكَادُ يَقْعُدُ فِي أَمْرِهَا اشْتِبَاهٌ إِلَّا  
بِالنَّسْبَهِ لِمَنْ كَانَ بِضَاعَهُ فِي الْعَرَبِيَّهُ نَاقِصَهُ وَضَعِيفَهُ، وَمِنْ أَمْثلَهُ:

قوله تَعَالَى: ﴿سَنُنْزِعُ لَكُمْ آيَهُ الْقَلَان﴾ [الرَّحْمَن: ٣١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمٌ يُكَشِّفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِعُونَ﴾ [القلم: ٤٢].

وقوله تعالى عن بعض الكافرين الذين أهللوكوا: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩].

فالمقصود بالأية الأولى: سنقصد إليكم بعد طول الترثي والإهمال.

ومقصود بالأية الثانية: الكناية عن مدى سعتها، مع عدم أي مانع من أن يكون الأمر على الحقيقة فيسأل الله النار ويُطْلُبُها بالجواب، تهويلاً للأمر وكشفاً عن جليل قدرته وتنبيهاً إلى عدم وجود أي قيمة حقيقية لمعنى الأسباب والمبنيات الكونية.

ومقصود بالأية الثالثة: بيان شدة الأمر على الناس إذ ذاك.

ومقصود بالأية الرابعة: أنه لم يبيك عليهم باك ولم يجنع لفقدهم جازع. وهذه المعاني والدلائل المقصودة بهذه الآيات مما لا يشك به من له أدنى إلمام بالعربية، فضلاً عن المتمكن من ناصيتها.

- وأما النوع الثاني فهو الذي وقع بصادره الكلام والبحث، واختلفت حوله آراء العلماء فيما ييدو، وينطبق هذا النوع على بعض آيات الصفات الإلهية، ومن أمثلتها: قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]. قوله تعالى: ﴿وَلَتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].

و محلُّ الشُّبَهَةِ في مثيل هذه الآيات أَنَّ ظَاهِرَهَا يُبَشِّرُ اللَّهُ تَعَالَى جَوَارِخَ وَمَكَانًا، وَهُوَ مُخَالِفٌ لِصَرِيحِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشُورى: ۱۱].

وَمَوْقِفُ الْعُلَمَاءِ وَالْمُفَسِّرِينَ مِنْ مثيل هذه الآيات يَنْبَشِقُ عَنْ سُلُوكِ مَرْحَلَتَيْنِ اثنتين:

المرحلة الأولى مِنْهُمَا تُمْثَلُ مِنْ طَلَقاً مِتَّفِقاً عَلَيْهِ لَمْ يَقُعْ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ خَلَافٌ، وَهُوَ تَفْسِيرُ الْمُتَشَابِهِ عَلَى ضَوْءِ الْمُحْكَمِ مِنَ الْآيَاتِ الْقَرآنِيَّةِ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشُورى: ۱۱] وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ۴] مِنَ الْمُحْكَمِ الَّذِي لَا شُبَهَةَ فِي مَعْنَاهُ، فَأَنْفَقُوا عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَشْبِهُ شَيْءٌ مِنَ الْمُخْلوقَاتِ وَصَفَاتِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ.

المرحلة الثانية مِنْهُمَا مُحَلٌّ خَلَافٍ فِي الظَّاهِرِ، وَهُوَ تَأْوِيلُ آيَاتِ الصَّفَاتِ إِلَى الْمَحَازِ أو تَفْسِيرُهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ:

\* فَالسَّلْفُ الْأَوَّلُ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْمُفَسِّرِينَ آتَوْا إِبْقَاءَ الْفَفْظِ عَلَى الْحَقِيقَةِ مَعَ الإِيمَانِ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا مِثْلُ لَهُ، وَبِأَنَّهُ مَنْزَهٌ عَنْ صَفَاتِ النَّقْصِ، وَوَكَلُوا تَحْلِيلَ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ وَشَرِحُهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

أَخْرَجَ أَبُو الْقَاسِمِ الْلَّالِكَائِيُّ فِي (سَنَنِهِ) عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا سُئِلَتْ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ۵] فَقَالَتْ: «الْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالإِسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالإِقْرَارُ بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْجُحُودُ بِهِ كُفْرٌ»<sup>(۱)</sup>.

<sup>(۱)</sup> ينظر إلى تفسير السيوطي: (٣/٤).

و سُئلَ الإمامُ مالك رضي الله عنه عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ؟ فَقَالَ: «الْكَيْفُ عَيْرُ  
مَعْقُولٍ، وَالاسْتِواءُ عَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدُعَةٍ»<sup>(١)</sup>.

\* وَأَمَّا الْخَلْفُ منهم - وهم الذين جاءوا في عصر ازدهار تدوين العلوم،  
وأتساع حلقات البحث والمناقشات العلمية - فقد آثروا أن يحملوا ألفاظ هذه  
الآيات على محمل يليق بذات الله تعالى مع التزام الدلالة اللغوية والخصوص  
لقواعد الأخذ بالحقيقة والجاز عدم الخروج عليها أو التكلف في معاجلتها:  
فَسَرُوا (الاستواء) بِتَسْلُطِ الْقُوَّةِ وَالسُّلْطَانِ.

وفسروا (اليد) بالقدرة.

وفسروا (العين) بالعناية والرعاية.

وهو تفسير تدل عليه طبيعة الاستعمال اللغوي وجملة الأسلوب القرآني.  
وإئمما قلنا: «إن الخلاف في الأمر الثاني خلاف في الظاهر فقط» لأن المآل  
فيما ذهب إليه كلاً من السلف والخلف واحد، ما دام الجزء الأول من التفسير  
محل اتفاق وهو أنه عز وجلا لا يشبه شيء من مخلوقاته، وأنه مترء عن جميع  
صفات النقص، فالخلاف شكلي، ينحصر في طريقة تفسير هذه الألفاظ التي  
تدور بين

تركها على حقيقتها مع تنزيه الله تعالى على الكيف والنقص

أو

تأويلها على المجاز لتفيق لغوياً مع تنزيه الله تعالى عن الكيف والنقص.

<sup>(١)</sup> أخرجه أبو ثعيم في حلية الأولياء: (٣٢٥ - ٣٢٦) والبيهقي في الأسماء والصفات .(١٥١ - ١٥٠/٢)

ولقد شنَّع بعضُهم كثيراً على طريقةِ الخلف هذه، وعدَّها جانحةً جنوحًا حقيقةً عن مذهب السَّلْف، وأنكَرَ على سائر علماءِ الخلف - وهم الذين جاؤوا بعدِ القرنِ الثالث - استعمالَ هذه الألفاظ القرآنية في غيرِ حقيقتها لا سيما المتعلقة بذاتِ الله تعالى وصفاته.

ولكنا نحزم بآنَ الخطبَ في ذلك يسيراً، والخلاف أهون من آنَ يكونَ جنوحًا لفؤلاءِ الأعلامِ، عن مبادئ العقيدةِ الإسلامية وأصولِ التَّفسيرِ.

والعجب أنَّ هذا المعرضَ بعدَ كلِّ هذا التَّشنيعِ يتَّأوَّلُ (الوجه) في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهُهُ﴾ [القصص: ٨٨] بالجهة، ويقول: «إنَّ معنى الآية: كُلُّ شيءٍ هالكُ إِلَّا ما أُرِيدَ به جهةُ الله تعالى!..﴾<sup>(١)</sup>.

فلماذا أَخْرَجَ الكلمةَ من حقيقتها إلى المجاز؟

وماذا يحرّم على علماءِ الخلف ما يراه مباحاً له؟

وليته إِذْ تَأوَّلُ على خلافِ مبدئه ومذهبِه، فسِّرها بالذَّاتِ كما فعلَ جمهورُ المُفسِّرين بل أصرَّ على آنَ يتَّأوَّلُها بالجهةِ والمكان!!..

هذا وليس لنا شأنٌ، بتلك الطوائف التي ضلَّتْ وشدَّتْ، مَنْ يقالُ عنهم (المُعطلةُ والمُجسّمةُ)، إِذْ لا يُقامُ لهم أيٌ حسابٌ فيما يتعلّقُ بكتابِ اللهِ تعالى وتفسيرِه، وليسوا منْ كتابِ اللهِ تعالى - محكمه أو متشابهه - في شيءٍ، وإنَّما هم تصورو الذَّاتَ الإلهيَّةَ كما صرَّوْتُهُمُ أخيلتهم المُجرَّدة، ثم استنهضوا آياتٍ منْ كتابِ اللهِ تعالى إلى تلك الأُخيلةِ لتصدقُها وتؤمنُ لهم بها، وأنَّ لآياتِ اللهِ الباهرةِ أن تدلُّ إِلَّا على

---

<sup>(١)</sup> مجموع فتاوى: (٤٢٧/٢) وما بعدها.

الحقُّ الواضحُ المنيرُ. فعادوا يعكِفونَ على أصنامٍ لهمْ أقاموها في رؤوسِهمْ  
بدلاً من أنْ ينصبُوها أمامَ أعينِهمْ.





# إعْجَازُ الْقُرْآنِ

الْمُعْجزَةُ لُغَةٌ وَاصْطَلَاحٌ

مَزاياُ الْإِعْجَازِ الْقَرَانِيِّ

النَّظَرِيَّاتُ الْعَامَّةُ فِي بَيَانِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ

تَفْصِيلُ أَوْجَهِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ وَشَمْوَلُهَا



هذا الموضوع هو جوهر دراسات القرآن، ولبّيّها، وهو أهم قضية، يواجهها العقلُ الحديثُ، والمُشَفَّفُ في العصر الحاضرِ، وهي ترتبط ارتباطاً بالغاً في غاية التوثيق والقوّة بثقافة المسلم العامة، واللغوية خاصةً.

على أنّ قضية إعجاز القرآن تشمل بناء الإنسان العربي أو المسلم، من حيث هو إنسان قادرٌ على تذوق الجمال في الصورة، أو في الفكر، أو في الصورة والفكر جميعاً.

ومن هنا كانت معرفة إعجاز القرآن، وأسرار هذا الإعجاز، وحوانبه في القرآن أمراً لا يستغني عنه الدارس للعلوم الإسلامية، لأنّه الكبير في ثقافته، وفي تكوين ذوقه الأدبيّ، وإدراكه الجمالي.

**والمعجزة: مأخذة في اللغة من العجز**، وهو ضدُ القدرة، وأعجزُ الشيءِ، صيّرَه عاجزاً عنه، فهو معجز، ومعجزة، قال الحافظ ابن حجر: «وسميت المعجزة لعجزِها عن يقُولُونَ عندهم ذلك عن معارضتها، والهاء فيها للمبالغة»<sup>(١)</sup>.

**أما المُعجزة في الاصطلاح فهي:** «أمرٌ يجريه اللهُ على يد النبيِّ يفوقُ طاقاتِ البشرِ، ويخرجُ قوانينَ الطبيعةِ وخواصَ المادَّةِ، يتحدى النبيُّ به قومهُ، فلا يقدرُ أحدٌ على معارضته»<sup>(٢)</sup>.

ويُطلقُ على المُعجزاتِ (دلائل النبوة) و(أعلام النبوة)، ونحو ذلك، وهذه الألفاظُ إذا سُميّت بها آياتُ الأنبياءِ كانت أدلّ على المقصودِ من لفظِ

<sup>(١)</sup> فتح الباري (٦ / ٣٧٥).

<sup>(٢)</sup> بينات المُعجزة الخالدة ص ١٩.

**المُعْجِزات**، وهذا لم يرد لفظُ (**المُعْجِزات**) في القرآن الكريم، ولا في الأحاديث النبوية، وإنما ورد فيهما (**الآية**)، و(**البيان**) و(**البرهان**)<sup>(١)</sup>.

وتتنوع المُعْجِزات كثيرةً من نبيٍّ إلى نبيٍّ، ومن قومٍ لقومٍ، وذلك بحسب حال القوم الذي يبعثُ فيهم النبيُّ، ويُرسَلُ إليهم الرسولُ، فيجعلُ اللهُ تعالى المُعْجزة لكلَّ نبيٍّ وثيقةَ الصَّلةِ بخبرةِ قومِهِ، فكانَ كُلُّ نبيٍّ يتحدَّى قومُهُ بأفضلِ ما أتقنُوه وبرعوا فيه، ليعلَّموا أنَّ هذه المُعْجزة ليست مَا أتقنُوه ولا يمكن أن تبلغُها

---

(١) لوائح الأنوار البهية للسفاريني (٢٧٨/٢).

ونرى من المهم هنا بيان الفرق بين المُعْجزة والكرامة والسحر:

**أما المُعْجزة**: فهي أمرٌ خارقٌ للعادة يُجريه اللهُ تعالى على يدِ أنبيائه. كما عرفنا.

**وأما الكرامة**: فهي ما قد يقع على يدِ بعض الأنبياء الصالحين من أمرٍ خارقٍ. مثلَ ما حدث للسيدة مريم من تأييدِ اللهِ تعالى بحضورِ فاكهة الشتاء في الصيف وبالعكس. وغير ذلك. وشرط الكرامة صدق الاتّباع للشرع، لأنَّها في الواقع تأييدٌ من اللهِ تعالى للشرع وللنبيِّ نفسه.

**وأما السُّحرُ**: فهو أبعدُ شيءٍ عن المُعْجزة والكرامة، بل عن أن يكون أمراً خارقاً للطبيعة حقيقةً، وإنْ كان فيه غرابةً وعجائب. ويظهر الفرقُ فيه في شخص الساحر، وفي عمل السحر نفسه: فمما يفترق به الساحر عن الوالي ركوب متفسق والعصيان، حتى ترى الساحر أكذب الناس وأشدُّهم شرًا.

- وأما عمل السحر فقد يكون مستغرباً طريفاً، لكنَّه لا يخرج عن طاقةِ الإنس والجنّ، بل هو أمرٌ مقدورٌ عليه، لأنَّه يتَّبعُ على أسبابٍ إذا عرفها أحدٌ وتعاطها صنع مثلها أو أقوى منها، لذلك ما إنْ يواجهُ الساحر بالحقيقة حتى يذهب سداً، «ولا يُلْمِحُ الساحرُ حيث أتى»، ومن هنا خضع سَحْرُ فرعون لموسى عليه السلام، لأنَّهم وهم أعرفُ الناس بالسحر، كانوا أكثر الناس يقيناً بحقيقة معجزته، وصدق نبوته، فما وسعهم أمام جلال المُعْجزة الإلهية إلا أنْ خرُوا سجّداً، وقالوا: «آمنا بربِّ هارونَ وموسى».

طاقتهم، فيكون ذلك أدل على عجزهم وصدق نبئهم، فينادر إلى الإيمان أهل الصدق والاستعداد للحق، فلما كان قوم موسى برعوا في السحر وتفوقوا كانت معجزة موسى عليه السلام هي العصا تقلب حيّة وتلتف ما يأفكون، واليد يضمها إلى جناحه فإذا هي بيضاء للناظرين ...

ولما بعث عيسى عليه السلام في قوم برعوا في الطب جعل الله معجزته إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص.

ولما كان العرب قوم بيان ولسن، يقادون بقوتهم كانت معجزة النبي صلى الله عليه وسلم الكبرى هي القرآن الكريم.

وتنقسم المعجزات إلى قسمين:

#### القسم الأول - **المعجزات الحسية:**

مثل معجزة الإسراء والمعراج، وانشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابع النبي صلى الله عليه وسلم حتى روى المئين، وتكثير الطعام القليل، وقلب الحصى حية، وإحياء الموتى ...

#### القسم الثاني - **المعجزات العقلية:**

مثل الاخبار عن المغيبات، والقرآن الكريم.

#### الإعلام بإعجاز القرآن:

وقد أُعلن إعجاز القرآن على العالم من أعظم مصدر ثابت وهو (القرآن) نفسه، فقد نادى على رؤوس الأشهاد وفي كل جيل وقبيل يتحدى الناس بل العالم أن يأتوا بهم مثله، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَمَوَّلُهُ بِلَا يُؤْمِنُونَ \* فَلَيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤ - ٣٣].

فقد كَبَّلُهُمْ بِالعَجْزِ عَنْ هَذَا التَّحْدِي فَلَمْ يَفْعُلُوا مَا تَحْدَاهُمْ، فَجَاءُهُمْ بِتَخْفِيفِ التَّحْدِي فَتَحَدَّاهُمْ بِعَشْرِ سُورٍ فحسبٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتَّوْا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* قُلْ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ لِكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ عِلْمٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنَّ لِلَّهِ إِلَّا هُوَ فَهُلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣ - ١٤].

ثُمَّ أَرْخَى لَهُمْ حَبْلَ التَّحْدِي، وَوَسَّعَ لَهُمْ غَايَةَ التَّوْسِعَةِ فَتَحَدَّاهُمْ بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ، أَيْ سُورَةٍ وَلَوْ مِنْ قَصَارِ السُّورِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتَّوْا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]. وقد مَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ عَامًاً وَالْمُسْلِمُونَ قَلِيلٌ مُسْتَضْعِفُونَ، وَكَانَ الْوَحْيُ يَتَابَعُ وَهُوَ يَتَحَدَّاهُمْ، وَيَفْضُلُ عَجْزَهُمُ الَّذِي أَسْتَبَانَ وَظَهَرَ لِكُلِّ مَنْ لَهُ عَيْنٌ يُبَصِّرُ، وَأُدْنٌ تَسْمَعُ، وَعَقْلٌ يَعْيَى، وَقَطْعُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِلِى عَلَى التَّقْلِينَ كُلُّهُمْ مَنَافِذُ اللَّدَدِ بِهَذَا الإِعْلَانِ الْخَاصِّ: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُونُونَ وَالْجِنُونَ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يُؤْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَا كَانَ بَعْضُهُمْ لَبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإِسْرَاء: ٨٨].

وَقَدْ أَمَعَنَ الْقُرْآنُ فِي هَذَا التَّحْدِي وَأَكَّدَهُ فِي سُورَةِ الْبَقْرَةِ الْمَدِيَّةِ، فَتَحَدَّاهُمْ ثَانِيَةً بِسُورَةٍ مِنْهُ، وَأَكَّدَ عَجْزَهُمْ عَنْ ذَلِكَ بِالإِعْلَانِ عَلَى الْعَالَمِ أَكْمَمَ لِنْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ، وَلَنْ يَفْعُلُوهُ أَبَدًا: ﴿وَلَا كُنْتُمْ فِي رِيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَاتَّوْا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شَهِداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* فَإِنَّمَا تَفْعَلُوا وَلَا تَفْعَلُوا فَاتَّوْا النَّارَ الَّتِي وَقَدُّهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ [الْبَقْرَة: ٢٣ - ٢٤].

فكأنَّ هذا البلاغ القاطع الذي لا معقب له هو الغاية التي انتهى إليها أمر هذا القرآن، وأمر النِّزاع فيه، ليس مع قوم النَّجِي أو العرب فحسب، بل مع البشر جميعاً على اختلاف أسلوباتهم وألوانهم، وأنَّ القرآن معجزٌ، وأنَ الآيات الكثيرة، ثم الآيات القليلة، كلُ ذلك كان في تلاوته على سامعيه من العرب الدليل الذي يقطع بأنَّ هذا القرآن مفارقٌ لجنس كلام البشر في خصائص النَّظم والبيان.

وهذا هو البلاغُ الذي لا معقب له من بين يديه ولا من خلفه، فكلُ ذي اختصاص إذا وضعت بين يديه شيئاً لا تناهه قدرة أهل اختصاصه حكم بالعجز عن بلوغها وتناولها، وذلك واضحٌ مشاهدٌ للعيان، ووصف الإعجاز إذا ثبت للقرآن ثبت لأيٍّ سورة منه، فكان الواقع معلناً أنَ القليل من آيات القرآن والكثير منها كلُ ذلك متخصصٌ بخصوصية الإعجاز، ومنطوي على دليلٍ مستعينٍ قاهر يحکم له بأنه ليس من كلام البشر.

وهكذا نجد القرآن تحدى العرب أن يأتوا بمثل سورة واحدة من القرآن، ولو من قصار سوره، وإذا كانت أقصر سورة فيه هي الكوثر تتألف من ثلاثة آيات قصار علمتنا أن كل آية طويلة معجزة، وكل عدة آيات قصار، تبلغ سورة الكوثر أو أكثر من ذلك فهي معجزة كذلك.

وإذا علمت أن عدد آيات القرآن يزيد على ستة آلاف آية علمت كم عدد المُعْجزات في القرآن الكريم، فضلاً عن النظر فيما يحمله من أوجه الإعجاز، فتكون معجزاته بذلك كثيرة متنوعة يضيق عنها الحصر والتعداد.

## مزايا الإعجاز القرآني:

كانت معجزات الأنبياء السابقين خوارق مادية حسية وقعت ورأها الناس الذين حضروها في المكان والزمان الذي وقعت فيه تلك الخوارق الحسية، ثم مضت وانقضت، فهي تقيم الحجة على الأجيال القادمة بواسطة نقلها عنمن شاهدتها مباشرة بمعايتها.

أما الإعجاز القرآني فيمتاز على غيره بمزايا عديدة نذكر منها ما يلي:

١- إن المعجزة القرآنية معجزة عقلية عامة لـكُل العهود والأعصار، وستظل باقيةً إلى يوم القيمة، فالحججُ بها ملزمة وقت تنزيل القرآن على الرَّسول الكريم، كما أنها ملزمة في كل آنٍ بعده إلى أن يرث الله الأرضَ ومن عليها، لأنَّه معجزةٌ بيانيةٌ، والبيان متاحٌ لـكُل الناس، وهو معجزةٌ عقليةٌ، والعقل هبةُ الله وهبها لـكُل الناس<sup>(١)</sup>.

٢- إن القرآن لكونه معجزة بذاته فقد احتضن بخصوصية انفرد بها عن جميع المعجزات بل عن جميع البراهين والبيانات، يقول ابن خلدون<sup>(٢)</sup>: (إنَّ الخوارق في الغالب تقع معايرةً للوحي الذي يتلقاه النَّبِيُّ ويأتي بالمعجزة شاهدةً بصدقه، والقرآن هو بنفسه الوحي المُدَعَى، وهو الخارق المعجز، فشاهدهُ في عينه، ولا يفتقر إلى دليلٍ معاير له، كسائر المعجزات مع الوحي، فهو أوضح دلالة، لا تُحادِ الدليل والمدلول فيه، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «ما منْ نَبِيٍّ مِنْ

<sup>(١)</sup> قارن بالمعنى (٣٤٤/١٦). وفيه بيان عموم الإعجاز ، وتكفل الله بحفظه.

<sup>(٢)</sup> في مقدمته: ص ١٠٧-١٠٦ طبع مطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٢٩ هـ.

الأنبياء إلّا أُوتِيَ مِنَ الآياتِ ما مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَ  
وَحْيًا أُوحِيَ إِلَيَّ، فَأَنَا أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(١)</sup>.

٣ - وَثِمَّةٌ خصوصيَّةٌ أخرى باللغة الأهمية في مزايا المُعْجزَة القرآنية على  
غيرها من المُعْجزَاتِ الحسَيَّةِ، تكمن في طبيعة الإعجاز في كلٍّ:  
- فِي الإعجاز في الخوارق الحسَيَّةِ هو أَمْوَرٌ مُخالفةٌ لِلمعتادِ من سنن الكون،  
وقواعد الطبيعة، يدركها الناس بمحَرَّدِ مخالفتها لقوانين الطبيعة ويعلمون بإعجازها  
وصدق النبي الذي ظهرت على يديه<sup>(٢)</sup>.  
- أمَّا إعْجاز القرآن فإنَّه لم يكن بواسطة مُخالفة السنن الكونية، وصرف  
الإنسان عنها، بل إنَّ معجزة هذا القرآن يدركها الإنسان بمقدار إعمال عقله  
وفهمه، بل إنه كلما ازدادَ معرفةَ بسنن الكون والطبيعة ازدادَ يقينًا بإعجاز هذا  
القرآن.

ولذلك واجه القرآن عناد المشركيَّن وتطلبهِم للمعجزات بخصوصيَّة القرآن  
الكبيريَّ التي تجعله يكفي عن كلِّ معجزة، فقال عز وجلَّ:

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، بابٌ: كَيْفَ نَزَّلَ الرَّحْمَنُ، وَأَوَّلُ مَا نَزَّلَ (٤٩٨١) ومسلم في الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١٥٢).

(٢) ننبئ هنا إلى أنَّما ليست مُخالفةً للعقل، ولا هي مستحيلة في النَّظر العقليِّ المجرَّد، أيَّ أَنَّ تتابع الأحداث في الطبيعة، وإنْتاج الأسبابِ للمسبيات ليس واجباً عقلياً، مثل كون الواحد والواحد يساوي اثنين، لكن العادة جرت على ذلك بحكمة الله تعالى وتدبيره، وقد يتحقق السبب ولا يتتحقق المسبب لمانع، أو لتدخل قانون طبقيٍّ أعلى من الأول، وهكذا يجري الله المُعْجزَاتِ وفق سنن إلهية خاصة غير معروفة للبشر ، ولا دخلة في تعلمهم ، وهو خالق العالم ومدبره ، ذلك لتحقيق حكمته وإرادته في تأييد رسالته وأنبيائه .

﴿وَقَالُوا لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّنْ رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَذَرْتِنَا مُبِينٌ \* أَوْلَمْ يَكُنْهُمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتَلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذَكْرًا لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١]

### شهادة العرب بإعْجَازِ القرآنِ:

يسجل التاريخ للأمة العربية مأثرة ليست لأمة غيرهم، هي رسوخهم الأدبي العريق منذ أقدم العصور، التي تصل إلى أعماق العصر الجاهلي، حتى لم يعلم لهم شعر غير ناضج، بل إنهم قد أوتوا من لطف تذوق البيان ومن العلم بأسراره ووجوهه ما يجعلهم يميزون بالبداهة بين الغث والسمين، والأفصح والفصيح، تميزاً فطرياً، كما نميز الحلو من الحامض، واللون من غيره من الألوان، لا يسع أحداً منهم أن يخون فيه الأمانة، أو يجور في الحكم، كما تشهد بذلك منافساتهم وحكوماتهم الأدبية في المحاجع العامة، والمواسم السنوية الحافلة، التي تقام في الأسواق، ويتبارى الشعراء والخطباء، ويحكم بين المتنافسين والمتبارين الحكام. وهكذا لما أمر الله نبيه أن يبلغ دعوته للناس راح يتبع أفراد عشيرته وقبمه، يقرأ عليهم ما نزل عليه من القرآن، ولم يكن برهانه إلا دليلاً واحداً هو هذا الذي يتلوه عليهم من قرآن يقرؤه، لكنهم أبووا وجحدوا، فدخل عليهم التحدي من كافة أقطار قدرتهم البشرية، وطالبهم أن يأتوا بمثله، لكنهم نكسوا عن معارضته بشيء ينسجونه من كلامهم أو يكون من نظم غيرهم، فإن القرآن وسّع عليهم، ولم يقل لهم «قولوا مثله» بل قال: ﴿فَلَيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ [الطور: ٣٤]، وقال: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨] فما كان بعد هذا أسهل عليهم من النظر في مجدهم اللغوي المؤثر يختارون منه ما يجدونه كفؤاً للمعارضة وإزالة مرارة

التحدي، لكنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك، بل انفضّوا يواجهون الإعجاز والتحدي باعتلالات هزلة، واعتذارات متهافتة، بأنه أساطير الأولين، أو قول شاعر مجنون أو نحو ذلك من التعلّلات التي لا تغنى عن الحق شيئاً. مما يدلّ أبلغ الدلالة على عجزهم عن معارضته، ولا سيما أن فيها ذبّاً عن أدیانهم ودفعاً عن آهتهم التي صارت أقل شيء، وتخلصاً من خزي السكوت وعار المزيمة<sup>(١)</sup>.

وقد صدرت عن سادة العرب الفصحاء البلغاء اعترافات صريحة بإعجاز القرآن، أملتها عليهم سجيتهم العربية، وطبعتهم الفنية التي لا يمكن معها جور ولا محاباة، وإن كانوا خالفين للقرآن ودعوه.

هذا الوليد بن المغيرة من زعماء مكة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبو جهل، فأتاهم فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً، قال: لم؟ قال ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله!! قال الوليد: قد علمت قريش أني أكثرها مالاً، قال أبو جهل: فقل فيه قوله يبلغ قومك أنك منكر له وأنك كاره له.

قال الوليد: وماذا أقول، فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجز ولا قصيدة مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة وإن عليه طلاوة، وإن له ثمر أعلاه، معدق أسفله، وإن له يعلو وما يعلى، وإن له يحطم ما تحته. قال أبو جهل: لا يرضي عنك قومك حتى تقول فيه، قال فدعني أفكّر. فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره<sup>(٢)</sup> من غيره، فنزلت:

(١) ينظر كتاب إعجاز القرآن للإمام أبي بكر محمد بن الطيب الباقياني ص ٢٨٩.

(٢) ل天涯 ما قبله: لتنتفع به، طلاوة: رونقاً وحسناً، معدق: كثير الماء. يأثره: ينبله.

ذُرْبِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً \* وَجَعَلْتُ لَهُ مَا لَامَدُوداً \* وَبَنِينَ شَهُوداً \* وَمَهَدْتُ لَهُ  
 تَمَهِيداً \* ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ \* كَمَا إِنَّهُ كَانَ لَا يَاتَنَا عَنِيداً \* سَارِهُهُ صَاعُوداً \* إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَرَ \*  
 فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَرَ \* ثُمَّ قُلَّ كَيْفَ قَدَرَ \* ثُمَّ نَظَرَ \* ثُمَّ عَبَسَ وَسَرَ \* ثُمَّ دَبَرَ وَاسْتَكَبَ \* فَقَالَ إِنْ  
 هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثِرُ ﴿٢٤﴾ [المدثر: ١١ - ٢٤].

فليس اعتراف أبلغ مما صدر عن الوليد بن المغيرة، فهو على رياسته وتقديمه  
 في العلم بالفصاحة ينزيه القرآن عن مشابهة شيء من فنون القول الممكنة للعرب.  
 ويخلّي البيان عن رفعة مقامه عن هاتيك الأفانيين حتى تندحر جميعها دونه: «إنه  
 يعلو وما يعلى وإنه ليحطّم ما تخته».

وروى الإمام محمد بن إسحاق في (كتاب السيرة) أنّ عتبةً بْنَ ربيعةً، وكان  
 سيداً، قال يوماً وهو جالسٌ في نادي قريشٍ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم  
 جالسٌ في المسجد وحده: يا معاشر قريش، ألا أقوم إلى محمدٍ فأكلمه وأعرض  
 عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكتف عننا؟ وذلك حين أسلم  
 حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتذمرون ويكتسرون، فقالوا:  
 بل يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى  
 الله عليه وسلم، فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السلطة<sup>(١)</sup> في  
 العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرققت به  
 جماعتهم وسفنت به أحلامهم وعابت به آهانهم ودينهم وكفرت به من مضى

<sup>(١)</sup> السلطة: الشرف.

مِنْ آبائِهِمْ، فَاسْمَعْ مِنِيْ أَعْرِضْ عَلَيْكَ أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلَّكَ تَقْبَلُ مِنْهَا بَعْضًا.  
قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ، أَسْمَعْ».

قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تُرِيدُ إِمَّا جِهْتَ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَا لَا جَمِعْنَا  
لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَا لَا، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ شَرْفًا سَوْدَنَاكَ عَلَيْنَا،  
حَتَّى لَا نَفْطَعَ أَمْرًا دُونَكَ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ مُلْكًا مَلْكُنَاكَ عَلَيْنَا، وَإِنْ كَانَ هَذَا  
الَّذِي يَأْتِينِكَ رِئْيَا<sup>(١)</sup> تَرَاهُ لَا تَسْتَطِعُ رَدَّهُ عَنْ نَعِسِكَ، طَلَبْنَا لَكَ الْطَّبَّ، وَبَدَلْنَا فِيهِ  
أَمْوَالَنَا حَتَّى نُبَرِّئَكَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا غَلَبَ التَّابِعُ<sup>(٢)</sup> عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُداوَى مِنْهُ أَوْ  
كَمَا قَالَ لَهُ: حَتَّى إِذَا فَرَغَ عَتْبَةُ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَمِعُ مِنْهُ،  
قَالَ: «أَقْدَدْ فَرَعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَاسْمَعْ مِنِيْ»، قَالَ: أَفْعَلُ،  
فَقَالَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَالَ: ﴿ حَمْ \* تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \* كِتَابٌ فُصِّلَتْ  
آيَاتُهُ فِرَانًا عَرَبَيًا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ \* بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَاعْرَضْ أَكْثَرُهُمْ فِيهِمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [فَصِّلَتْ: ١ -  
٤] ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا يَقْرُؤُهَا عَلَيْهِ. فَلَمَّا سَعَهَا مِنْهُ  
عَتْبَةُ، أَنْصَتَ لَهَا، وَأَلْقَى يَدِيهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا يَسْمَعُ مِنْهُ، ثُمَّ انْتَهَى  
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى السَّجْدَةِ مِنْهَا، فَسَجَدَ ثُمَّ قَالَ: «قَدْ سَمِعْتَ  
يَا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ، فَأَنْتَ وَذَاكَ».

فَقَامَ عَتْبَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: تَحْلِفُ بِاللَّهِ لَقَدْ جَاءَكُمْ أَبُو  
الْوَلِيدِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ. فَلَمَّا جَلَسَ إِلَيْهِمْ قَالُوا: مَا وَرَاءَكَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟  
قَالَ: وَرَأَيْتِ أَنِّي قَدْ سَمِعْتُ قَوْلًا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَاللَّهِ مَا هُوَ بِالشِّعْرِ، وَلَا

<sup>(١)</sup> الرئي (يُفتح الراء وكسرها) : ما يَرَاهُ إِلَى لِلْإِنْسَانِ مِنَ الْجِنِّ.

<sup>(٢)</sup> التابع: من يَتَبعُ النَّاسَ مِنَ الْجِنِّ.

بِالسُّخْرِ، وَلَا بِالْكِهَانَةِ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَطِيعُونِي وَاجْعَلُوهَا بِي، وَخَلُّوا بَيْنَ هَذَا الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ فَاعْتَزِلُوهُ، فَوَاللَّهِ لَيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْهُ نَبِأً عَظِيمً، فَإِنْ تُصِيبُهُ الْعَرَبُ فَقَدْ كُفِيتُمُوهُ بِعِيرَكُمْ، وَإِنْ يَظْهُرْ عَلَى الْعَرَبِ فَمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ، وَعِزْزُهُ عِزْرُكُمْ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسَ بِهِ، قَالُوا: سَحَرَكَ اللَّهُ يا أَبا الوليدِ بِلِسَانِهِ، قَالَ: هَذَا رَأَيِّي فِيهِ، فَاصْنَعُوا مَا بَدَا لَكُمْ<sup>(١)</sup>. انتهى.

ولقد تَحَيَّرَتِ الْعَرَبُ فِي شَأْنٍ هَذَا الْقُرْآنَ لِأَنَّهُ نَزَّلَ بِلِسَانِهِمْ، لِسَانُ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، ثُمَّ هُمْ يَجْدُونَهُ مُبِينًا لِكَلَامِهِمْ، فَحَارُوا مَاذَا يَقُولُونَ فِيهِ مِنْ طُغْيَانِ الْلَّدُدِ وَالْخُصُومَةِ.

وَلِهَذَا فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَخافُونَ أَنْ يُفْلِتَ الزَّمَانُ مِنْ أَحَدِهِمْ فَيُدْخِلَ فِي الْإِسْلَامِ لِتَأْثِيرِهِ بِعَظَمَةِ الْقُرْآنِ، حَتَّى قَالُوا لِبَعْضِهِمْ كَمَا سَجَلَ الْقُرْآنُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْعَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تُعْلَمُونَ﴾ [فَصِّلتٌ: ٢٦].

فَكَانُوا إِذَا تَلَأَ النَّبِيُّ الْقُرْآنَ عَلَيْهِمْ صَخَبُوا وَصَفَّقُوا كِيلًا يَتَمَكَّنُ النَّاسُ مِنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ بِهَذَا الضَّجِيجِ، فَكَانَتْ طَرِيقَةُ فِي الْعَلْبَةِ طَرِيفَةً ... !!

وَالْحَقِيقَةُ الَّتِي يَشَهِّدُ لَهَا الْوَاقِعُ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَبُو بَكْرِ الْبَاقِلَانِيُّ<sup>(٢)</sup>: (إِنَّ الْقَوْمَ لَمْ يَذْهَبُوا عَنِ الإِعْجَازِ، وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا أَحْوَالَهُمْ، فَكَانُوا بَيْنَ جَاهِلٍ وَجَاهِدٍ، وَبَيْنَ كَافِرٍ نَعْمَةٍ وَحَاسِدٍ، وَبَيْنَ ذَاهِبٍ عَنْ طَرِيقِ الْإِسْتِدَلَالِ بِالْمُعْجِزَاتِ، وَحَائِدٍ عَنِ النَّظَرِ فِي الدَّلَالَاتِ، وَنَاقِصٍ فِي بَابِ الْبَحْثِ، وَمُخْتَلِّ الْآلَةِ فِي وَجْهِ الْفَحْصِ، وَمُسْتَهِينٍ بِأَمْرِ الْأَدِيَانِ، وَغَاءٍ تَحْتَ حِبَالَةِ الشَّيْطَانِ،

<sup>(١)</sup> سيرة ابن هشام (١/٢٩٣-٢٩٤) وينظر: تفسير ابن كثير (٤/٩٠-٩١).

<sup>(٢)</sup> في إعجاز القرآن ص ٤٣٠-٣٠٥.

ومقدوف بخذلان الرحمن. وأسباب الخذلان والجهالة كثيرة ودرجات الحرمان مختلفة.

وهل جعلت بإزاء الكفرة، مثل (لبيد بن ربيعة العامري) في حسن إسلامه، وكعب بن زهير في صدق إيمانه، وحسان بن ثابت، وغيرهم من الشعراء والخطباء الذين أسلمو؟.

على أن الصدر الأول ما فيهم إلا نجم زاهر، أو بحر زاخر) انتهى.

وهذه أمثلة مما أشار إليه الإمام الباقياني:

روى مسلم في (صححه)<sup>(١)</sup> عن أبي ذر رضي الله عنه حديثاً طويلاً عن إسلامه، وفيه: أنَّ أنيساً أخاً أبي ذر دَهَبَ إلى مكَّةَ ثُمَّ عادَ فَقَالَ لِأَبِي ذِرٍ: قَالَ: لَقِيتُ رَجُلًا إِمَّكَّةَ عَلَى دِينِكَ، يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ، قُلْتُ: فَمَا يَقُولُ النَّاسُ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: شَاعِرٌ، كَاهِنٌ، سَاحِرٌ، وَكَانَ أَنِيْسُ أَحَدَ الشُّعَرَاءِ. قَالَ أَنِيْسُ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهْنَةِ، فَمَا هُوَ بِقَوْلِهِمْ، وَلَقَدْ وَضَعْتُ قَوْلَهُ عَلَى أَقْرَاءِ الشِّعْرِ، فَمَا يَلْتَهِمُ عَلَى لِسَانِ أَحَدٍ بَعْدِي، أَنَّهُ شِعْرٌ، وَاللَّهُ إِنَّهُ لصَادِقٌ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. وَنَسُوقُ لَكَ تَصْرِيْحَ جُبِيرٍ بْنِ مُطْعِمٍ بِأَنَّ سَبَبَ تَحُولِ قَلْبِهِ إِلَى الإِسْلَامِ، أَنَّهُ أَصْفَى إِلَى تِلَاوَةِ الرَّسُولِ سُورَةَ (الطور) فِي صَلَةِ الْمَغْرِبِ.

روى البخاري<sup>(٢)</sup> عن محمد بن جبير، عن أبيه، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم: «يقرأ في المغرب بالطور، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي».

<sup>(١)</sup> في فضائل الصحابة، باب فضائل أبي ذر رضي الله عنه (٢٤٧٣) وقوله (على دينك) أي مثلك يعبد الله، ولمراد بقوله (أقراء الشعر) طرقه وبخوره، وبقوله (فما يلائم ... أنه شعر) لا يوافق نسق الشعر.

<sup>(٢)</sup> في المغازي والسير، قبيل باب تسمية من سمى أهل بدر (٤٠٢٣).

وهذا عمرٌ - وكان في جاهليته أشد الناس عداءً للإسلام وأذى للمسلمين  
 - راح يمضي في بعض طرق مكَّةً متوشّحاً سيفه. فلقيه نعيم بن عبد الله وكان  
 يكتم إيمانه، فسأله أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابئ الذي فرّق  
 أمر قريش وسفّه أحلامها وعاب دينها وسب آهتها فأقتلته، فقال نعيم: لقد  
 غرتك نفسك.. أفلأ ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم قال: وأي أهل بيتي؟  
 قال: خنتك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله  
 أسلما وتابعا محمداً على دينه. فتحول عمر إلى بيته. وكان خباب بن  
 الأَرْتَ يعلمها وزوجها سورة طه من صحيفة معه. فلما سمعوا صوت عمر اختبأ  
 خباب. فلما دخل عمر قال: ما هذه الهيئة التي سمعت؟ قال له: ما سمعت  
 شيئاً، قال: بلى والله لقد أخبرت أنكم تابعتما محمداً على دينه، وبطش بصهره  
 سعيد، فقامت فاطمة لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها، فقال لها: نعم قد  
 أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك. فلما رأى ما بأخته من الدم، ندم  
 وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتم تقرؤون آنفاً، أنظر ما هذا  
 الذي جاء به محمد، فاستحلفته أن يردها سالمة وطلبت إليه أن يغتسل ففعل  
 فلما أخذ الصحيفة قرأ فيها صدر السورة: ﴿ طه \* ما أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتُشْقِي \*  
 إِلَّا تَذَكَّرَ مَنْ يَخْشَى \* تَنْزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ [طه: ١ - ٤].  
 ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه. فلما سمع ذلك خباب خرج إليه  
 فقال له: يا عمر والله إبني لأرجو أن يكون الله خصك بدعة نبيه فإني سمعته  
 أمس يقول: «اللهم أいで الإسلام بأبي الحكم بن هشام، أو بعمير بن الخطاب»  
 فالله الله يا عمر..

فقال له عمرٌ: فدْلَنِي يا خَبَابُ عَلَى مُحَمَّدٍ حَتَّى آتِيهِ فَأَسْلِمَ، فَدَلَّهُ فَذَهَبَ إِلَيْهِ فَأَعْلَمَ إِسْلَامَهُ<sup>(١)</sup>.

### شهادة غير المسلمين والأجانب يُاعْجَاز القرآن:

وفي عصرنا هذا نجد المُصنفين من غير المسلمين يشهدون بعظمتِ القرآن وإعجازِه، ويعرفون للقرآن بذلك، فهذا الدكتور ماردريس - المستشرق الفرنسي - وقد كلفته وزارتا الخارجية والمعارف الفرنسية بترجمة (٦٢) سورة من السور الطوال التي لا تكرار فيها، ففعل، وقدَّم في مقدمة ترجمته الصادرة سنة (١٩٢٦م) نتيجة عملِه الطَّوِيل الصَّحِيم بمحنة الشهادة للقرآن فقال:

«أما أسلوب القرآن فهو أسلوب الخالق جلَّ وعلا. فإن الأسلوب الذي ينطوي على كنه الكائن الذي صدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلا إلهياً. والحق الواقع أن أكثر الكتاب شكاً وارتياباً قد خضعوا لسلطان تأثيره...».

«ذلك أن هذا الأسلوب الذي طرق في أول عهده آذان البدو كان نثراً جد طريف، يفيض جزالة في اتساق نسق، متجانساً مسجعاً، لفعله أثر عميق في نفس كل سامع يفقه العربية. لذلك كان من الجهد الضائع غير المشرِّم أن يحاول الإنسان أداء تأثير هذا النثر البديع «الذي لم يسمع بمثله» بلغة أخرى.. وخاصة الفرنسية القاسية الضيقة «التي لا تتسع للتعبير عن الشعور».. زد على ذلك أن اللغة الفرنسية ومثلها جميع اللغات العصرية ليست لغة دينية. وما استعملت فقط للتعبير عن الألوهية»<sup>(٢)</sup>.

<sup>(١)</sup> سيرة ابن هشام، حديث آخر عن إسلام عمر (١ / ٣٤٣ وما بعدها).

<sup>(٢)</sup> الوحي الحمدي ص ٢١-٢٢ وانظر بينات المعجزة الخالدة ص ١٨٦-١٨٧.

**قال مصطفى صادق الرافعي:** «وصرح لنا بذلك - أي بِإعْجَازِ القرآن - أديب هذه الملة وبليغها الشيخ إبراهيم الياجي الشهير، وهو أبلغ كاتب، أخرجه المسئلية، وقد أشار إلى رأيه ذاك في مقدمة كتابه (نجمة الرائد)، وكذلك سأّلنا شاعر التاريخ المسيحي الأستاذ خليل مطران، ولا نعرف من شعاء القوم من يختاره فأقر لنا بمثل ما أقر به أستاذه الياجي، والأمر بعد ذلك «المنصف»، والعقل «المنصف» ليس له دين إلا الحق. والحق واحد لا يتغير»<sup>(١)</sup>.

كذلك الأديب الشاعر المعاصر نقولا حنا قد تلا القرآن، فجذبه إليه وشغل قلبه وفؤاده، وزاده إيماناً بالله على إيمانه، وقدف في أعماق فكره وضميره يقيناً راسخاً بأن القرآن هو كتاب الله المعجز العزيز وأنه يسمى على سائر معجزات الأنبياء، فهو معجزة إلهية خالدة تبرهن بنفسها على نفسها. وأعلن ذلك في قصيدة من روائع الشعر، عنون لها بهذا العنوان «من وحي القرآن» وقال في هذه القصيدة:

يقولون ما آياته، ضل سعيهم  
وآياته - ليست تُعدُّ - عظام<sup>(٢)</sup>

كفى معجز الفرقان للناس آية  
علا وسما كالمجم ليس يُرام

فكل بلية عنده ظل صامتاً  
كأن على الأفواه صُرَّ كمام<sup>(٣)</sup>

<sup>(١)</sup> عن وحي القلم (بتصرف يسير) ص ١٥-١٦.

<sup>(٢)</sup> «ليست تُعدُّ» جملة معتبرة بين المبتدأ «آياته» والخبر «عظام». المراد أن آيات النبي عظام، أي معجزاته عظيمة جداً، وكثيرة لا يحيط بها العدد، والإحصاء.

<sup>(٣)</sup> الصر: الشد أو الربط. الكمام: ما يُكمِّم به فم البعير لعله يأكل أو يعض.

وشاء إله العرش بالناس رحمة  
وأن يتلاشى حقدهم وخصام

ففرق ما بين الصالحة والمهدى  
بفرنان نور لم يشبه قتام

\*\*\*



# النَّظَرِيَّاتُ الْعَامَّةُ فِي بَيَانِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ

نظريّة تفسير الإعجاز بالصرف

نظريّة إعجاز نظم القرآن

نظريّة إعجاز النظم الموسيقي في القرآن

نظريّة الإعجاز بالتصوير الفنّي

**مدخل:** لقد حاول العلماء عبر العصور الغوص في أعماق القرآن والبحث عن تفسير إعجازه، فرأوا فيه أوجه إعجاز يُعَزِّزُ استقصاؤها، وكلما فصلَ باحث منها أوجهاً وظن أنه بلغ الغاية جاء من استدرك عليه وأضاف إلى ما ذكر سابقه ما يضافيه أو يفوقه.

وقد كان من أعظم هذه المحاولات تلك الجهود التي بذلت لإيجاد نظرية إجمالية تكون هي الأصل الذي يمكن تفريغ هذه الأوجه المعجزة الكثيرة، وكان ذلك مجال اجتهاد قدّم لنا نظريات لها غاية الأهمية في الموضوع، تفيد القارئ أيماناً فائدة في فهم إعجاز القرآن وتسهيل الدخول في تفاصيل أوجه وجوانب هذا الإعجاز.

غير أنّ واحداً من أصحاب هذه النظريات شدّ شذوذًا غريباً نائياً به عن الحقّ، وباعداً جانب الصواب، وهو المتكلّم الفيلسوف أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النّظام (ت: ٢٢٤هـ) القائل بمذهب الصرفة، فلنبدأ بشرح مذهبه ونقديه ثم ننتقل إلى النّظريات الأخرى:

### **نظريّة تفسير الإعجاز بالصرفة**

على الرغم من إجماع العلماء على إعجاز القرآن، وأن إعجازه وصف ثابت له، وعلى الرغم مما علِمَ يقيناً من عجز العرب عن أن يأتوا بمثل القرآن، وأنهم عللوا عجزهم بما أدهشهم من حلاوة اللفظ وطلاوة المعنى والتركيب، وعمق ما اشتمل عليه حتى إنه مُعدِّق في جذوره، وكلما تعمق فيه القارئ رأى ما لا يصل إليه البشر. على الرغم من ذلك كله وغيره فقد شد بعض المتكلمين وهو أبو

إِسْحَاقُ النَّظَامُ مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ، وَنَحْيٌ فِي هَذِهِ الْمُسَأَلَةِ مُنْحَى اِنْفَرَدَ بِهِ دُونَ أَهْلِ الْعِلْمِ  
قَاطِبَةٌ، وَعُرِفَ رَأْيُهُ بِيَنْهُمْ بِـ«الصَّرْفَة».

**وَالصَّرْفُ لِغَةً:** رُدُّ الشَّيْءِ عَنْ وَجْهِهِ، **وَالصَّرْفَةُ:** عَلَى وزَنِ فَعْلِهِ اسْمُ الْمَرْأَةِ.  
**وَالصَّرْفَةُ اصطلاحاً:** تَعْنِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى صَرَفَ الْعَرَبَ عَنْ مَعَارِضَةِ الْقُرْآنِ  
وَسَلَبَ عِقْوَلَهُمْ عَنْهَا، وَكَانَتْ فِي مَقْدُورِهِمْ لَكِنَّ عَاقِبَهُمْ أَمْرٌ خَارِجٌ، فَصَارَ  
مَعْجَزَةً كَسَائِرِ الْمُعْجَزَاتِ<sup>(١)</sup>.

وَقَدْ فَسَرَ النَّظَامُ إِعْجَازَ الْقُرْآنِ بِهَذَا وَقَالَ يَشْرِحُ رَأْيَهُ: «إِنَّ اللَّهَ مَا أَنْزَلَ الْقُرْآنَ  
لِيَكُونَ حَجَّةً عَلَى النُّبُوَّةِ، بَلْ هُوَ كَسَائِرُ الْكِتَابِ الْمُنْزَلِ لِبِيَانِ الْأَحْكَامِ مِنَ الْحَلَالِ  
وَالْحَرَامِ، وَالْعَرَبُ إِنَّمَا لَمْ يُعَارِضُوهُ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى صَرَفَهُمْ عَنْ ذَلِكَ، وَسَلَبَ عِلْمَهُمْ  
بِهِ» اهـ.

وَجَدِيرٌ بِالذِّكْرِ أَنَّ هَذَا القَوْلُ لَا يَدْخُلُ فِيهِ عَنْصُرُ الطَّعْنِ فِي الْقُرْآنِ، وَلَا كَانَ  
فِي قَصْدِ صَاحِبِهِ مَا يَحْوِمُ حَوْلَ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ يَعْرَفُ بِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ وَيَشْهُدُ بِأَنَّهُ مِنْ  
عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، إِلَّا أَنَّهُ شَدَّ فِي تَفْسِيرِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ.

وَإِنَّ إِعْجَازَ الْقُرْآنِ الْبَلَاغِيِّ وَسُمُّوَّهُ الْبَيَانِيِّ عَنْ أَنْ تَبْلُغَهُ طَاقَةُ الْبَشَرِ أَمْ  
ظَاهِرُ غَايَةِ الظُّهُورِ، وَلَكِنَّ التَّقْلِيسَفَ وَبَعْدَ النَّظَامِ عَنْ مَعَانِي أَسَالِيبِ الْبَيَانِ  
وَاسْتِغَالَهُ بِالْأَسَالِيبِ الْفَلْسُفِيَّةِ هُوَ الَّذِي أَدَى إِلَى وَقْوَعِهِ فِي هَذَا الْخَلْطِ الْغَرِيبِ،  
إِنَّ الْفَلْسُفَةَ الَّتِي قَدْ «تُسْيِطُرُ عَلَى عِقُولِ بَعْضِ النَّاسِ» - كَمَا يَقُولُ الْعَالَمُ أَبُو  
زَهْرَةَ - وَلَا تَكُونُ لَهَا ثَمَرَةٌ نَاضِحةٌ قَدْ يَتَّجَهُونَ بِهَا إِلَى كُلِّ مَا يَرَوْنَهُ بَدْئِيًّا فِي  
الْتَّفَكِيرِ، سَوَاءً أَكَانَ مَتَّصِلًا بِالْحَقِّ الْجَرِيدَ أَمْ لَمْ يَكُنْ مَتَّصِلًا، وَسَوَاءً أَكَانَ مَتَّفِقاً

<sup>(١)</sup> البرهان (٩٣/٣)، والإتقان (١١٨/٢).

مع الإيمان والواقع ألم يكن، بل إنَّ المُتفلسفين رَيْماً اتجهوا إلى الفكرة، لا لأصالتها، ولكن لغرابتها، ولا لأنها لا بد منها لتحقيق الحق وإبطال الباطل، ولكن للترف العقلي لا يفرقون بين أمر يتصل بالإيمان، وأمر لا صلة له بالإيمان»<sup>(١)</sup>.

وقد لقي هذا الرأي الرَّد الشَّدِيد، والنَّقد اللاذع من كافة أئمَّة البلاغة والبيان، من مختلف المذاهب حتى المعتزلة أنفسهم، ومنهم تلميذه الجاحظ (ت: ٢٥٥ھـ)، والذي كان معجباً بشخص أستاذِه لكنَّه يعيث عليه كما قال: «عَيْبُهُ الَّذِي لَا يفارقه وَهُوَ سوءُ ظنِّه وَقِياسُهُ الْعَارِضُ وَالْخَاطِرُ السَّابِقُ الَّذِي لَا يوْثِقُ بِمُثْلِه...» والجاحظ شيخ الأدباء وصَيْرَفَ في البيان غير مُنزاً، ولم يكن ردَه على أستاذِه ردَّ المحاور المجادل، لكنَّه ردَ عليه بالعمل، فكان أول من أَلْفَ في إعْجاز القرآن من الناحية البينية، ليكون الرُّد على الصَّرْفَةِ عملياً ببيان الإعجاز الذاتي للقرآن، بل كان الجاحظ أول من يبلغنا عنه هذا التعبير: «نظم القرآن».

وإنَّ الدَّلائل على بُطْلَانِ مذهبِ الصَّرْفَةِ قائمة ثابتة مأخوذه من الدلائل القرآنية والواقع التاريخية والموازنات الحقيقة الثابتة، نذكر منها ما يلي:

١ - دلالة القرآن: فقد وصف الله تعالى القرآن بأوصاف ذاتية تجعله في منزلة لا تصل إليها معجزات أخرى، مما يثبت كون إعْجاز القرآن ذاتياً. يقول الله عز وجل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْتَشِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبِّهِمْ ثُمَّ تَابُونَ جُلُودُهُمْ وَقُوَّهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

<sup>(١)</sup> المعجزة الكبرى ص ٧٨.

وإذا كان بهذه الأوصاف أَفْيَقَالُ بعد ذلك أن الناس يستطيعون أن يأتوا بمثله .؟؟

وقال تعالى: ﴿ قُلْ لِئِنْ اجْمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَكُوَّا نَبَعْضُهُمُ لَبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

فلو لم يكن إعجاز القرآن ذاتياً لقيل: «لو اجتمعوا لما انعقدت لهم عزيمة على الإِتِّيَانِ بمثله...».

ولو سُلِّيوا القدرة لم يبق لهم فائدة من اجتماعهم، منزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى بأمرٍ يُختلفُ بذكره.

٢ - قد عرفنا من قبل شهادات العرب بروعة بيان القرآن، وإعجا بهم وتحيرهم من فصاحته وبيانه، فكيف يكون عجزهم لسلب قدرتهم عنه، وقد أحسوا من أعماقهم سُمُّوه إلى علياء الإعجاز عن أن تناهه قدرة البشر.

٣ - أنه وقعت محاولات من بعض الأدعياء لمعارضة القرآن، كالذي فعله مُسَيْلَمَةُ الْكَذَابُ، وسجاحُ، وغيرها وإن كان الذي أتوا به لعنة في جبينهم أبداً الدهر وخزيأ لهم مدى الأزمان. فإن قيل لهم هذا يرجع على مذهب الصرف بالبطلان والسقوط.

ولا نطيل عليك بالأمثلة خشية أن يقل عليك سخفه وتفاهته، مثل قول مُسَيْلَمَة: «صِفْدَاعُ بنتُ ضفدعين، نقى ما تنقين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدررين، لنا نصف الأرض ولقربيش نصفها، ولكن قريشاً قوم يعتدون».«

وكان يقول: «والمبديات زرعاً، والحاصلات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والثارات ثرداً، واللقمات لقماً، إهالةً وسمناً، لقد فضلتكم على أهل الوبِر وما سبقكم أهل المدرِّر، ريفكم فامنعواه، والمُعتمر فآووه والباغي فناوئوه».

وليس يخفى على ذي عقل أو إنسان له مسكة من ذوق سخف هذا الكلام، واعتماده على سجع الكهان القديم، غير أن العصبية القبلية، وحمية الجاهلية لمنافسة قريش جمعت حوله من اجتماع، حتى قالوها كلمة ذهبت مثلاً في عnad الحق البالغ غاية الظهور: «كذابٌ ربيعة أحب إلينا من صادق مُضر»<sup>(١)</sup>. على أنه مهما يكن من ظهور ضعف القول بالصرفة وبطلانه، فإنّا نشكر للنظام شذوذه هذا وإغراق تفسيفه في مسألة إعجاز القرآن، لأنّها أدّت إلى خيرٍ كثيـرٍ وتقدـم علمـيـّ كبيرـٍ كان هو السبـب فيهـ، فقد راح العلمـاء يغوصـون أعمـاقـ كلامـ العـربـ، وأسرـارـ بـيانـ القرـآنـ وإعـجازـهـ حتـىـ أدىـ ذـلـكـ إـلـىـ إـنشـاءـ عـلـومـ الـبـلـاغـةـ الـعـرـبـيـةـ فـيـ ظـلـ الـقـرـآنـ، وجـوانـبـ الـبـلـاغـةـ فـيـ بـيـانـ الـفـصـحـاءـ، وـقـصـيدـ الـبـلـاغـاءـ وـالـشـعـراءـ، كـمـاـ يـقـولـ المـشـلـ «رـبـ ضـارـةـ نـافـعـةـ»ـ، فـكـمـاـ تـولـدـ «عـلـمـ النـحـوـ»ـ عنـ الخطـأـ فـيـ تـلـاوـةـ الـقـرـآنـ منـ قـبـلـ، توـلـدتـ كـذـلـكـ عنـ الـصـرـفـةـ عـلـومـ الـبـلـاغـةـ الـعـرـبـيـةـ،

<sup>(١)</sup> ارجع في هذا الفصل للتوضيع إلى المغني للقاضي عبد الجبار الممذاني المعزنلي (٢١٩/١٦) و(٣٢٨-٣٢٢)، والرسالة الشافية للمرجاني ١٤١-١٣٣، وبيان إعجاز القرآن للخطابي ص ٢١-٢٠ ، ودلائل الإعجاز ص ٢٩٩-٢٩٨ ، والبرهان للزرκشي (٩٤-٩٣/٢) وعنه بنصّه السيوطني في الإتقان (١١٨/٢)، وإعجاز القرآن للرافعي ص ١٦٥-١٦٢ ، وبيانات المُعجزة الخالدة ص ٥-٢٠ ٢٢٣-٢٢٣ وفيه تفصيل وتحقيق فريد.

وكانَتِ المحاوَلَاتُ الضَّخْمَةُ في كُشْفِ أَسْرَارِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ، في دراسَاتٍ تفصيليَّةٍ، ونظريَّاتٍ عامَّةٍ نبدأ بشرحها موجزاً فيما يلي:

## نظريَّةُ إِعْجَازِ نظمِ الْقُرْآنِ

جاءَتِ نظريَّةُ نظمِ الْقُرْآنِ على يدِ الإِمامِ اللُّغويِّ البَلِيغِ عبدِ الْقَاهِرِ الْجُرجَانِيِّ بعدِ جهودِ مُتَابِعٍ في دراسَةِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ، وفي عصْرٍ نضجَتْ فِيَهِ العُلُومُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَاللُّغُوِيَّةُ، وَاتَّخَذَتْ الْمُؤْلَفَاتُ فِيهِ طَابِعَ التَّعْقِيدِ، وَاسْتَكَمَالَ أَصْوَلَ التَّأْلِيفِ.

وقد أقامَ عبدُ الْقَاهِرِ نظريَّتهُ على تبعِ ما يمكنُ أنْ يقالُ فِيهِ إِنَّهُ منْبَعُ الإِعْجَازِ الأَصْلِيِّ، وَذَلِكَ فِي مَوَاضِعٍ مُتَفَرِّقةٍ مِنْ كِتَابِهِ «دَلَائِلُ إِعْجَازِ»، بَعْضُهَا فِي أَوَّلِهِ وَبَعْضُهَا فِي آخِرِهِ، لَكِنْ مَجْمُوعُهَا يُصلِحُ أَنْ يُؤْلَفَ اسْتِقْرَاءً يُعْتَمِدُ عَلَيْهِ.

أَثَارَ عبدُ الْقَاهِرَ احْتِمَالَ أَنْ تَكُونَ الْكَلِمَةُ سَرُّ الْبَلَاغَةِ وَالإِعْجَازِ، وَنَفَى ذَلِكَ بِأَدَلَّةٍ أَطَالَ فِيهَا حَتَّى خَلُصَ إِلَى القَوْلِ<sup>(۱)</sup> بِأَنَّ «الْأَلْفَاظَ لَا تَفَاضِلُ مِنْ حِيثِ هِيَ أَلْفَاظٌ مُجَرَّدةٌ، وَلَا مِنْ حِيثِ هِيَ كَلِمَةٌ مُفَرِّدةٌ، وَأَنَّ الْأَلْفَاظَ تَثْبِتُ لَهَا الْفَضْيَلَةُ وَخَلَافُهَا فِي مَلَائِمَةِ مَعْنَى الْفَظْوَةِ لِمَعْنَى الَّتِي تَلِيهَا أَوْ مَا أَشْبَهُ ذَلِكَ، مَا لَا تَعْلُقُ لَهُ بِصَرِيحِ الْفَظْوَةِ. وَمَا يَشَهِدُ لِذَلِكَ أَنَّكَ تَرَى الْكَلِمَةَ تَرُوكَ وَتَؤْنِسُكَ فِي مَوْضِعٍ، ثُمَّ تَرَاهَا بَعْنَاهَا تَتَقَلَّ عَلَيْكَ وَتَوْحَشُكَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ...».

<sup>(۱)</sup> دَلَائِلُ إِعْجَازِ ص ۳۸.

فمهّد بهذا للنظم، ثم فسّر مراده به فقال<sup>(١)</sup>: «لا معنى للنظم غير توجي معاني النحو».

لكن الجرجاني لا يقصد بهذا مجرد وقوع الكلام مؤلفاً وفق قواعد النحو كيف كان الأمر، بل يقصد بذلك ما يشمل كيفية التركيب أو أسلوب الكلام. انظر إليه يوضح نظريته فيقول<sup>(٢)</sup>:

«واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي تُهْبَحْتُ، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها، وذلك أنا لا نعلم شيئاً يتغيره الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فینظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قوله: زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق، وزيد هو منطلق. وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قوله: إن تخرج أخرج، وإن خرجت خرجت، وإن تخرج فأنا خارج، وأنا خارج إن خرجت، وأنا إن خرجت خارج...»

وينظر في الحروف التي تشتراك في معنى ثم ينفرد كل واحدٍ منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيوضع كلاً من ذلك في خاص معناه، نحو أن يجيء بما في نفي الحال، وبلا إذا أراد نفي الاستقبال، وبيان فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون، وبإذا فيما علم أنه كائن.

<sup>(١)</sup> دلائل الإعجاز ص ٢٨٢.

<sup>(٢)</sup> المرجع السابق ص ٦٤.

وينظر في الجمل التي تسرد، فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء وموضع الفاء من موضع ثم، وموضع «أو» من موضع أم، وموضع لكن من موضع بل.

ويتصرف في التعريف والتنكير والتقدسم والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف والتكرار، والإظهار، فيضع كلاً من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له» اهـ.

ويدعم الجرجاني نظريته بالأدلة من الأمثلة الواقعية يدرسها فيقدم لنا مادة لا يستهان بها في مجال النقد والموازنة.

مثل قوله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ يَا أَرْضُ إِبْلِي مَاءٌ كَوْ وَيَا سَمَاءٌ أَقْلَعِي وَغَيْضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْسَوْتُ عَلَى الْجَوْدِي وَقَلِيلٌ بَعْدَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤].

قال الجرجاني<sup>(١)</sup>: «إن شكلت فتأمل! هل ترى لفظة منها بحث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟ قل «ابلي» واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها وكذلك فاعتبر سائر ما يليها.

وكيف بالشك في ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوحيت الأرض، ثم أمرت، ثم في أن كان النداء بـ«يا» دون أي، نحو يا أيتها الأرض، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال ابلي الماء، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو شأنها، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها، ثم أن قيل وغيض الماء «فجاء الفصل على صيغة» «فُعل» الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آخر، وقدرة قادر،

<sup>(١)</sup> دلائل الإعجاز ص ٣٧، وفيما أورده مناقشة لم نذكرها، لأن المراد بيان وجهة نظره.

ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوْتُ عَلَى الْجَوْدِي﴾ [هود: ٤٤]، ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو ﴿وَاسْتَوْتُ عَلَى الْجَوْدِي﴾ [هود: ٤٤]، ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة «قيل» في الخاتمة بـ«قيل» في الفاتحة. أفتري لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى في النطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟».

ويطبق الجرجاني نظريته على الاستعارة، ومن ذلك قوله: «ومن سر هذا الباب أنك ترى اللهفة المستعارة، قد استعيرت في عدة مواضع ثم ترى لها في بعض ذلك ملاحة لا تجدها في الباقي. مثال ذلك أنك تنظر لفظة الجسر في قول أبي تمام:

لا يطمع المرء أن يجتتاب لجته  
بالقول ما لم يكن جسراً له العمل

وقوله:

بصرت بالراحة العظمى فلم تره  
تنال إلا على جسراً من التعب

فترى لها في الثاني حسناً لا تراه في الأول...».

### نظريّة إعجاز النظم الموسيقي في القرآن

ظهرت هذه النظرية على يد الأديب والكاتب المشهور مصطفى صادق الرافعي، في الربع الأول من القرن الحالي. وكانت الفنون قد اشتد سعادتها، وحازت المسرحيات اهتماماً ظاهراً، مما جعل عنصر النغم والموسيقى يظهر في

الفن كعنصر مشارك للأدب في تحقيق هدفه، وبالنغم الملائم في الحوار وأحداث المسرحيات. ظهرت في هذه الأجزاء نظرية «النظم الموسيقي في القرآن» على يد مصطفى صادق الرافعي.

وإذا كان الجرجاني قد بدأ في نظرية النظم من التركيب، ولم يدخل اللفظة في إعجاز القرآن، فإن الرافعي بدأ في نظريته بداية معاكسة، بل إنه أوغل فلم يبدأ من الكلمة في القرآن بل من الحرف.

وهذه البداية منطقية بالنسبة لنظريته التي تعتمد على إبراز عنصر الصوت مصدرًا للإعجاز، والحرف هو الموجة الأولية والنغمة الأساسية في تكوين النغم القرآن العجيب المعجز.

وفي هذا يقول الرافعي<sup>(١)</sup>:

«فالحرف الواحد من القرآن معجز في موضعه، لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية والأيات الكثيرة، وهذا هو السر في إعجاز جملته إعجازاً أبدياً، فهو أمر فوق الطبيعة الإنسانية، وفوق ما يتسبب إليه الإنسان، إذ هو يشبه الخلق الحي تمام المشابهة، وما أنزله إلا الذي يعلم «السر» في السموات والأرض».

«وهذا النظم الموسيقي في القرآن معجز: «فإن طريقة النظم التي اتسعت بها ألفاظ القرآن وتتألفت لها حروف هذه الألفاظ إنما هي طريقة يتونخى بها إلى أنواع من المنطق وصفات من اللهجة لم تكن على هذا الوجه من كلام العرب»<sup>(٢)</sup>.

<sup>(١)</sup> في إعجاز القرآن ص ٢٤٠.

<sup>(٢)</sup> المرجع السابق ص ٢٤١.

«وحسبيك بهذا اعتباراً في إعجاز النظم الموسيقي، وأنه ما لا يتعلق به أحد، ولا يتفق على ذلك الذي هو فيه إلا فيه، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعض مناسبة طبيعية في الهمس والجهر والشدة والرخاوة، والتفحيم والترقيق، والتفسخي والتكرير...»<sup>(١)</sup>.

وما في الكلمة وكذا في الجملة فيحيط الرافعي القول ليستوفي البحث ويأتي به على وجوهه التي يراها، ونسوق لك هذه البذلة<sup>(٢)</sup> تأملها، ثم تتبع بنفسك في كتاب إعجاز القرآن:

«لو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصّرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيهين بعضها بعض، ويساند بعضها بعضاً، ولن تجدتها إلا مُؤتلفة مع أصوات الحروف مُساوقةً لها في النظم الموسيقي؛ حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيّها كان، فلا تعذب ولا تُساغ وربما كانت أوكس النصيّين في حظ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنًا عجيباً، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد مهدت لها طريقاً في اللسان، واكتنفتها بضرور من النغم الموسيقي حتى إذا خرجت فيه كانت أعنذب شيء وأرقه، وجاءت متمكّنةً في موضعها، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة.

من ذلك لفظ (النذر) جمع نَذِير؛ فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً، فضلاً عن جسأة هذا الحرف وبُيوّه في اللسان وخاصة إذا جاء

<sup>(١)</sup> المرجع السابق ص ٢٤٤.

<sup>(٢)</sup> من المرجع نفسه ص ٢٥٧-٢٥٨.

فاصلةً للكلام؛ فكل ذلك مما يكشف عنه ويفصح عن موضعه الثقل فيه؛ ولكنه جاء في القرآن على العكس وانتفى من طبيعته في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا قَمَارَوْا بِالنُّذْرِ﴾ [القرآن: ٣٦] فتأمل هذا التركيب، وأنعم ثم أنعم على تأمله، وتذوق موضع الحروف وأجر حركاتها في حس السمع وتأمل موضع القليلة في دال ﴿لَقْدُ﴾، وفي الطاء من ﴿بَطْشَتَنَا﴾ وهذه الفتحات المتواترة فيما وراء الطاء إلى واو ﴿تَمَارَوْا﴾، مع الفصل بالمد، كأنها تشغيل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان، ليكون ثقل الضمة عليه مستخفأً بعد، ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحاسيس في الأطعمة. ثم ردد نظرك في الراء من ﴿تَمَارَوْا﴾ فإنما جاءت مساندةً لراء ﴿النُّذْرِ﴾، حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهي إليها من مثلها، فلا تجف عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه، ثم اعجب بهذه الغنة التي سبقت الطاء في نون ﴿أَنْذَرَهُمْ﴾ وفي ميمها، وللغنة الأخرى التي سبقت الدال في ﴿النُّذْرِ﴾.

### نظريّة الإعجاز بالتصوير الفني

ظهرت هذه النظرية في العقود الأخيرة من هذا العصر، حيث ارتقى التصوير، وظهرت أدوات العرض بالرؤى، فجهد الأدب أن يلحق المصورة، ويحلأ بالكلمة والعبارة محل الصورة، وكان من البديهي أن يلتفت الدارسون إلى إعجاز القرآن يبحثون فيه عن الصورة وعن فن التصوير.

وكان أن وجدوا في بيان القرآن المعجز أنه معجز في تصويره بالمعنى العصري الحديث، كما أنه معجز في نظمه في نظرية النّظم القديم.

ولسنا هنا بقصد التّفصيل في هذه النّظرية، فلذلك موضعه الخاص به من كتابنا هذا، لكننا نكتفي هنا بأن نبين أن النتيجة التي انتهى إليها بحث «التصوير الفني في القرآن»، لعلها كما قال الدكتور صبحي الصالح<sup>(١)</sup>: «أن تكون أصدق ترجمة لمفهومنا للإعجاز القرآن، لأنها تساعد جيلنا الجديد على استرداد الجمال الفني الخالص في كتاب الله، وتمكن الدارسين من استخلاص ذلك بأنفسهم، والاستمتاع به بوجدهم وشعورهم، ولا ريب أن العرب المعاصرین للقرآن دُهشوا قبل كل شيء بأسلوبه الذي حاولوا أن يعارضوه فيما استطاعوا، حتى إذا فهموه أدركوا جماله، ومن قلوبهم بتأثيره». انتهى.

وتجدير بنا بعد هذه اللّمحات السريعة لبيان إعجاز القرآن أن نسجل نتائجتين على غاية الأهمية:

### النتيجة الأولى:

أنَّ أحداً مهما أُتي من العلم والتبصر في اللغة والأدب لا يبلغ أن يحيط بأسرار إعجاز القرآن، بل إن أي عصر من العصور عاجز عن استنفاد أوجه إعجاز القرآن والإحاطة بها خبراً، وإنما يبلغ من ذلك مقداراً يتنااسب مع ما يمكن أن يتحققه هذا الإنسان المحدود وهو يحاول أن يفك أسرار الإعجاز الذي تجاوز الطاقة والحدود. ولذلك قال ابن سراقة: «اختلف أهل العلم في وجه

<sup>(١)</sup> في كتابه «مباحث في علوم القرآن» ص ٣٢٠.

إعجاز القرآن، فذكروا في ذلك وجوهاً كثيرة كلها حكمة وصواب، وما بلغوا في  
وجوه إعجازه جزءاً من عشرِ معاشره»<sup>(١)</sup>.

#### النتيجة الثانية:

إن إعجاز القرآن لا يتحدد بمقاييس فني خاص بزمن من الأزمنة، أو عصر من العصور ، بل إن إعجاز القرآن يتسع لأي مقياس أدبي صحيح يستجد على مر العصور فقط، أو أي ذوق فني سليم، يحسّ به الناس في أي عصر جمال البيان وروعته .

---

<sup>(١)</sup> كما في الإتقان (٢/١٢٠).

## تفصيل أوجه إعْجَاز القرآن

أولاً - أوجه إعْجَاز القرآن من حيث البيان

ثانياً - الإعْجاز من حيث المضمون



كانت عناية العلماء والأدباء بشرح أوجه إعْجَاز القرآن تفصيلاً عناية باللغة، حتى كان ذلك شغلاً لهم الشاغل، وذلك لأن أوجه الإعْجَاز في القرآن تنوعاً واسعاً شاملاً للأسلوب والمضمون، للمبني والمعنى، مما يجعل الباحث يحس بالقصصيّ مهمًا بحث وبالغ في استقصاء الموضوع.

### شمول أوجه إعْجَاز القرآنِ:

غير أن هذا الاتساع العجيب والتنوع المتجدد في إعْجَاز القرآن حتى حارت فيه العقول، جعل للقرآن مزية جليلة هي شمول إعْجَازه كل أنواع البشر عرباً وعجماءً، من كان مميزاً للكلام البلigh والأبلغ، ومن لم يُرِزَّق تلك الموهبة، وإن كانت الحجة تلزم هذا النوع من الناس بشهادة أهل الموهبة الفنية والذوق الأدبي من الفصحاء والعقلاء والبلغاء المرادج الألباء، وبنكوص المعاندين من غير المنصفين أمام التحدي على أعقابهم خاسرين، فإنهم إذا عجزوا وهم أرباب الصراحة وفرسان البيان كان غيرهم أولى بالعجز والعي أمام هذا التحدي.

على أن إعْجَاز القرآن في حق هذه الفئة ليس قاصراً على هذه الطريقة، مع غاية ظهورها وقتها، بل إن القرآن معجز للعالمين بمضمونه أيضاً، وما اشتمل عليه من العلوم والمعارف، حتى لم يبق في الإعْجَاز أبلغ ولا أعظم من ذلك الإعْجَاز.

وسنقدم فيما يلي خلاصات لأوجه هامة من أوجه إعْجَاز القرآن مستفيدين من دراسات القدماء، ومن نتائج بحوث الحداثاء ونقسمها إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول: أوجه الإعْجَاز من حيث البيان.

القسم الثاني: أوجه الإعْجَاز من حيث المضمون.

## القسم الأول

### أوجه إعجاز القرآن من حيث البيان

الوجه الأول: المنهج البديع
الوجه الثاني: الجزالة
الوجه الثالث: التفنّن في التصرف في لسان العرب
١ - تعبيره عن طلب الفعل
٢ - تعبيره عن النهي
الوجه الرابع: الإبداع
الوجه الخامس: تأليف القرآن الصوتي في شكله وجوهره
١ - تأليف القرآن الصوتي في شكله
٢ - جوهر تأليف القرآن الصوتي
٣ - الفاصلة القرآنية
الوجه السادس: القصد في اللفظ والوفاء بالمعنى
الوجه السابع: خطاب العامة وخطاب الخاصة
الوجه الثامن: إقناع العقل وإمتاع العاطفة
الوجه التاسع: تألف الألفاظ والمعاني

هذا القسم من أوجه إعجاز القرآن أعظم جوانب الإعجاز في القرآن، وإن كان قد يخفى معنى عظمته على كثير من الناس، والسبب في عظمة هذا القسم أنه هو الذي به كان القرآن قرآنًا، وأن المنهج البياني المعجز للقرآن هو سمة عامة لجميع القرآن الكريم، أما الأوجه الأخرى فيوجد الوجه منها في بعض الآيات دون الآخر، مثل إخبار الغيب، والإعجاز العلمي، والإعجاز التشريعي وهكذا.

وهذا الوجه يدركه العرب، وهم أول من يخاطب به وإذا عجزوا هم عنه، فغيرهم أعجز وأعجز.

وقد أطالت الدارسون القدماء والحدثون في بيان خصائص أسلوب القرآن الكريم، ولنلخص منها هذه الجوانب فيما يلي:

**الوجه الأول: المنهج البديع المخالف لـكُلّ منهج معهود في لسان العرب وفي غيرها:**

بيان ذلك وتفصيله أن نظم القرآن ليس نثراً كالشعر، كما أنه ليس من نظم الشعر في شيء، وكذلك قال رب العزة الذي تولى نظمه:

﴿وَمَا عَلِمْنَاهُ شِعْرًا وَمَا يَبْغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩]، وفي صحيح مسلم أن أنيساً أخا أبي ذر قال لأبي ذر: لقيت رجلاً في مكة على دينك يزعم أن الله أرسله. قلت: مما يقول الناس؟ قال يقولون: شاعر، كاهن، ساحر، وكان أنيس أحد الشعراء. قال أنيس لقد سمعت قول الكهنة بما هو بقولهم، ولقد وضع قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر. والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون.

وكذلك أقر عتبة بن ربيعة أنه ليس بسحر ولا شعر لما قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ حَمٌ فُصِّلٌ ﴾ على ما سبق بيانه هنالك، فإذا اعترف عتبة بن ربيعة على موضعه من اللسان وموضعه من الفصاحة والبلاغة، بأنه ما سمع مثل القرآن قط كان في هذا القول مقراً بإعجاز القرآن له ولضريائه من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع أنجذاب القول وأنواعه.

**الوجه الثاني:** الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال، وتأمل ذلك في سورة ﴿ قُوَّالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ إلى آخرها، قوله سبحانه: ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الزمر: ٦٧] إلى آخر السورة، وكذلك قوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ [إبراهيم: ٤٢] إلى آخر السورة.

قال ابن الحصار: فمن علم أن الله سبحانه وتعالى هو الحق، علم أن مثل هذه الجزالة لا تصح في خطاب غيره، ولا يصح من أعظم ملوك الدنيا، أن يقول: ﴿ لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ [غافر: ١٦]، ولا أن يقول: ﴿ وَيُرِسلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يُشَاءُ ﴾ [الرعد: ١٣].

**الوجه الثالث:** التفنن في التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي: وقد قام العلماء بدراسة بعض أنواع من ذلك، وقدموا فيها دراسات باهرة، كثير منها في جوانب لا تخطر على البال فمن ذلك:

## ١ - تعبيره عن طلب الفعل:

فقد تنوّعت طرق هذا التعبير في القرآن تنوّعاً لا تجد له مثيلاً في أدب الأدباء ودواوين الشعراء، ذكروا منها أربعة عشر نوعاً ولوّناً من ألوان التعبير<sup>(١)</sup> نذكر منها:

أ- الإخبار بكون الفعل على الناس ﴿وَلَلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجْبٌ الْبَيْتِ﴾ [آل

عمران: ٩٧].

ب- الإخبار عن المكلف بالفعل المطلوب منه ﴿وَالْمُطْلَقَاتُ يُرِبَّصُنَ باِنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةٌ قُرُونٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

ج- الإخبار عن المبتدأ بمعنى يجب تحقيقه من غيره: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾

[آل عمران: ٩٧]. أي مطلوب من الناس تأمين من دخل الحرم.

د- ترتيب الفعل على شرط قبله ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾

[البقرة: ١٩٦].

ه- استعمال الفعل منفياً معطوفاً عقب استفهام نحو ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكروا.

## ٢ - تعبيره عن النهي:

وهو متّوّع كذلك تنوّعاً كبيراً ذكروا منها خمس عشرة نوعاً<sup>(٢)</sup>، نذكر منها:

<sup>(١)</sup> انظرها مفصّلة في مناهل العرفان (٢١٥/٢-٢١٦).

<sup>(٢)</sup> المرجع السابق (٢١٦-٢١٧). زدنا عليه فقرة (ج)، ومن تتبع القرآن وجد مزيداً على ما ذكره هذا المرجع من أساليب الأمر والنهي.

أ- وصفه بأنه ليس برأ، ﴿وَكَيْسَ الْبَرِّ بَأْنَ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩].

ب- وصفه بأنه شر ﴿وَلَا يُحِسِّنُ الَّذِينَ يَخْلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ أَخْيَرُ لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

ج- وصف موضع الفعل بالأذى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيطِ قُلْ هُوَ أَذَى﴾ [البقرة: ٢٢٢].

د-هـ- وصف الفعل بأنه من عمل الشيطان، وكذلك تعليق الفلاح على تركه، كقوله في آية تحريم الخمر والميسر ... ﴿رَجُسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

وقد كان هذا التفنن العجيب في تصريف الكلام مما لفت نظر العرب وانتباهم، وقد سمع الوليد بن المغيرة قارئاً يقرأ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِذْ أَلْهَمْتُكُمْ بِهِمَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلَّي الصَّيْدِ وَاتْسِهُ وَوَهِ حِرْمَانَ اللَّهِ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

فحرّك الوليد رأسه تعجبًا وقال كلمة هامة في إعجاز الآية: «جمع الأمر والنهي، والاستخبار والحضر والإباحة والترغيب والترهيب، والنداء والجواب. أشهد أن هذا ما خرج من فك بشر». ثم استرجع وقال: إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر<sup>(١)</sup>.

<sup>(١)</sup> الانتصار لنقل القرآن ص ٢٧٥.

## الوجه الرابع:

الإبداع: وهو أن تكون كل لفظة من الكلام على انفرادها متضمنة لوناً أو لونين من البلاغة حسب قوة الكلام وما يعطيه معناه، بحيث يأتي في الجملة الواحدة عدة ضروب من البلاغة ولا تخلو لفظة واحدة من لون بلاغي فأكثر<sup>(١)</sup>.

قال ابن أبي الاصبع المصري<sup>(٢)</sup>:

(وما رأيت ولا رویت في الكلام المنشور والشعر الموزون كآية من كتاب الله تعالى استخرجت منها أحداً وعشرين ضرباً من البديع، عددها سبع عشرة لفظة، وهي قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ أَبْلَعِي مَا عَلَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَغَيْضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجَوْدِيِّ وَقِيلَ بَعْدَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]<sup>(٣)</sup> وتفصيل ما جاء فيها من البديع:

المناسبة التامة في: أبلعي وأقلعي.

والتطابقة اللغوية في ذكر السماء والأرض.

والاستعارة في قوله: ابلي وأقلعي للأرض والسماء.

والمجاز في قوله: ﴿يَا سَمَاءُ﴾ فإن الحقيقة: و يا مطر السماء أقلعي.

<sup>(١)</sup> بتصرف عن كتاب بديع القرآن لابن أبي الاصبع المصري ص ٣٤٠.

<sup>(٢)</sup> المرجع السابق ص ٣٤٣-٣٤٠.

<sup>(٣)</sup> و«أقلعي» أمسكي عن إرسال المطر. أقلع عن عمله كف عنه «غيض الماء»: نقص. «الجودي»: اسم جبل . «بعداً للقوم الظالمين»: هلاكاً لهم.

**والإشارة في قوله:** ﴿وَغَيْضَ الْمَاء﴾ فإنَّه سبحانه وتعالى عَبَرَ بِهَا تِينَ الْفُظُولِينَ عن معانٍ كثيرة؛ لأنَّ الماء لا يغيب حتى يُقلع مطر السماء وتبلغ الأرض ما يخرج من عيون الماء، فینقص الحاصل على وجه الأرض من الماء.

**والارداد في قوله:** ﴿وَاسْتَوْتُ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ فإنَّه عَبَرَ عن استقرار السفينة على هذا المكان وجلوسها جلوساً متمكناً لا زرع فيه ولا ميل، لطمأنينة أهل السفينة بلفظ قريب من لفظ الحقيقة.

**والتمثيل في قوله:** ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ فإنَّه عَبَرَ بذلك عن هلاك الهاكلين ونجاة الساجدين بلفظٍ فيه بُعدٌ ما من لفظ الحقيقة بالنسبة إلى لفظ الارداد، والتَّعليل لأنَّ غَيْضَ الماء علة الاستواء.

**وصحة التقسيم** حين استوعب سبحانه أقساماً أحوايلاً الماء حالة نقصيه، إذ ليس إلَّا احتباس ماء السماء واحتقان الماء الذي ينبع من الأرض، وغَيْضَ الماء الحاصل على ظهر الأرض.

**والاحتراس في قوله:** ﴿وَقَيْلَ بُعْدًا لِلنَّقْوَمِ الظَّالِمِينَ﴾ محترساً من توهم من يتوهم أنَّ الهاكلَ ر بما عمَّ من لا يستحق الهاكل فجاء سبحانه بالدعاء على الهاكلين ليعلم أنهم مستحقو الهاكل، فإنَّ عدله منع أن يدعوه على غير مستحق للدعاء عليه.

**والانفصال** فإنَّ لقائِلَ أن يقول: إن لفظة القوم مستغنِّي عنها، فإنه لو قيل: «وَقَيْلَ بُعْدًا لِلنَّقْوَمِ الظَّالِمِينَ» لتمَ الكلام، والانفصال عن ذلك أنْ يُقال: لَمَّا سبقَ في صدر الْكَلَامِ قبل الآية قوله تعالى: ﴿وَكُلُّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ

مِنْ قَوْمٍ سَخِرُوا مِنْهُ》 [هود: ۳۸] وقال سبحانه قبل ذلك مخاطباً لنوح عليه السلام: ﴿وَلَا تُخَاطِبِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود: ۳۷] فاقتضت البلاغة أن يُؤتى بلفظة القوم التي آلة التعريف فيها للعهد، ليتبين أنهم القوم الذين تقدم ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلُّمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ [هود: ۳۸] ووصفهم بالظلم، وأخبر سابق علم أنهم هالكون بقوله: ﴿وَلَا تُخَاطِبِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود: ۳۷] فحصل الانفصال عن الإشكال، وعلم أن لفظة القوم ليست فضلة في الكلام.

والمساواة لأن لفظ الآية لا يزيد على معناه ولا ينقص عنه.

وحسن النسق في عطف القضايا بعضها على بعض بأحسن ترتيب حسبما وقعت أولاً فأولاً، فإنه سبحانه أمر الأرض بالابلاع، ثم عطف على ذلك أمر السماء بالإقلاع، ثم عطف غيض الماء على ذلك، ثم عطف على ذلك قضاء الأمر بهلاك المالكين وبنجاة الناجين، ثم عطف على ذلك استواء السفينة على الحودي، ثم عطف على ذلك الدعاء على المالكين، فجاء عطف هذه الجمل على ترتيب وقوعها في الوجود.

وائتلاف اللفظ مع المعنى لكون كل لفظة لا يصلح في موضعها غيرها.

والإيجاز لأنه سبحانه اقتضى القصة بلفظها مستوعبة، بحيث لم يخل منها شيء في أخص عباره؛ بألفاظ غير مطولة.

والتسهيم لأن من أول الآية إلى قوله تعالى: ﴿أَقْلِعِي﴾ يقتضي آخرها.

**والتهذيب** لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن، كل لفظة سهلة خارج الحروف، عليها رونق الفصاحة، مع الخلو من البشاعة، والتركيب سليم من التعقيد وأسبابه.

**وحسن البيان** من جهة أن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام، ولا يشكل عليه شيء منه.

**والتمكين** لأن الفاصلة مستقرة في قرارها، مطمئنة في مكانها غير قلقلة ولا مستدعاة.

**والانسجام** وهو تحدُّر الكلام بسهولة وعذوبة سبَّلٍ مع جزالية لفظٍ، كما ينسجم الماء القليل من الهواء.

وما في مجموع ألفاظ الآية من (الإبداع) وهو الذي سُمي به هذا الباب، إذ في كل لفظة (بديعٌ) و(بديعان)، لأنَّها كما تقدَّم سبعَ عشرة لفظةٍ تضمَّنتْ أحداً وعشرين ضرباً من البلاغة سوى ما يتعدُّد من ضروبها، فإنَّ الاستعارة وقعت في موضعين: وهما (الابتلاع) و(الإلاع).

فانظر - رحمك الله - إلى عظمة هذا الكلام، وما انطوى عليه نظمه، وما تضمنه لفظه لتقدِّره قدره. وهذا ما ظهر لي منه على ضعف نظري وقلة مادتي من العلوم وكلال ذهني. والله أعلم).

#### الوجه الخامس تأليف القرآن الصوتي في شكله وجوهره:

وقد سبق بيان موجز للجانب الموسيقي المعجز في القرآن، ونضيف إليه هنا زيادة بيان بثلاث خصائص وهي: (خاصة تأليف القرآن الصوتي في شكله، وخاصة تأليفه في جوهره، والفاصلة القرآنية):

١ - أما خاصية تأليف القرآن الصوتي في شكله: فهي أول ما يسترعي سامع القرآن الكريم عن بُعدٍ بعيد، بحيث يسمع فيه جملة الحركات والسكنات، والعنّات والمدّات، وهكذا... فإن السامِع يجد نفسه إزاء لحنٍ غريبٍ عجيبٍ لا يجده في كلامٍ آخر، هو لحنٌ فريدٌ اختص به القرآن لا يوجد في الموسيقى ولا في الشعر، وذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر فإذا هي تتحد فيها الأوزان بيتاً بيتاًً وشطراً شطراً، وتسمع القطعة من الموسيقى فإذا هي تتشابه أصواتها وتذهب مذهبًا متقارباً، فلا يلبت سمعك أن يمجها، وطبعك أن يملها إذا أعيدت وكُررَتْ عليك بتواقيع واحد، بينما أنت من القرآن أبداً في لحنٍ متتنوع ومتجدد، على أوضاع مختلفة يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء، فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم.

٢ - وأما جوهر تأليف القرآن الصوتي: فَيَكُمْنُ في نظم حروفه ورصفها وترتيب أوضاعها: هذا ينقر وذاك يصرفر، وثالث يهمس، ورابع يجهر، وأخر حرف استعلاء وغيره حرف شدة أو رخاوة، وهكذا، ترى الجمال اللغوي ماثلاً أمامك في هذا التمازن الموسيقي المعجز، الذي جعل منه القرآن قالباً لما حمله من معانٍ الرسالة وحِكمٍ لها وأحكامها، وعقائدها وقواعدها، ومواعظها وزواجرها، وما امتاز به أسلوبها في عرض هذه المعانٍ من سائر الخصائص المُعجزة.

## ٣ - الفاصلة القرآنية:

الفاصلة هي الكلمة الأخيرة من الآية القرآنية. ويقابلها في الشعر القافية، أو قرائن السجع، لكنها تختلف عنهما اختلافاً جوهرياً من حيث المبني والمعنى:

أما من حيث المبنى: فلأنَّ الفاصلة لا تلتزم روياً واحداً، بينما يلزم ذلك في الشعر والسجع.

وأما من حيث المعنى: فالفاصلة لا تأتي ب مجرد الوزن والنغم، بل إنها تتصل بالمعنى اتصالاً وثيقاً، بخلاف الشعر والسجع، فما أكثر ما تُستَجْلِبُ فيهما القافية والقرينة ب مجرد الغرض الشكلي.

ونزيد هذا التمهيد إضاحاً بالتفصيل التالي:

### الفواصل القرآنية بالنظر إلى تماثلها وعدمه:

ليست فواصل القرآن على نسق واحد كما ترى في قوافي الشعر أو قرائن السجع. فهي متماثلة أحياناً في حروفها الأخيرة. وأكثر ما تكون الفواصل تماثلاً في حروف الروي في الآيات والسور الملكية كما في سورة الحاقة:

﴿الْحَاقَةُ مَا الْحَاقَةُ وَمَا أَدْرَاكُمَا الْحَاقَةُ كَذَبَتْ ثَمُودٌ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَامَّا ثَمُودٌ فَاهْلَكُوا بِالظَّاغِيَةِ وَامَّا عَادٌ فَاهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرَصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ١ - ٦].

وتكون الفواصل متقاربة في حروف الروي كما في سورة الدخان:

﴿حَمٌ وَالْكِتَابُ الْمُبِينُ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ امْرٍ حَكِيمٍ امْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُلَّمُمْ مُوقَنِينَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يَحْيِي وَيُمْتَرِكُمْ وَرَبُّ أَبَانِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الدخان: ١ - ٨].

فاليمين والنون حرفان متقاربان في المخرج اللفظي. وأكثر ما تكون الفواصل متقارباً في الآيات المدنية. وقلما يلحظ القارئ فاصلة منفردة عما سواها.

وقد جاء القرآن بأسهل موقف وأعذب مقطع، فكثير فيه ختم الكلمة المقطع من الفاصلة بحروف المد واللين وإلحاد النون فممكن القارئ الذوق من التطريب بذلك أمعن تطريب، وهذا منسجم مع سجية اللغة العربية، وقد جنح العرب إليه من قبل. قال عالمة العربية سيبويه رحمه الله: (أما إذا ترَّمِوا فإنَّمَا يُلْحِقُونَ الْأَلْفَ واللَّوَاءِ وَالْيَاءِ مَا يُتَوَّنُ وَمَا لَا يُتَوَّنُ، لَأَنَّمَا أَرَادُوا مَدَ الصَّوْتِ) <sup>(١)</sup>.

### الفاصلة من حيث صلتها بالآية:

ترتبط الفاصلة بضمون الآية التي ختمت بها ارتباطاً وثيقاً، وقد قسموها من هذه الناحية عدة أقسام نذكر منها ما يلي:

ـ التصدير: هو أن تقدم لفظة الفاصلة بمادتها في أول صدر الآية أو في أثناءه أو آخره. كقوله تعالى: ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَابُ ﴾ [آل عمران: ٨] وقوله: ﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَالآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٢١] وقوله: ﴿ أَنْزَلْنَاهُ عِلْمَهُ وَالْمَلَائِكَةُ شَهِدُونَ وَكُنَّ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٦].

وقد سمى البلاغيون المعتقدون هذا الصنف «رُذ الأعجاز على الصدور».

ـ التوشيح <sup>(٢)</sup>: وهو أن يرد في الآية معنى يشير إلى الفاصلة حتى تعرف منه قبل قراءتها. كقوله تعالى: ﴿ وَآيَةً لَهُمُ اللَّيْلُ نُسْلَحُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظَلَّمُونَ ﴾ [يس: ٣٧] فإن تالي هذه السورة إذا كان متيقظاً فلنلاحظ أن فاصلتها النون

<sup>(١)</sup> البرهان: (٦٨/١).

<sup>(٢)</sup> سمي توشيحاً لأن معنى أول الآية يدل على فاصلتها. فينزل المعنى منزلة الوشاح، ويتنزل أول الكلام وأخره منزلة العائق والكتفع اللذين يجول عليهما الوشاح. «تحرير التعبير: ٢٢٨».

المردفة؛ هداه صدر الآية «انسلاخ النهار من الليل» إلى أن الفاصلة ستكون «مُظْلِمُونَ»، فإنَّ من انسلاخ النَّهَارِ عن ليله أَظْلَمَ، وظلَّ في الظلمات ما دامت تلك الحال.

جـ- الإيغال<sup>(١)</sup>: أن ترَدَ الآيَةُ بمعنىِ تامٍ وتأتي فاصلتها بزيادة في ذلك المعنى على الحد الذي بلغته الآية، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَ الدُّعَاءَ إِذَا وَكَوَادُبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠] فإنَّ المعنى قد تم بهذا القدر مِنَ الْكَلَامِ. غير أنه يبقى محتملاً معنى التولى مجانبة يلحظ معها المتولى مخاطبه بعض اللحظ، فجاءت الفاصلة «مُذَبِّرِينَ» فزادت على معنى الآية، إذْ أوغلت في التعبير عن توليهِمْ، وبالغت في تصوير إعراضِهمْ، حتى جعلته متاجفياً عن استيعاب أقل إشارة وأيسر ملاحظة. فإنَّ الإدبار إعراض كلي من جميع الجهات عن صاحب الخطاب<sup>(٢)</sup>. فالفاصلة القرآنية قامت بأداء حظ من معنى الآية، ولم ترَدَ البتة مستجلبة ولا فقلقة، ولهذا تجد للتراكيب القرآنية من التلامِحِ والائتلافِ وقوَّة التماسك ما لا تجده في كلام سائر البشر. فإذا وقفت على تماثل أنغام الفواصل أحياناً وتقاريرها أحياناً أخرى، وعلى انسجام كل منها مع جرس الكلمات وإيقاع القاطع في

<sup>(١)</sup> «الإيغال»: يقال: أوغل في الأرض الفلانية: إذا بلغ منتهاها، وكذا: إذا تم معناه في تعداده بزيادة فيه، فقد أوغل. البرهان: ١: ٩٦.

<sup>(٢)</sup> انظر تفصيل بحث الفاصلة في الإنقاذه (٩٦/٢)، والبرهان (٩٨-٧٨/١)، وبداعِ القرآن: ٣٧-٣٦، ٩٣-٨٩ ، وتحْرِير التَّحْبِير: ١١٧-١١٦ ، ٢٤١-٢٢٤ ، ومن بِلَاغَةِ القرآن: ٩٨-٧٥ . وللأستاذ محمد الحسناوي كتاب بعنوان «الفواصلة في القرآن» فراجعه لزاماً.

آيتها أدركت أن ههنا سراً عظيماً من أسرار الإعجاز البياني يأسر قلوب البشر ويستعصي على عقرياتهم.

### الوجه السادس: القصد في اللفظ والوفاء بالمعنى

وهما نهايتان في اتجاهين متضادين، لا يُفْبِلُ المرء على إحداها إلا ابتعد عن الأخرى، ذلك أن البليغ إما أن يُؤَدِّي مراده جملة مختصرأً، مقللاً من الألفاظ، فلا بد أن يحيف على المعنى قليلاً أو كثيراً. وإما أن يعمد إلى الوفاء بحق المعنى وتحليله إلى عناصره وإبراز كل دقائقه، فلا يجد بداً من أن يمدد في نفسه مداً، لأنه لا يجد في القليل من اللفظ ما يشفي صدره ويؤدي عن نفسه رسالتها كاملة.

ولئن وفق البليغ لتقريب هاتين الغايتين تقريرياً ما في جملة أو جملتين، فلا يلبث أن يدركه الكلال والإعياء، وضعف الطبع الإنساني فلا يسترجع قوته إلا في الشيء بعد الشيء، كما تصادف في التراب قطعة من التبر ها هنا وقطعة هناك، فتقول هذا نفيس جداً، وهذا نفس وأجود... وقد أجمع نقاد الشعر والنشر على أن أربع الشعراء لم يبلغوا مرتبة الإجادة إلا في أبيات محدودة من قصائد معدودة، ثم وراء ذلك الوسط والردى والعث والمستكره...

أما القرآن الكريم فقد جاء البيان فيه مقدراً أحسن تقدير، فلا تحس فيه بالإسراف ولا بالتقتير، فهو يؤدي لك الصورة وافية نقية لا يشوّها شيء مما هو غريب عنها، ولا يشد عنها شيء من عناصرها وكمالها، كل ذلك في أوجز لفظ وأنفاه، كما قال الإمام أبو بكر الباقياني: «محاسن تتواли، وبدائع تتراى».

ولنزيدك إيضاحاً في هذا فخذ ما شئت من القرآن، وأحص كلماته عدّا، ثم أحص مثل عددها من أبلغ كلام تختاره خارجاً عن المصحف، وانظر ما حواه

هذا الكلام من المعاني، وقياسه إلى ذلك، ثم انظر كم كلمة تستطيع أن تسقطها من غير القرآن أو يمكن أن تبدلها بأخرى غيرها دون إخلال بغرض قائله؟ وانظر مقابل ذلك أي كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها من القرآن؟؟ لما وجدت بذلك سبيلاً في القرآن، بل إن كتاب الله تعالى – كما قال الإمام ابن عطية -: «لو نزعْتْ منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد»، بل هو كما وصفه الله: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ۱].

### الوجه السابع: خطاب العامة وخطاب الخاصة

وهاتان غايتان آخرتان متبعادتان عند الناس، فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب، ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم، فلا غنى لك – إن أردت أن تعطي كلتا الطائفتين حقها كاملاً من بيانك – أن تخاطب كل واحدة منهمما بغير ما تخاطب به الأخرى، كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال، فاما أن جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء، وإلى الأذكياء والأغبياء، وإلى السوق والعامّة فيراها كل منهم مقدرة على مقاييس عقله وعلى وفق حاجته فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم، فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوثق كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوى على أفهمهم، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللُّغة، فهو متعة العامة والخاصة على السواء، ميسّر لـكُلّ من أراد ﴿وَلَقَدْ يُسَرُّنَا الْقُرْآنُ لِذَكْرِ فَهُلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القرآن: ۱۷].

## الوجه الثامن: إقناع العقل وإمتناع العاطفة

في النفس الإنسانية قوتان: قوّة تفكير، وقوّة وجданٍ، وحاجة كل واحدة منها غير حاجة أختها، فأما إحداها فتنقب عن الحق لمعرفةه، وعن الخير للعمل به، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم، والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين ويطير إلى نفسك بعذبين الجنابين، فيتها حظّها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معاً.

فهل رأيت هذا التمام في كلام الناس؟

لقد عرفنا كلام العلماء والحكماء، وعرفنا كلام الأدباء والشعراء، فما وجدنا من هؤلاء ولا هؤلاء إلا غلّةً في جانب، وقصوراً في جانب، فأما الحكماء فإنما يُؤَدِّون إليك ثمار عقولهم غذاء لعقلك، ولا تتوجه نفوسهم إلى استهواه نفسك واحتلال عاطفتك، فتراهم حين يقدمون إليك حقائق العلوم لا يأبهون لما فيها من جفاف وعرى ونبيو عن الطباع، وأما الشعراء فإنما يسعون إلى استشارة وجدانك، وتحريك أوتار الشعور في نفسك، فلا يبالون بما صوروه لك أن يكون غيّاً أو رشدًا، وأن يكون حقيقة أو تخيلًا، فتراهم حادين وهم هازلون، يستبكون وإن كانوا لا ييكونون، ويطربون وإن كانوا لا يطربون ﴿والشُّعْرَاءُ يَبْعَثُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ <sup>أَلْمَ تَرَأَّفُهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ \* وَأَئُمُّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾</sup> [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٦].

وكل امرئ حين يفكر فإنما هو فيلسوف صغير، وكل امرئ حين يحس ويشعر فإنما هو شاعر صغير، فسل علماء النفس: «هل رأيت أحداً تتكافأ فيه قوّة التفكير وقوّة الوجدان وسائر القوى النفسيّة على سواء؟ ولو مالت هذه القوى إلى شيء من التعادل عند قليل من الناس فهل ترونها تعمل في النفس

دفعه وبنسبة واحدة؟»، يحييون بلسان واحد: «كلا، بل لا تعمل إلا متناوبة في حال بعد حال، وكلما تسلط واحدة منهن اضمحلت الأخرى وكاد ينمحى أثرها، فالذى ينهمك في التفكير تتناقص قوته وجданه، والذى يقع تحت تأثير لذة أو لم يضعف تفكيره، وهكذا لا تقصد النفس الإنسانية إلى هاتين الغايتين قصداً واحداً، وإلا ل كانت مقبلة مدبرة معاً، وصدق الله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قُلُبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤]، فكيف تطمع من إنسان أن يهب لك هاتين الطلبيتين على سواء، وهو لم يجمعهما في نفسه على سواء؟ وما كلام المتكلّم إلا صورة الحال الغالبة عليه من بين تلك الأحوال.

هذا مقياس تستطيع أن تتبين به في كل لسان وقلم أي القوتين كان خاضعاً لها حين قال أو كتب، فإذا رأيته يتوجه إلى تقرير حقيقة نظرية أو وصف طريقة عملية قلت: هذا ثمرة الفكر، وإذا رأيته يعمد إلى تحريض النفس أو تنفيتها وبطشه أو بسطها، واستشارة كوامن لذاتها أو أنها، قلت هذا ثمرة العاطفة، وإذا رأيته قد انتقل من أحد هذين الضربين إلى الآخر فتفرّغ له بعد ما قضى وطره من سابقه، كما ينتقل من غرض إلى غرض، عرفت بذلك تعاقب التفكير والشعور على نفسه.

وأما أن أسلوباً واحداً يتوجه اتجاههاً واحداً ويجمع في يديك هذين الطرفين معاً، كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أوراقاً وأزهاراً وأثماراً معاً، أو كما يسري الروح في الجسد والماء في العود الأخضر فذلك ما لا تظفر به في كلام بشر، ولا هو من سنن الله في النفس الإنسانية.

فمن لك إذاً بهذا الكلام الواحد الذي يحييء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يرضي حتى أولئك الفلاسفة المتعمدين، ومن المتعة الوجданية الطيبة بما يرضي حتى هؤلاء الشعراء المرحين؟.

ذلك الله رب العالمين، فهو الذي لا يشغله شأن عن شأن، وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان، وأن يمزج الحق والجمال معاً يلتقيان ولا يبعيان، وأن يُخرجَ من بينهما شرابةً حالصاً سائغاً للشاربين، وهذا هو ما تجده في كتابه الكريم حيثما توجهت، ألا تراه في فسحة قصصه وأخباره لا ينسى حق عقل من حكمة وعبرة؟.

أولاً نراه في معمة براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب من تشويق وتزويق، وتحذير وتنفير، وتحويل وتعجيب، وتبكيت وتأنيب؟ بيت ذلك في مطالع آياته ومقاطعها وتضاعيفها ﴿نَقْسِعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَنِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، و﴿إِنَّهُ لَقُولٌ فَصُلُّ \* وَمَا هُوَ بِالْهَرَلِ﴾ [الطارق: ١٤-١٣].

#### الوجه التاسع: تآلف الألفاظ والمعاني

التآلف في الألفاظ هو ألا تكون بينها ثغرة في الخارج، ولا في النغم بل تآلف وتanaxhi في نسق واحد.

ويقول الإمام أبو بكر الباقلاني في هذا: «واعلم أن هذا علم شريف المحتوى عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحمييه، ولا أهل بيته عصمة تفطن لما فيه، وهو أدقّ من السحر وأهول من البحر. وكيف لا يكون كذلك وأنت تحسّب أن وضع الصبح في موضع الفجر يحسن في كل كلام إلا أن يكون شعراً أو سجعاً، وليس كذلك، فإن إحدى اللفظتين قد تنفر

في موضع وتزلُّ عن مكان لا تزلُّ فيه اللفظة الأخرى، بل تتمكن فيه وتضرب بجرانها، وترها في مكانها، وبتجدها غير منازعة في أوطانها، وتجد الأخرى لو وضعت في موضعها لكان مدل نثار، ومرمى شرار، ونامية عن استقرار...»<sup>(١)</sup>.

وأما التألف في المعاني: فهو ألا يكون معنى لفظ نافراً من المعنى الذي يليه، وأن تتألف الألفاظ والمعاني، وما تشيره من الصور والأح撬لة، وما تستدعيه من معان يستلزم بعضها بعضاً، فيتآلف من ذلك علم كثير، وأفهام زاخرة.

وهذه الخصوصية هي كغيرها أيضاً مستوفاة في جميع القرآن، وفي كل آية منه، لا يحتاج الدارس والباحث إلى اختيار وانتقاء، بل كيما قلب المصحف ونظر عين البصيرة المدركة وجد أي خصوصية يطلبها على أعظم منازل الكمال الذي لا يطيقه إنسان، ووجد أسلوبه ينفذ من كافة أقطار النفس، ويغلغل في أعماق الأففدة، فيحملها على الخشوع والإخبات، لما في طياته من قوة وهيمنة تدل على تنزله من علو، وتصدوره عن عظمة الألوهية وشرف الريوبية، وقدرة الإله الحق ذي الجبروت.

فالقرآن بنفسه يدل على قدر متكلمه ويخبر عن مقام منزله عز وجل، كما ينبه على عظيم شأنه تبارك وتعالى، فيثبت لـكُلّ عاقل صحة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وصدق نبوته<sup>(٢)</sup>.

<sup>(١)</sup> إعجاز القرآن ص ٢٨٠.

<sup>(٢)</sup> انظر في خصائص أسلوب القرآن هذه كتاب الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧٣/١-٧٥)، و«النَّبِيُّ الْعَظِيمُ» للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٩٥ وما بعد، ومناهيل العرفان للزرقاوي (٢/٢١٥) وما بعد، وبيانات المُعِجزة الخالدة ص ٣٠٢-٣١٧ و ٣٢٠-٣٤٠.

## القسم الثاني

# الإعجاز من حيث المضمن

الوجه الأول: العلوم التي اشتمل عليه القرآن
الوجه الثاني: الإخبار عن الغيب
أ - الإخبار عن غيب المستقبل
ب - الأخبار عن غيب الحاضر
ج - أخبار الغيب الماضي
الوجه الثالث: الإعجاز التشريعي
الوجه الرابع: اتساق نظريات القرآن وأحكامه
الوجه الخامس: تأثير القرآن وفعاليته في الأفئدة

هذا القسم من أوجه إعْجَازِ القرآنِ يعقله ويدركه كل من يفهم الخطاب ويرد الجواب، سواء كان يملك ذوقاً أدبياً فنياً أم لا يملك ذلك التذوق، بل سواء كان عربياً أم غير عربي.

وقد أطّال العلماء وتوسّعوا في بيان أوجه إعْجَازِ القرآنِ من هذه الزاوية، نكتفي هنا بإشارات موجزة سريعة إلى طائفة منها لضرورة استكمال بحث إعْجَازِ القرآنِ.

### الوجه الأول: العلوم التي اشتمل عليه القرآن

فقد اشتمل القرآن الكريم على معارف كثيرة متنوعة، تتناول العقائد، والعبادات، والمعاملات، والحياة والأحياء، والكون والطبيعة، والأخلاق والفضائل وغير ذلك مما يطول سرده وبسطه، حتى كان ذلك مما يلفت قارئه مهما كان عليه من العلم، وحتى نجد مثل الدكتور موريس بوكيي يعبر عن دهشته فيقول: «إن أول ما يشير للدهشة في روح من يواجه القرآن لأول مرة هو شراء الموضوعات المعالجة، فهناك الخلق، وعلم الفلك، وعرض بعض الموضوعات الخاصة بالأرض، وعلم الحيوان، وعلم النبات،...».

وقد جاء حديث القرآن عن هذه الموضوعات التي أشارت العبارات إلى جزء منها شاهداً بإعْجَازِ القرآنِ من عدة أوجه نذكر منها:

١ - أن النَّبِيَّ الْكَرِيمَ أَمِيٌّ لا يقرأ ولا يكتب ولم يتعدد على أحد من أهل العلم بهذه الشؤون، ومع ذلك فقد جاء بعلوم و المعارف لا ينهض بها عالم مهما كان عليه من العلم والإحاطة بالعلوم لغاية تنوعها وتفرعها وسبقها.

٢ - أن ما ذكره من القضايا عن الكون والطبيعة والحيوان والنبات والخلق يتفق مع المعارف العلمية الحديثة، كما تشهد بذلك المؤلفات الكثيرة التي كتبها العلماء المعاصرون من مسلمين وغيرهم.

٣ - جانب قد يستغريه القارئ وهو أن ما لا يحتويه القرآن هام أيضاً ومعجز. فإن القرآن - كما يقول الدكتور موريس بوكاي<sup>(١)</sup> - «لا يحتوي في الواقع على ذكر النظريات السائدة في عصر تزيله عن تنظيم العالم السماوي مثلاً، تلك النظريات التي أثبتت العلم فيما بعد عدم صحتها.. ولا بد من التنويه بهذا الطابع السلبي...».

وهذا يفسر لنا طرفاً من أسباب التوائم والتوافق بين الإسلام والعلم حتى لم يعرف التاريخ صراعاً بينهما، وحتى إنك تجد التقدم العلمي الضخم لا يفاجئ أحداً من علماء الإسلام. على عكس ما حدث في أوربة.

### الوجه الثاني للإخبار عن الغيب

والقرآن حافل بأنواع الأخبار عن الغيب، غيب المستقبل، وغيب الحاضر، وغيب الماضي، بما يحتاج تفصيله لتأليف واسع كبير، لذلك سنكتفي هنا بإلْمَاعَةِ وَلْحَةِ وجِيزَةِ لضيق المقام عن التَّوْسُعِ فضلاً عن الاستيفاء.

أ - الإخبار عن غيب المستقبل الذي لا يطلع عليه إلا بالوحى؛ كما قال الإمام القرطبي<sup>(٢)</sup>:

<sup>(١)</sup> في كتابه القيم «دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة» ص ١٧٥ . وانظر الكتاب كله فإنه هام جداً، وإن كنا نتحفظ عليه في كلامه عن الحديث النبوي الشريف.

<sup>(٢)</sup> في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» (١/٧٤-٧٥).

«فمن ذلك ما وعد الله نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبه: ٣٣] الآية، ففعل ذلك.

وكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أغزى جيوشه عرفهم ما وعدهم الله في إظهار دينه، ليتحققوا بالنصر، وليس تيقنوا بالنجاح، وكان عمر يفعل ذلك، فلم يزل الفتح يتواتي شرقاً وغرباً، برياً وبحراً، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيُسْتَحْلِفُنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَحْلَفُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [آل عمران: ٥٥].  
وقال: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولُهُ الرُّؤْبَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَمْنِيَنَ﴾ [الفتح: ٢٧].

وقال: ﴿وَإِذْ يَدْعُكُمُ اللَّهُ إِلَّا حُدَى الطَّاغِتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأనفال: ٧].  
وقال: ﴿إِمَّا مَنْ غَلَبَ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلْبِهِمْ سَيَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ١].

فهذه كلها أخبار عن العيوب التي لا يقف عليها إلا رب العالمين».

## ب - الأخبار عن غيب الحاضر:

في القرآن أخبار كثيرة عن مغيبات حديثة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولا سيما مما كان بيته الأعداء والمنافقون، وقد عُنِيت سورة التوبه بكشف دخائل المنافقين ودسائسهم، وفضح مؤامراتهم حتى سميت الفاضحة.  
ومن هذا النوع من الأخبار هذان المثالان:

١ - مؤامرة المشركين في بعض الغزوات على المسلمين أن يعطوهم المدنية التي اعتادوها لأجل الصلاة، ويفاجئوهم بالهجوم عليهم غدراً وهم يصلون، فأنزل الله تعالى بيان كيفية صلاة الحرب بما فيه الوقاية من هذه المكيدة وقال فاضحاً نوايا العدو : ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَعْقِلُونَ عَنْ أَسْلَحَتِكُمْ وَأَمْبَعِتُكُمْ فِي مِيلَوْنَ عَلَيْكُمْ مِيلَةً وَاحِدَةً ﴾ [ النساء: ١٠٢ ].

٢ - اثتمر المنافقون بتوجيهه من اليهود فبنوا مسجداً بجوار مسجد قباء، زعموا أنه للصلاة وللمساكين يأowون إليه، وطلبوها من النبِيِّ صلَى الله عليه وسلم أن يصلِّي فيه، فأنزل الله تعالى يكشف خبيئة نفوسهم الخبيثة : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَنَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلِ وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدُنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشَهِدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ \* لَا تَنْقُمْ فِيهِ أَبَدًا مَسْجِدٌ أَسْتَسْ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقْوَمَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَظْهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ [ التوبه: ١٠٧ - ١٠٨ ].

### ج - أخبار الغيب الماضي:

وذلك كثير جداً في القرآن يتضمن الأخبار عن حوادث قديمة وقعت من قبل، وقصص الأنبياء وأئمهم، حتى ليلاحظ القارئ المتأمل عنابة القرآن

<sup>(١)</sup> وقد عدَّ صاحبُ (مناهيل العرفان) الإخبار عن الملائكة والجن من آثار العَيْبِ الحاضر، ونحن نرى أنها تعتبر كذلك بالنسبة لمن سبق منه الإيمان، ولا سيما إن قورنت بما عند الأمم الأخرى من علوم الغيب، أما غير تلك الحالة فهي من الغيبات التي يتوقف الإيمان بها على أصل الإيمان بالله ورسليه.

بالقصص، بشكل بارز ملحوظ، وذلك لما يهدف إليه من الحكم والأسرار الجليلة – مما سنذكره بشيء من التفصيل -. لكن المدف الأكبر والأعظم لهذه القصص هو إثبات إعجاز القرآن، وأنه وحي من الله تعالى، لأن علم الماضي قد ذهب واندثر. والنبي صلى الله عليه وسلم ألمّ لا يقرأ ولا يكتب، وقومه كذلك أميون، ولم ينشأ بين أهل الكتاب ولا كان ثمة مدرسة يتعلم منها هو أو أحد من قومه، ولا خالط أحداً من أهل العلم بالكتاب السابق ولا تلقى عن أحد منهم شيئاً فقط، فلما جاء بهذه الأخبار ينبغي بها نبأ الأنبياء مع أنهم، فيطابق ما كان عند أهل الكتاب صواباً لما يدخله خطأ، ويصحح ما كان عندهم دخله تغيير أو تبديل ويخبر بواقع لا يعلمها أهل الكتاب ولا ذكرت في تراثهم دل ذلك على أنه لا يمكن إلا أن يكون تلقياً من عالم الغيب والشهادة. الذي يعلم السر في السموات والأرض.

وقد ذكر القرآن الكريم هذا الوجه من الإعجاز، وصرح به في مواضع متعددة، تأكيداً لإعجازه، وتأكيداً لتحديث المرتاب الشاك، والمنكر المعاند.

فنجد في عقب ذكر قصة مريم وكفالة النبي الله زكيها لها يقول: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ  
الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقَوْنَ أَقْلَامَهُمْ أَكْفُلُ مُرْيِمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ  
يَخْتَصِّمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وكذلك في سورة القصص عقب قصة موسى عليه السلام: ﴿وَمَا كُنْتَ  
بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قُضِيَّنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرُ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ \* وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرْنَانَ فَتَطاولَ  
عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْنَى تَلَوْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ \* وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ

الظُّرُورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ فِيلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

[القصص: ٤٤ - ٤٦].

ويقول في سورة هود عقب قصة نوح مع قومه: ﴿تَلَكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيَهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَتَتْ لِقَوْمِكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُسْكِنِ﴾ [هود: ٤٩]. فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أمياً لم يقرأ كتاباً قط، ولا تعلم من عالم قط، وقومه كذلك أميون، وهو لم يشاهد تلك الحوادث ولا التقى بشخصيات تلك الواقع التي قصها القرآن، بل قد تعرض لامتحان فيما يأتي به من قصص الغيب الماضي، فطرح عليه أهل الكتاب أسئلة مما يعلمونه مغيباً عنه، فسألوه بواسطة أهل مكة عن أهل الكهف والروح وذى القرنين فأجابهم عن ذلك كله بدقة وتفصيل، فآمنوا من ذلك «.. أَنَّهُ مَا عَلِمَ إِلَّا بِوْحِيِ اللَّهِ وَإِطْلَاعِهِ عَلَيْهِ، وَهِيَ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ، لَا يَقْعُدُ الصَّدْقُ فِيهَا إِلَّا بِالْوَحْيِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(١)</sup>.

غير أنه كان للتحريف والدس في قصص الأنبياء الذي وقع في تراث الأمم السابقة أثر سيء دفع الباحثين العلميين الأجانب إلى التشكيك في هذه القصص، بل إلى الغلو في التشكيك، حتى في القضايا البدوية، مثل وجود بعض الأنبياء المتقدمين الذين تدل دلائل اليقين القطاع على وجودهم، بل من كان له الأثر الكبير في تحول الإنسانية مثل إبراهيم أبي الأنبياء، وموسى وعيسى عليهم السلام. ثم جاء بعواوات الثقافة الأجنبية من أبناء ملتنا ليرددوا بغير علم قالة أولئك ويطبقوها على قصص القرآن ويثيروا حوله الشك والريب، وكان ثمة فئة

<sup>(١)</sup> تثبيت دلائل البوة للقاضي عبد الجبار المحمداي ص ٨٦-٨٧.

وفي هذه العبارة إشارة هامة إلى حكمة من حكم كثرة القصص واتساع المساحة التي يحتلها من القرآن، وهي تأكيد هذا الإعجاز.

من الناس تستكثرون على هذا الإنسان أن يبقى له مرجع واحد ثابت لا يتطرق إليه الظن، يرقى بهذا الإنسان مما آل إليه من الانحدار.

والعجب أن القرآن الكريم أحال الناس من قديم على مخلفات الأمم البائدة وآثارهم، من قبل أن يتقدم علم الآثار ليقرأ فيها الباحثون أخبار الأمم ويستنطقوها أحواها، تأمل قوله تعالى: ﴿وَإِنْكُمْ لَتُمُرِّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ \* وَبِاللَّيلِ وَبِالنَّهَارِ﴾ [الصفات: ١٣٧ - ١٣٨] وقال لفرعون: ﴿فَالَّيْلُ مُتَجَيِّبٌ بِيَدِنَاكَ لَتَكُونَ لَمَنْ خَلَقَ آيَةً﴾ [يوسوس: ٩٢].

لقد أثيرت أسئلة كثيرة حول موسى عليه السلام وعلاقة فرعون بقومه، وزعم بعض الأجانب أنه كان مجرد طاغية كافر، ليس بينه وبين قومه علاقة عبادة، وأثيرت ريبة حول إبراهيم عليه السلام ووجوده، آثار المستشرق اليهود جولد تسيهير هذه الريبة<sup>(١)</sup>.

لكن تقدم علم الآثار وتغوق العلماء في قراءة الأحافير جاء ليسجل مصداق ما جاء به القرآن الكريم، وأنه صحق أخطاء في تراث الأمم السابقة، وتفرد بمعلومات دقيقة لم تكن معروفة عند أحد من العالم.

أما بشأن فرعون فقد تبين من الآثار أنه كان يقيم نوعاً من علاقة التأليه مع شعبه، كما اكتشفت جثته التي تفرد القرآن بالإخبار عن نجاتها: ﴿فَالَّيْلُ مُتَجَيِّبٌ بِيَدِنَاكَ لَتَكُونَ لَمَنْ خَلَقَ آيَةً﴾ [يوسوس: ٩٢]، وعقد الدكتور موريس بوكياي فصلاً هاماً حول هذه القضية وهو قد شاهد «مومياء» فرعون هذا بنفسه في متاحف

<sup>(١)</sup> في أوائل كتابه : «العقيدة والشريعة في الإسلام» ص ١٢ وما بعدها.

القاهرة وانتهت الفصل بقوله: «أيّ بيان رائع لآيات القرآن ذلك الذي يخص بدن فرعون والذي تبه قاعة المؤميات الملكية بدار الآثار بالقاهرة لـكـلـ من يبحث في معطيات المكتشفات الحديثة عن أدلة عن صحة الكتب المقدسة»<sup>(١)</sup>. وأما بشأن إبراهيم الخليل عليه السلام فقد جاءت الحفريات لتثبت أخبار القرآن عنه وعن قومه تلك التي قام بدراستها «ليوناردو وولي» وألف بناء عليها كتابه عن إبراهيم، وإذا به يخبر عن قوم بابل وعبادتهم للنجوم، وأن عبادة القمر سابقة على عبادة الشمس خلافاً لما قد يتadar للذهن، وأن رب الأرباب عند اليونان هو كوكب المشتري وليس الشمس أو القمر، ومن ذلك قدم القرآن ذكر الكواكب في قصة إبراهيم ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي ...﴾ [الأنعام: ٧٦]<sup>(٢)</sup>.

ونخت ب بهذه الكلمة التي يقولها الدكتور بوكاي عن جثة فرعون إذ يقول<sup>(٣)</sup>: «وفي عصر محمد صلى الله عليه وسلم كان كل شيء مجھولاً عن هذا الأمر ولم تكتشف هذه الجثث إلا في نهاية القرن التاسع عشر، وكما يقول القرآن فقد أُنقذَ بدن هذا الفرعون، وأيًّا كان هذا الفرعون فهو الآن في قاعة المؤميات الملكية في المتحف المصري بالقاهرة، ويستطيع الزوار أن يروه».

وأخيراً صدق الله العظيم: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَيْ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ \* وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قَرُونًا فَقَتَلُوا عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيَا فِي أَهْلِ مَدْنِينَ تَلُوا

<sup>(١)</sup> «دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة» لموريس بوكاي ص ٤٩-٢٧١.

<sup>(٢)</sup> انظر التفاصيل المثيرة في كتاب «إبراهيم أبو الأنبياء» لعباس محمود العقاد رحمه الله.

<sup>(٣)</sup> «دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة» ص ٢٦٩.

عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكُمَا كُمَا مُرْسِلِينَ \* وَمَا كُنْتَ بِجِانِبِ الظَّرِيرَ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكُنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِنُذِرَ قَوْمًا  
مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿القصص: ٤٤ - ٤٦﴾

### الوجه الثالث للإعجاز التشريعي

إن القرآن قد جاء بتشريع معجز يثبت أنه تنزيل من الله ووحى منه تبارك وتعالى، وذلك من أوجه كثيرة نذكر منها:

١ - أنه جاء على لسان رجل أمي وفي أمة أمية، تعيش الحياة القبلية بكل كيان أفرادها، لا يخطر على بال أحد منهم انتظام أو التزام بقانون عام أو نظام حضاري.

٢ - أنه تشريع شامل وكافل لإنفاذ الحق، وصيانة مصالح الناس في جميع شؤونهم المالية، والاجتماعية والأسرية، والدولية.

٣ - أنه تسامي على كل قانون عرفته الأمم قديها وحديثها، حتى أقرت المحامع القانونية الدولية الفقه الإسلامي مصدرًا أساسياً تقتبس منه القوانين، وأن القوانين الحديثة في تطورها تسامي لتقترب من الفقه الإسلامي.

قال فضيلة العالمة الكبير الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله<sup>(١)</sup>:

«ومن هذه الأحكام الشرعية التي اشتمل عليها القرآن، فإنها لا يمكن أن تكون من عند محمد صلى الله عليه وسلم، بل هي من عند الله، وقد كتبنا في هذه عدة بحوث في إحدى المجالات الإسلامية بعنوان (شريعة القرآن دليل على

<sup>(١)</sup> في كتاب «المعجزة الكبرى» ص ٩٥، وانظر دراسات مفصلة حول هذا الموضوع وبيان تفوق أنظمة القرآن ص ٤٥ - ٤٧ منه.

أنه من عند الله) جمعتها إحدى الهيئات الإسلامية في رسالة، ونشرتها، وترجمتها إلى الفرنسية وإنكليزية، وقد أقمنا الدليل على أن تلك الشريعة المحكمة لا يمكن أن يأتي بها أمي لا يقرأ ولا يكتب وقد نشأ في بلد أمي ليس به مدرسة ولا مكتب دراسة وهي في أحكامها لا يمكن أن تكون إلا من عند الله تعالى.

وكتبنا بحثاً وزانا فيه بين شريعة القرآن وقانون الرومان في الملكية بالخلافة وذكرنا أن قانون الرومان قد تكون في نحو ثلاثة عشر قرناً ومع ذلك هو بالملكية بالخلافة لا يوازن بشرعية القرآن إلا إذا وزانا بين عصا هشة وسيف بتار، فلا يمكن أن يأتي به محمد من عنده، بل هو من عند الله تعالى.

والاوربيون القانونيون يرون في قانون الميراث في القرآن أن العقل البشري لم يصل إلى الآن إلى خير منه ونحن نقر لهذا أن ما ذكره القرطبي غير الصرف يدل على أن القرآن كله جملة وتفصيلاً هو من عند الله تعالى العليم الخبير».

#### الوجه الرابع اتساق نظريات القرآن وأحكامه

جاء القرآن الكريم بهداية كاملة شاملة، كافية وافية في جميع الشؤون المختلفة المتنوعة، وزاد عدد آياته على ستة آلاف آية تناولت مختلف الموضوعات التي تزيد على المئات، وجاء ذلك كله متفقاً في معانيه وأحكامه، متستقاً في أسلوبه وإعجازه، فكان ذلك دلالة على أنه كلام الله، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ  
الْقُرْآنَ وَلَوْكَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقد فصل الإمام الغزالى وجه الدلالة بهذا تفصيلاً وفياً بإيجاز جميل فقال<sup>(١)</sup>:

<sup>(١)</sup> كما نقل السيوطي في الإتقان (١٢٤/٢).

«الاختلاف لفظ مشترك بين معانٍ، وليس المراد نفي اختلاف الناس فيه بل نفي الاختلاف عن ذات القرآن، يقال: هذا كلام مختلف، أي لا يشبه أوله آخره في الفصاحة أو هو مختلف الدعوى، أي بعضه يدعو إلى الدين وبعضه يدعو إلى الدنيا، أو هو مختلف النظم، فبعضه على وزن الشعر وبعضه منزحف وبعضه على أسلوب مخصوص في الجزلة وبعضه على أسلوب يخالفه.

وكلام الله منزه عن هذه الاختلافات، فإنه على منهاج واحد في النظم مناسب أول آخره، وعلى درجة واحدة في غاية الفصاحة، فليس يشتمل على الغث والسمين، مسوق لمعنى واحد وهو دعوة الخلق إلى الله تعالى وصرفهم عن الدنيا إلى الدين.

وكلام الآدميين تتطرق إليه هذه الاختلافات، إذ كلام الشعرا والمترسلين إذا قيس عليه وجد فيه اختلاف في منهاج النظم، ثم اختلاف في درجات الفصاحة، بل في أصل الفصاحة حتى يشتمل على الغث والسمين، ولا يتساوى رسالتان وقصيدتان بل تشتمل قصيدة على أبيات صصيحة وأبيات سخيفة، وكذلك تشتمل القصائد والأشعار على أغراض مختلفة، لأن الشعرا والفصحاء في كل واد يهيمون، فتارة يمدحون الدنيا وتارة يذمونها، وتارة يمدحون الجبن ويسمونه حزماً وتارة يذمونه ويسمونه ضعفاً، وتارة يمدحون الشجاعة ويسمونها صرامة وتارة يذمونها ويسمونها تهوراً، ولا ينفك كلام الآدمي عن هذه الاختلافات، لأن من شأنها اختلاف الأغراض بالأحوال.

والإنسان تختلف أحواله فتساعده الفصاحة عند ابساط الطبع وفرجه وتتعذر عليه عند الانقباض. وكذلك تختلف أغراضه فيميل إلى الشيء مرة ويميل عنه أخرى، فيوجب ذلك اختلافاً في كلامه بالضرورة، فلا يصادف إنسان

يتكلم في ثلات وعشرين سنة وهي مدة نزول القرآن فيتكلم على غرض واحد ومنهاج واحد، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم بشراً مختلفاً أحواله، فلو كان هذا كلامه أو كلام غيره من البشر لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً».

### **الوجه الخامس تأثير القرآن وفاعليته في الأفتدة**

لو أن إذاعات عالمية أو صحفاً كبيراً أخبرت عن دولية صغرى أنها أخذت بكتاب لديها فارتقت من دحض الضعف والتخلف والجهل إلى أوج القوة والتقدم والعلم حتى اكتسحت الدولتين الأعظم لاعتبرنا ذلك حيلة إذاعية، أو خدعة صحفية، لأن هذا يتنافى مع ما جرت العادة وقوانين الاجتماع، وقد كان العرب أدنى من ذلك حالاً وأشد تخلفاً، وإذا بهم بهذا القرآن وتأثيره فيهم انقلبوا حتى كانوا كما سجل القرآن نفسه في مدحهم: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أَخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وهكذا ظل القرآن مدى التاريخ كتاب المداية، يؤمن بسيبه الكافر، ويهتدي الضال، وينتوب الفاسق ويثوب العاصي، مما لا تجد له من التأثير العميق لكتاب آخر، وهذا وجه من الإعجاز بديع، ربما غفل عنه كثير من الباحثين، ولنستمع إلى الإمام الخطابي يحدثنا عنه ويجلو وجه إعجازه فيقول<sup>(١)</sup>: «قلت: في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره بالنفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا متشوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلابة في حال ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص إليه، تستبشر به النفوس وتنتشح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه، مرتابة قد عرها من

<sup>(١)</sup> في رسالته «بيان إعجاز القرآن» من مجموعة ثلات رسائل في إعجاز القرآن ص ٦٤.

الوجيب والقلق وتغشاها الخوف والفرق وتقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب،  
يحول ين النفس وبين مضمراها وعقالدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول  
صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتاکها أقبلوا يريدون اغتياله وقتلها  
فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبشو حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن  
رأيهم الأول، وأن يركعوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه وصارت عداوتهم موالة  
وكفراهم إيماناً».

\* \* \*



حقوق الطبع والنشر محفوظة لجامعة دمشق